

بعل الفجرية

جميع الحقوق محفوظة
الكتاب: بعل الفجرية
رواية
تأليف: تحسين كرمياني
الطبعة الأولى: ٢٠١٢
تصميم الغلاف: أمينة صلاح الدين



طباعة. نشر. توزيع

دمشق/ جوال: ٩٤٤٦٢٨٥٧٠ - ٠٠٩٦٣

Email: akramaleshi@gmail.com

تحسين كرمياني

بعل الضجرية

رواية

بقعة ضوء

عام (الغبار) ..!!

أكتشف عامل حفر شاب صندوقاً حديدياً صغيراً، أثناء الحملة الشعبية الكبيرة لأزالة طلول وخرائب في جانب حيوي من بلدة (جلبلاء).

البلدة.. دمرتها حرب أهلية، دامت ثلاثين عاماً..!!

* * *

عندما ازاح ذلك العامل كومة أنقاض، وجد صندوقاً حديدياً، فشرع يسحبه ما أن لاح ركناً منه، وجده مقفول بقفل كبير رغم ركام الطين وقدمه، تمكّن الصندوق من الحفاظ على لونه الحائل، بسبب قوة معدنه..!!

* * *

يعود الصندوق الحديدي لزمان ليس بقديم حيث عرفه المهندس المشرف على الحملة العظمى لكنس الخرائب، بغية تشييد مدينة حديثة على رقتها. صندوق محكم لحفظ المسدسات الشخصية لأمرأء وضباط أصحاب المراتب العسكرية العليا. يعود لمعسكر

البلدة، الذي تعرض لـ (فرهود شامل) بُعيد سقوط البلاد بأيدي قوات متعددة الأطماع والنيّات، غزت باسم - التحالف - تحت هدف غير واضح الملامح. رُوّجوا لحملتهم العظمى. عبر وسائل إعلام العالم بأسره، واجتماعات سرية ومكوكية لرؤساء البلدان العظمى، تحت مانشيت أممي غير قابل النقاش.

- لسنا غزاة..جننا محررين لكنس البلاد من أسلحة ذات خراب بشري شامل.

* * *

سَلَّم العامل الصندوق المفضل إلى المهندس المشرف الذي قام بدوره تسليمه إلى دائرة بلدية البلدة، فقامت بدورها بتحويله إلى دائرة أمن البلدة، تُرك شهرين على دولاب حديدي في غرفة المدير ثم أنتقل إلى بناية الحاكم الجديد للبلدة بعد يومين من تسَلَّم مهام منصبه، وضعه الحاكم - بعد تخمين سريع لمحتوياته الداخلية - على دولاب خشبي أمامه، تاركاً أمره لفرصة سانحة، بعدما جربته الأيدي التي تناقلته. بأعين ثاقبة غاصت في تضاريس الحديد السميك، وتم صرف النظر عنه بعدما رسمت الأذهان فراغاً واقعياً إستناداً لوزنه.

فالأيدي التي حملته، وجدته لا يستحق الإهتمام الزائد بما يسكن داخله. مجرد صندوق خفيف الوزن، وجدوه تحت أنقاض بيت طيني في حي الفقراء في الجزء الشمالي للبلدة، المحاذية لنهر (دلبلاء)، بيوت طينية متآكلة لقدم بناءها تتداخل البيوت وتتعرج

موزعة على جهتي النهر ممرات ثعبانية خانقة.

تم ترك الصندوق من غير بذل جهد لتخمين ما يحتويه. كون الحاكم الجديد ما أن دخل المبنى المخصص له حتى إنشغل بالمهمة الكبيرة الملقاة على عاتقه.

"مهمة ترأس لجنة إعادة أعمار البلدة المنكوبة" ..!!

* * *

وجد حاكم البلدة نفسه في مؤتمر صحفي استثنائي، تم استدعاء وسائل إعلام معروفة إليها، رؤساء تحرير الصحف المحلية والإقليمية وآخرون من دول صديقة من معظم إذاعات البث السمعي، حرصاً لنقل وقائع المؤتمر الصحفي الكبير إلى أرجاء المعمورة، تحت خيام كبيرة، تراصت بصفوف منتظمة بكراسي بلاستيكية، حضور فريد تم استدعائه ببطاقات دعوة، جلس الحضور بمهابة وخشوع، رافعين أبواذهم ككلاب ماء تحت الشمس، نافخين أوداجهم كطواويس شبعانة أمام كاميرات تدور بينهم، شباب وشابات يشهرون كاميراتهم. يمدون لاقطات صوتية إلى منصة خشبية متحركة، شبان وشابات يجلسون، شبان وشابات يقفون. يشهرون أقلام متحمسة لتدوين وقائع منقولة على الهواء مباشرة عبر الفضائيات.

* * *

مسّحون سباباتهم على زناد رشاشاتهم، ينتظرون بعيون قانصة وأنفاس محتبسة، متهيئون لمعركة متوقعة بالنسبة لهم. أية مركبة

قادمة بإتجاههم، أي شخص منفوخ الجسد يأتي صوبهم، ينطلق سيل الرصاص المتحمس إليه، قبل أن يكون القادم سبباً لكارثة جديدة.

رجال ينحرون الخراف، رجال يهيئون قدور عملاقة، يؤججون نيران في مواقد حطبية هائلة، بعدما شح وجود الغاز السائل، وتعذر إيجاد الطباخات العاملة بالنفط الأبيض لنفادها من الأسواق. جموع من الطباخين المهرة تتأبر لعمل وليمة تاريخية، سيسيل لها لعاب المشاهدين للشاشات والشبكات الناقلة للحدث، مصور خاص متفرغ لنقل أولاً بأول الترتيبات المتصاعدة لإعداد الطعام، يتقل بكاميرته بين أكوام الحوم مجندلة والقدور الكبيرة، طبّاخون منهمكون بنشاط غير معهود، كل شيء يجري على الهواء مباشرة، عبر فضائيات دفعت أموال طائلة للحصول على موافقة نقل مباشر للحدث الكبير.

* * *

تحسباً للطوارئ والمفاجآت في بلدة لم تجد استقراراً أمنياً منذ دخل الأعراب البلاد، تم فرض حظر التجوال في ذلك اليوم (أشخاص ومركبات).

* * *

طرحت قضية جوهريّة على طاولة النقاش، قضية بدء الحملة الكبيرة لإعادة أعمار بلدة (جلبلاء)، بعد حرب عرقية كبيرة أحدثت خراباً في الكثير من البيوتات، وجانباً كاملاً يعود للفقراء وأصحاب

الدخل المحدود، والفئات المعدمة، جراء تحول معركة صغيرة إلى معركة عرقية أستخدمت فيها السبل الأكثر تدميراً، ديناميت من النوعية الناسفة، لا أحد توصل إلى مصادره، تأتي إلى البلدة رغم الرقابة المتشددة، والتفتيش الكامل للمركبات والأفراد عبر مسدس يدوي ييثر إشارات تحذيرية لأي مادة قاتلة، تم فرض حظر التجوال الليلي وسد الطرق والمنافذ المؤدية إلى البلدة، لكن المواد المتفجرة ظلّت تتصاعد وتتضخم، ولم تتفع الكلاب المدربة على إيجاد المتفجرات والأسلحة في تفتيشات روتينية، لم تتفع الجوائز المالية المغرية لمن يدلي بمعلومات عن وجودها. واصلت الأيدي الخفية تفخيخ شاحنات محملة بمواد بناء، لتزلزل البلدة أو أن انفجاراتها، تطورت الحرب إلى حرب تصفية حسابات قديمة بين الأطراف المتحاربة، خصومات شكلية، تم نفع النار في أرمدها، تشابكت الجموع، (بالأيدي والأسلحة)، مما تعذر على السلطة الحاكمة إحتواء الموقف الذي راح يتأزم وفق حركة أميال الساعة.

انسحبت الحكومة في البلدة لتتحصن بثكناتها المسورة بالخرسانات الكونكريتية والأسلاك الشائكة المكهربة، وققت مكتوفة الأيدي لا حول لها، تراقب الذي يحصل في وضح النهار، حرب طالت فتعذر عليهم إيقافها.

* * *

طرحت أسئلة بخصوص تلك الأيام السود، أيام الموت الجماعي، الموت بالجملة للبشر، كيفية تمكين الأطراف المتنازعة الجلوس

مرة أخرى على طاولة المحبة والوثام الذي ضاع شعاعه لسنوات طوال، ناس فقدت أبنائها، ناس فقدت أموالها، ناس هجرت، ناس أتت، ماهي سبل تعويض العائلات المتضررة، ما هي الضمانات لعدم تكرار ما حدث في الأيام القادمة.

* * *

شرح الحاكم الجديد مضمون القرارات التي أتخذت في إجتماع سرّي بينه وبين الجهات العليا، ذات العلاقة بحملات التعمير الكبرى، تحت إشراف متخصص (أجنبي) يمتلك باعاً طويلاً في تعمير بلدان ما بعد الحروب، بعد نقاش كثير، حصلت المدينة بالإجماع على دعم كبير مفتوح الجناحين، كونها بلدة تحتضن ألواناً متجانسة من القوميات والطوائف، لم يوضح الحاكم الجهات المانحة والداعمة للمشروع، أو الشركات العاملة، للجهات المستثمرة للمشاريع الخدمية، تجاهل ذكر اسم المشرف (الأجنبي) القائم بحملة العمران لأسباب أمنية، رغم أن السؤال حوله طرح لمرات من قبل الصحفيين، إكتفى بالقول:

- أن الدعم المرصود في الحملة غير محدود، يكفي لبناء بلدة جديدة، بلدة فيها شروط العيش الرغيد، الصحة الدائمة والأمان المنشود، شقق مؤسسة محمية، شوارع ومدارس حديثة، منتديات ترفيهية، منتجعات للاستجمام، كازينوهات لراحة الناس، حدائق عامة للعائلات، مكتبة مركزية لمن يطلب الثقافة، مقاهي للإنترنت، فضائية ناطقة باسم أهالي البلدة، بلغات حيّة، مسابح

للجنسين، غابات للنزهة، سد نهري كبير لخزن مياه الأمطار الزاحفة من الجبال المحيطة بالبلدة، بغية جذب المصطافين، ذلك مكسب مالي آخر للبلدة، سيتم بناء فنادق (خمس نجوم)، فنادق تستوعب رغبات المصطافين القادمين من كافة بلدان العالم.

* * *

تطرق الحضور من على المنبر، تناقشوا فيما بينهم همساً من على كراسيهم، تناولوا الكثير من التفاصيل الشائكة بخصوص سبب نشوب حرب غير رحيمة، بين ناس تعرف بعضها البعض، بين عائلات تتداخل فيما بينها حسباً ونسباً، عن سبب الشرارة الأولى، بعد سلسلة نقاشات والكثير من التحقيقات الصحفية تبين، إن قرار الحكومة قبل أكثر من ثلاثة عقود السبب العلني والمباشر لإندلاع حرب السنوات الثلاثين، قرار صدر لتعويض العائلات المتضررة، اللاجئون السياسيون، المهجرون، الفارون من جحيم الحكومة القديمة، المبعدون من وظائفهم، ذوو المعدومون، ذوو المؤنفلون، أصحاب الأملاك المصادرة، وجدت الحكومة الجديدة نفسها مرغمة على تنفيذ بنود ذلك القرار المنسي، بعدما تصافت الأطراف المتنازعة على كراسي السلطة بالتوافق التام، قررت بالإجماع البدء بالتنفيذ الفوري، عبر الدعم المفتوح ومن غير لجان (نزاهة ومتابعة) كحلقات زائدة يمكن الاستغناء عنها، لبناء أكثر البلدات نكبة.. (جليلاء).

* * *

قرأ رئيس اللجنة الإعلامية المنتخب للبلدة ورقته:

سيداتي الحاضرات..

سادتي الحضور..

الأحبة المشاهدون..

لا تقام المدن الحديثة إلاّ على أنقاض حوادث تاريخية حاسمة،
حوادث تتجهها ملابسات الواقع وتقلبات الظروف، والتدخلات
السافرة من قبل أطراف لها غايات ودسائس مبيتة، أطراف إقليمية
وجدت البلدان الجارة لها، البلدان المنكوبة ساحات ممهدة لتمير
سياساتها أو تسفير سلعها الإيدولوجية، أو حوادث إبتكرتها
الحكومات المتعاقبة، من باب التجديد في أساليب حكمها، تلك
الحوادث الحاضرة في ذاكرتنا، أمدّت شبكات (صناعة الموت)
بالمال لتدمير وتأخير البلدان المحتلة.

في التاريخ البشري، حوادث إستعمرت ذاكرة الناس لأجيال
متلاحقة، ما تزال تبسط جناحها في ذاكرة الأجيال المتعاقبة،
حوادث لما تزل الألسن تتناقلها بكامل حرارة لحظاتها، تؤثر في
الذاكرة الجمعية لكل مرحلة، تحقق فسحات واسعة للتأمل،
تدفع تلك الذاكرات للبحث والتقصي عن المزيد من التفاصيل
والأسرار المطمورة، من أجل تكملة المشاهد الكاملة لمجريات
الأحداث المتناسلة، والتي حدثت في مواقيتها المتفاوتة.

سيداتي الحاضرات..

سادتي الحضور..

المشاهدون الكرام..

تعلمون، أنّ الحروب وقائع كارثية مؤلمة، لا تأتي من فراغات، الحروب آلة يلعب بها الحكام الصبيان، متهورون يتخذونها منازلًا للعبث والتباهي، لإرضاء نفوسهم العليلة، هل تساءلتم يوماً لم تستهون قراءة كتب الحروب السالفة، لم نقرأ الروايات الكبيرة التي عالجت موضوعة الحرب، هل طرحتم على أنفسكم لم ننجذب لقراءة تلك الكتب، لم نرغب البحث عن تفاصيلها المحبوكة في الخفاء، لم نحن نلهث وراء الومضات الساحرة التي تسري في عروق المدونات والتحقيقات الصحفية لتلك الأيام التي تتاطحت فيها الناس بالقنابل، بالوسائل الأكثر الوحشية، ناس تقاتلت من غير سبب، قُتلت، قُتلت دون أن تعرف لماذا هي تتقاتل، طرفان ينساقان تحت لمعان أكاذيب تحشرها أبواق جاهزة، مؤهلة لحقن مصل الحماسة، في نفوس أجبرها الحكام أن تغدو غفلة، في كل حرب أو وراءها كوكبة منحرفة من رجال، جاهزين على تعبئة البشر تحت سليفون التمجيد، والتعظيم الفارغ لكل راعي رعية أهوج بليد.

سيداتي الحاضرات..

سادتي الحضور..

الأخوة المشاهدون..

نحن ننجر وراء وميض تلك المدن التي تغذت بها الحروب، كونها صارت من بعد رماد مدن تجتذب الناس، صارت مدن ذاكرة تلهب حماس الناس لزيارتها، ناس تبذل الغالي والنفيس، تشد الرحال عابرين البحار، المحيطات إليها، يأتون ربما للتحقق

من وجودها، أو من أجل ذرف دمعة حزن، وضع زهرة تعاطف على
أضرحة ضحاياها.

سيداتي .. سادتي..

نجتمع هنا من أجل غاية نبيلة، من أجل دعم هذا التوافق
العراقي الحاصل بعد سنوات من النفور وفقدان الغالي والنفيس،
من أجل بناء بلدتنا، من أجل إعادة بريقتها المذاب بين الطلول، من
أجل تاريخها المهم، قبل كل شيء - ربما هو المطلب العام لكم
وللناس المحتشدين في إصقاع العالم أمام شاشات التلفزة، مطلب
ليس بالصعب، لقد مضى زمن الصعوبات والخوف من التعرية
للذات - قررنا أن نمد حبلاً طويلاً، ننشر عليه الغسيل، غسيل
سنوات الألم والتهرب من المسؤوليات الجسيمة، سنفتح سجلاتنا
السريّة كي ننقل ما حدث بمصداقية للعالم المتعاطف معنا، نعرف
أن عالم اليوم يتعاطى الصدق، عالم اليوم لا يشبه عالم البارحة،
من أجل بناء مدينة خالدة، مدينة تتكأ على تاريخ كبير ومهول،
يجب أن نفرغ نفوسنا من العوائل الطفيلية، من الرماد المتراكم،
من الضغائن المنفثّة.

* * *

(جليلاء) تستحق أن تزهو بين مدن التواريخ، هي لا تقل شأنًا،
لا موقعاً، لا أحداثاً عن مدن العالم، هي عشوائية جغرافياً، ناسها
ألوان، لها نهر يجمع كما تجمع الأنهر أوان المطر، لها جبال غير
مروّضة، لها مناخات تخالف كيانات الفصول، لها سد حديدي لا

يقهر، لها بساتين وحقول الفستق، لها أرياف، قرى مترامية، لها قاطرة ما تزال تصفر في الأذهان رغم إلغائها. لها تواريخ دامية في القرون الغابرة، تتاحرت حولها الأقوام الغازية، دارت فيها رحي أشرس المعارك، فيها شعراء وكتّاب، فيها مطربين يمتلكون أصوات نادرة، فيها صعاليك وبهاليل، هي مدينة تستحق الثناء، سنفرش أسرار تلك الأيام، سنفرش ملفات التحقيقات السرية، سنعلن أسماء القتلى، أولئك الذين غادروا، الذين غدروا، من أجل حشر غبار الماضي في بوتقة الذاكرة والنسيان، ورميها في بحر التاريخ، عندها تغدو بلدتنا (جلبلاء) بقعة ضوء.

* * *

واعد حاكم البلدة الجديد الحضور الصحفي، كل ما يحتاجونه من أسرار كي يكونوا بمستوى الحدث، أكد ما ذهب إليه رئيس اللجنة الاعلامية في البلدة:

- أن عالم اليوم لا يشبه عالم زمن الحروب، عالم اليوم متحد، يريد معرفة ما جرى في تلك الأزمنة القديمة، يريد الملفات المطمورة في الأرض، أو التي تم حرقها، يريد أن يعرف قصص أجدادهم، عالم اليوم والغد يريد حياة مثالية مبنية على الصدق وتبادل التراث.

* * *

طلبت فتاة ترتدي بنطلون قصير وشعر مجذوذ، طلبت (نقطة ضوء)، شرارة البدء بنقل التفاصيل إلى العالم الجالس أمام أجهزة التلفاز.. قالت:

- زميلاتى الحاضرات..

- الزملاء الحضور..

ليس من اليسر ببدء حملة أعمار كبيرة، أو البدء بعمل استثنائي لإحتواء ما حدث عبر سنوات غير معقولة، حرب داخلية بلا هوادة أو هوان، وقانا الله شرها، أبعدها عن أجيالنا الجديدة، المهمة ليست يسيرة كما يتصور البعض، ليست مهمة وضع (طوابق) على (طوابق) لتغدو مساكن مؤهلة للعيش، نريد أبنية جاذبة للناس، نريدها وسائل سكن، معيشة، نريدها مدينة اصطياف، المهمة أكبر مما تتصور الناس، المهمة شاقة، يتوجب علينا أن نتعامل بدقة وبذهنية المستقبل، لا نتجرد من واقعية العالم، وننجرف للعمل وفق ما تفرضه علينا أمزجتنا العبيثة، أو رغبات ناس يحملون أطماع شخصية، التاريخ طويل، فيه ملابسات كثيرة، من أصلح سيره أفلح، من قلّد هوى، نحن محاصرون بالزمن، ليس ثمة وقت للبحث والنقاش الغير المجدي، نحن نحتاج أشياء مفيدة، موجزة، خلاصة معقولة ومقبولة كي نجعل من بلدة (جلبلاء) مدينة تاريخية.

* * *

ما أن جلست البنت السفور، قام رجل كهل، رجل وقور بزى عربي، في السبعين من عمره، تقدم من المنصة، حيّا الجميع.. بعد تصفيق طويل.. قال:

- أيها الحضور الكريم، من أجل وقف نزف دماء أهالي بلدتنا

العزيزة بادرت لأعلن الصلح الواجب، نحن أمة صلح وفلاح، لا أمة تهيج الجراح، خسرتنا من أبناء عشيرتنا نفوس لا تعد، ترملت نساء، تيممت أطفال، لكن القلب الكبير الذي نملكه فتح أبواب المحبة، قاذفاً أوساخ الماضي في سلة النسيان.

قام شيخ آخر، تقدم من الشيخ الواقف وراء المنصة، تعانقا وسط تصفيقات توقف بصعوبة، تراشقت البنادق، تزامحت مواكب المصورين من حولهما، رفعاً أيديهما للجميع، قام الحاكم الجديد وقف وسط الشيخين، طامعاً بصورة قد لا تتكرر في ظل سيادته، ساد هدوء مشوب بأرتياح تام، عادا الشيخان يداً بيد إلى مكانيهما.

* * *

تذكر الحاكم الصندوق المرمي على دولاب في غرفته..قال:
- وجدنا صندوقاً حديدياً. وجدناه في المكان الذي بدأت فيها شرارة الحرب التي امتدت، هذا الصندوق وجدناه تحت أنقاض بيت (كاتب العرائض) الذي إندفع إليه الناس في ذلك الزمن البعيد، تدافعوا كي يدون لهم ما جرى لهم سنوات الغليان، الناس زحفت إليه لأنه الكاتب الوحيد للعرائض في البلدة، بعد صدور قرار التعويض ساري المفعول من قبل (حكومة الاختلاف) في حينها، اعتقد إن في الصندوق الكثير من أوراق العرائض التي كتبها للناس، الحوادث التي واجهتهم، الظلم الذي وقع عليهم، الخسائر التي تكبدوها، طرق إعتقالاتهم، كيفية تهجيرهم،

كيف تم تدمير حقولهم، بساتينهم، لابد إنه كتب كل شيء،
قبل أن يقتل (كاتب العرائض) في تلك الحرب العرقية القذرة.

* * *

تم تشكيل لجنة ثقافية للنظر في محتويات الصندوق
الحديدي، كسروا القفل، وجدوا جهاز تسجيل صغير، مذياع
بحجم الكف، وجدوا إثنتا عشرة كاسيت تسجيل، بند أوراق
حائلة اللون، قليل منها تحمل كتابات، لم تعمل آلة التسجيل
بسبب تحجر بطارياتها، تلف (قايشاتها)، تم الاستعانة بآلة تسجيل
جديدة، سمعوا صوت رجل خشن، صوت سلس، لا ينقطع، عالم
بأصول سرد الحكايات، رجل يحكي بلا تردد، كلامه غريب،
يتنقل بسيرحكايته من حالة لحالة، اتفقوا على سماع
(الكاسيتات) كلها قبل إتخاذ أي قرار جماعي مناسب بشأنها،
أحداث تحتاج لرجل ماهر لتوليها، أو تجميعها للوقوف على
مضامينها، وجدوا أشرطة الكاسيتات غير مرقومة، جربوا
الكاسيتات كلها، نفس الرجل يحكي قصته، أحياناً أسطورته،
سمعوا جمل مثيرة، كثيرة، مهمة.

.. (أكتب مثلما أحكي لك..)

.. (هذه أسطورتي، أكتبها ولا تخف..)

.. (إن لم تكتبها مثلما أحكيها لك أنت جبان..)

.. (الحكومة لاتخاف من الأقلام المشهورة بوجهها، تخاف من

البنادق، الأقلام لا تقتل، البنادق تقتل..)

.. (الحكومة مشغولة بالإرهاب، لا يعينها الكباب)
.. (إن لم تنقلها مثلما أنقلها لك خنت..)
.. (أسطورتني.. / حكايتي.. / الأعراب.. / المثلث.. / الزميل حمار.. /
منار.. / نوار.. / عشتار..)

* * *

**قرأوا الأوراق المكتوبة بخط متشابك، تعذر عليهم الوصول
إلى (بقعة ضوء) ينير الطريق أمامهم.
**قلبوا العرائض المكتوبة.
**استمعوا للأشرطة مرّات عديدة.
**تم تدوين جمل طويلة، جمل قصيرة.
تعذر عليهم ربط الجمل، فك لغز حكاية رجل يحكي بصوت
خشن، في أشرطة تسجيل، عددها اثنتا عشر (كاسيت).

* * *

لجأت اللجنة المنبثقة من المؤتمر الصحفي الكبير، لدعم حملة
أعمار بلدة (جلبلاء) المنكوبة إلى الأوراق، وجدوا محاولة جادة،
عصية لـ (كاتب العرائض) يحاول كتابة أوراق معتنى بها بشكل
مرتب، مرقومة حسب الأصول، محاولة جادة لكتابة (مذكرات
أدبية) أو (رواية)، رواية لا تشبه الروايات المنشورة، ثلاثون ورقة
مكتوبة بخط دقيق، مدخل أولي عن حكاية طويلة، حكاية رجل
دخل ليحكي حكايته، خاله (كاتب العرائض) باحث عن

تعويضات، لكنه أصر أنه يبحث خلاف الناس، يبحث عن أسطورته، تفرغ (كاتب العرائض) لكتابتها، بعدما ترك الرجل مدياعاً بحجم الكف، غادره، اختفى كلياً عن البلدة قبل نشوب الإقتتال الداخلي، موجز الأوراق يقول:

(أن رجلاً غريباً جاءه يسرد عليه حكايته، خاله باحث عن تعويض، أشرط عليه فتح جهاز التسجيل لتدوين حكايته، الرجل الغريب رغب تفرغ شحنات متراكمة في صدره، طالت حكايته أكثر مما يجب، تطرق عن أشياء معروفة، أشياء مسموعة، أشياء غير معقولة، تذمر الناس الواقفين ببابه، ظلّ الرجل يواصل حكايته دون توقف، قبل أن ترتج البلدة لإنفجار مفرغ.

* * *

قررت اللجنة أن تلجأ إلى أديب يجيد فك ألغاز الحكاية، الزمن يضغط، شركات عالمية بدأت تشد الرحال للبدء بحملة تعمیر بلدة (جلبلاء).

قال قائل منهم:

- وحده (تحسين كرمياني)، مؤرخ البلدة، يستطيع فك لغز هذه الأشرطة والأوراق، ابن البلدة، الوفي لها، جاع، باع كل شيء ولم يتركها، رفض الهجرة بعدما جاءت دعوات من أحزاب، وتجمعات ثقافية مستقلة، من بلدان مجاورة، وجهات خارجية، وحده المؤهل لربط الأمور، وحده المتمكن من صياغة هذا العمل الغريب..!!

* * *

وجدوه في خريف العمر معتزلاً، يجلس على كرسي صاج
بمواجهة الطرف الذي تحول إلى خراب من البلدة، يستعيد أوراق
طفولته، يحاول أن يتذكر أصدقاءه، متفرغ كلياً للتمتع،
لتسطير لمحات من الماضي الأليم لبلدته، لديه الوقت الكافي
لكتابة كتاب، من الممكن أن يغدو شرارة البدء، لبناء مدينة
الحلم في ذاكرة العالم..!!

* * *

استقبلهم بترحاب، عاتبهم لعدم دعوته للمؤتمر الصحفي
العالمي..قال لهم:
- قولوا للمسؤولين الجدد أن لا يشمل (حظر التجوال) الأدباء،
أنها فرص نادرة، تاريخية، لتدوين حركة الزمن، وجعل الحياة
أكثر حيوية.
قولوا لهم، أتركوا الشعراء يتفسحون أثاء (حظر التجوال)،
لأن القصائد تستفيق عندما تتجول البنادق في الشوارع.

* * *

من غير شروط قبل المغامرة..!!

* * *

مذكرات كاتب العرائض

استهوتني رغبة مباحثة، رغبة قديمة نامت طويلاً تحت أجواء غير ملائمة لتحقيقها، ظلّت نائمة ومائلة في تجاذب دائم، تنمو ببطء في خفاء تام.

الرغبة في تدوين ما يجري من وقائع كارثية على مسرح الزمن، يوماً بيوم، أحداث سياسية تتشابك، وقائع لا إنسانية تتشظى، أفق يغيث، أماني، أحلام تلهث وراء مستقبل يومض، يتواري.

رغبت أن أدون ما أشاهد، ما أسمع من حقائق وقائع، مسموعات أحداث، أدون رؤيتي لما يجري مذوعيت، مذ هجست أن في الحياة عبث مقصود، يساوي كمية الثوابت.

حروب تجري علناً لتدمير ثوابت الوجود، تقودها فئات لا تدخر وسعاً لكسب معاركها المزاجية، محاولات إلغاء كمية الحقائق الثابتة للعالم المتناثر تتواصل على قدم وساق.

قلت أكتب تأويلات ألسنة ناس بسطاء العيش، قليلو العلم، ناس تحكي ما تسمع، دون أن تتحرى عن صدق المرويات اللسانية المشاعة، قلوبها عفوية، لا تكذب ما تسمع، تحب الكلام، مادام الكلام بدون ثمن في زمن غالي جداً، الناس تجلس ساعات

طويلة، من أجل تبادل الكلام، كلام جاد، كلام هزل، منه ما هو مفيد، منه غايته قتل أمراض الزمن، السأم، الكآبة، الفقر، التهجير، التكفير، التدمير، وسائر الأمراض السياسية الحديثة. أينما تجد ناس، في المقاهي، في المنازل، في الشوارع، وداخل حافلات النقل، تطلق عقيرة ألسنتها، في كل محفل، يدلون دلائهم في آبار سواء فيها ماء أو فراغ، سواء يعنيهم أو لا يعنيهم مولد الحدث، مولد الحكاية، زمان وقوع الحدث، قائل الحكاية، ناقلها. ناس تسمع الحكايات، تفسر ألسنتها ما تسمع من أحداث، تشاع الحكايات، حكاية تتشظى إلى حكايات، مصدرها واحد، ناقلها لسان واحد، ناشرها ألسنة.

وكل فرد يروي الحكاية حسب مزاجه..!!

* * *

رغبة التدوين اليومي للوقائع قديمة، رغبة ولدت فجأة، مثلما باغتتني بعد سنوات نوم، أتت لحوحة لتأجيج أفران الذات لدلق الأسرار، جاءت في وقت ملائم، في زمن مناسب، يطيب للمرء هذه الأيام اللجوء إلى أغواره، لدلق أوراق ماضيه على طاولة عزلته، لغربلتها من باب التتقيب البحثي عن سبب تدهور الحياة، يلجأ المرء إليه أحياناً، من أجل لمس مسحة سرور، بعدما تجلببت الأيام بوشاح الفوضى، ربما من أجل شم نفحة حياة، حياة حقيقية ولدت، وانطفأت في زمن ما..!!

* * *

عسر الحال، أجل تفعيل الرغبة/رغبتى، تركها ثابتة، تركها من غير إهمال، رغبة لم تتم، ظلت يقظة، سرّاً تتفاعل، رويداً رويداً تنمو، تتحين الفرص، تسرق ما يتواجد من زاد، زاد ضحل، زاد غني، أينما تتوالد حكاية، أينما يحدث حدث، أينما يتواجد (كتاب خطر) غير متناول اليد، كتاب لا أشتريه طبعاً، من يد ليد، من مثقف مناهض لمثقف مناهض، ينتقل الكتاب المهرّب بكماتان تام، إذ ليس بوسعى شراء ما أجد من كتب مرمية على أرصفة قذرة، تحفرها عيون الوشاة بحثاً عن أشياء لا تسرهم، أو تقلق أمزجتهم السياسية، أو تحفر أركان السلطة بكلماتها التديديّة.

ناس تريد بيع مكتباتها سرّاً لمجابهة غول الجوع الزاحف، العيش أولى من شراء الكتب، البطون تصرخ، الذاكرة تضج، أي الشرّين أهون، أي الندائين ينتصر، نداء البطن دائماً فعّال لما يبغى، محقق لما يريد، كل كتاب يقع فريسة بين مخالف رغبتى ألتهمه، من الغلاف إلى الغلاف، أحفظ أسماء الشخصيات، العناوين.

كتاب أستعيره من صديق، كتاب مرمي في قمامة، كتاب منسي بين ركاب حاجيات بيوت أصحاب التعليم، يرموه تحوطاً من مباحثات رجال تفتيش المنازل، كل كتاب أجده، أقرأه مرة، مرات حسب الظرف المتاح، حسب إلحاح المزاج الذي يزيده كميّة حيرته..!!

* * *

رغبة تدوين الحقائق تفاعلت يوم وقفت أمام مكتبة (أبو كامل)، وقفت، أنا في التاسعة، أو في العاشرة من عمري، طالب في المرحلة الابتدائية، على ما أتذكر، حدث ذلك في عامي التاسع، فقير أبن فقير إلى نهاية الحياة، شجرة عائلية تجردت من البركات والحظوظ، ثمرة، منتجة لكن سلاسل لا تنتهي من فقراء، مساكين، مهمشون، مهشمون، محسودون.

وقفت بلباس بائس، هيئة مزرية، شعر غير ممشط، شعر (خنافس) موضة فوضوية داهمت البلدة، قطعت رزق الحلاقين، شعور غابرة يتشكل كأعشاش لقاق فوق أجساد نحيلة، حين تهب ريح (تبهذل) العش الشعري المنتفخ، تنفشه كما ينفش قطع غنم كومة تبن، أقف، كفي يرتفع، ينزل، يرتفع سريعاً، يهبط بسرعة البرق، يرتفع لمسح (مخطان) أنفي، ينزل الكف اليمين ليمسح (المخطان) بالبنطلون العتيق الذي أردتي، بنطلون الـ (لنكة)، بنطلون الـ (جارلس)، العالم من حوله/حولي يلهث، كل العالم يلهث، عالم البلدة، عالم العالم الواسع، الكل يلهث من أجل لقمة العيش.

الصبي الواقف (أنا) لم يبال بما يجري من حوله، وقف يشبع نظره، يؤسس كيانه، وقف مأخوذاً بما يرى، منجذباً إلى عالم ساحر، عالم الضوء، الموسيقى، الخلود النابت على ركام الأوراق المهمة..!!

* * *

وقفت أمام واجهة مكتبة (أبو كامل)، من وراء الزجاج السميك، الزجاج الذي يختلف عن زجاج اليوم، زجاج لا ينكسر، قوي، عنيد، زجاج اليوم هش، زجاج اليوم ينتحر أحياناً حسب رغبته، تراه زجاجاً بألوان شتى، ناصعة كماء الينابيع، لكنه هش، لمعانه كاذب، خادع للنظر، أو ربما عيون اليوم لا تشبه عيون الأمس، عيون الماضي تستلم إيعازاتها من البصيرة، البصيرة لا تكذب مطلقاً، عيون اليوم تستلم إيعازاتها من الأمزجة، الأمزجة تتغير، تتبدل، لكل زمان مناخ يسود، يساوي حركة الأشياء الدائرة ضمن نطاقه، حركة الناس، حركة العالم، تأقلم روتيني متزن تلك هي فلسفة الزمن، كما توصلت إليه من خلال تمعني المتواصل للأشياء ليل نهار..!!

* * *

وقفت ذات عصر، قدمي ساقتي، قدمان ينتعلان (صندل) إسفنج، الموديل الحديث الذي شاع، أحدث معارك بين الزوج والزوجة، بين الأب وأبنائه، ما أن هبط إلى سوق البلدة، رغب كل واحد أن ينتعل موديل (صندل) نزل إلى سوق البلدة، يخرج طقطقات جاذبة للنظر، أنا لبست (الصندل) الإسفنجي، والذي جلبه لي من غير أن أطلبه أنا، أو تطلبه أمي كي تتباهى بين نساء المحلة، ترفع (خشمها) كونها أول (أم) يلبس أبنها (صندل إسفنج) أبو (الطقطقات)، لم أسأله عن سبب جلبه (الصندل) الحديث، جلبه في المساء، عندما عاد من السوق، فرحت به، رفضت أن

أجربه عندما وضعه تحت قدمي، إنحنى أمامي، وضع الـ (صندل) بعدما أخرجه من كيس ورقي، انحنيت أنا، دمعتا عيناى، تحجر لساني، ضرب قلبي بعنف، رفعت الزوجين، احتضنتهما، كمن أحتضن شهادة تفوق بعد يأس وفقدان رشد، ضحك والدي، ضحكت أمي، ضحكا معاً، ضحكا كثيراً. قال أبي:

- غداً تدوس بهما أوساخ الدنيا.

قالت أمي:

- إلبسه يا ولدي، جرب مقاسه، وأرميه بباب الغرفة.

لم أفه بشيء، أنا ولد فرحان، شيء كبير يشغلني، شيء توالد في تلك اللحظة، تمنيت أن يهبط الصباح كي أمشي بهما في المحلة، في تلك الليلة وضعت (الفردتين) تحت سريري، كل لحظة أمد يدي كي أتسسهما، خشيت أن (يتوسخ) أو يسرقه (الجن). في الصباح بكرت الخروج، لم أتناول فطوري رغم إلحاح والدي، خرجت لأشهد الناس على فرحي، رحلت أتباهى به أمام صبيان المحلة، هم ينادوني، يريدون مني أن أقف وأتقدم منهم، أنا أمشي رافعاً أنفي، أرفض التوقف، أمشي وأعود، أصل إلى نهاية المحلة، أعود من جديد لأذرع طول المحلة بـ (صندلي) الجديد، أحياناً أركض، أعمل من يدي (عصا قيادة) أخرج من فمي كومة رذاذ بصاق، مقلداً صوت محرك مركبة، (طق طاق.. طق.. طاق.. طق.. طاق) عزف مريح يدفني، عزف (صندل) سيشغل ناس المحلة بأسرها، ضحكات الصبيان تتعالى، بعضهم تحول ضحكاته إلى بكاء، سالت دموعه، لم يحتمل مشاهدة ولد فقير يحتضن فرح

العالم كله، يركض، يسابق الزمن، بعضهم دخل إلى البيت ليبيكي أمام أمه، أبيه، طالباً (صندلاً) بأسرع وقت ممكن، بعدما ضاقت به الدنيا بما رحبت لأبن فقير إستولى على الفرح كله، أنا أو اصل كوميديا السرور، أركض، أركض، تنتشيني نشوة عالمية، أركض، أسير في المحلة، كلما أرى فتاة تخرج إلى الباب، صبي يخرج ليلعب، أو يجلس بباب بيتهم، (طق.. طاق.. طق.. طاق) أمشي الطقطقة وراي تدفني متباهياً كأني ملك زمانه..!!

* * *

أخذني سحر الطقطقة إلى السوق، خلت العالم سيترك مشاغلة، سينشغل بـ (صندلي) بإعجاب تام، سيصغي العالم لهذه الموسيقى الصادرة من (صندل) إسفنج، أنا أول من لبسه في المحلة، أمشي، أتعثر، قدم يضرب قدم، عيون كثيرة ليس بوسع صبي صغير تحمل ملاحظاتها الشرسة، ربما هي عيون غاضبة، ربما هي عيون شرسة، ربما هي عيون حاقدة، ربما هي عيون غيورة، مشيت، رأيت ما رأيت، عالم يتصادم، عالم يلهث يساراً، عالم يقاطعه يميناً، عالم واقف، عالم جالس، عالم يصرخ، عالم صامت، جذبتني واجهة زجاجية تبرز كتب زاهية الألوان، خجولاً، خائفاً من (أبو كامل) قد يخرج، يضريني بعصاه، تلمست طريقي باستحياء، وقفت أتهدج أحرف عناوين برّاقة، (أبو كامل) وجدته من وراء الزجاج السميك، جالساً على كرسي أسود، وراء طاولة خشبية (صاج)، جالساً ينهمك بتصليح ساعة يدوية صغيرة، شاع في

تلك الأيام (أبو كامل) له ولع، براعة تصليح، صيانة ساعات الناس العاطلة، ولعان مفيدان يمتلك (أبو كامل)، ولع الثقافة والتثقيف، وولع تصليح الساعات اليدوية، الولعان يجلبان النقود في بلدة مهمة، كونها منتصف بلدات تتشغل ناسها بالزراعة أكثر مما تتشغل بفتح محال للبيع، بلدة - مفترق طرق - منطقة حيوية تربط الشمال بالوسط، شمال حساس غاضب على طول الخط، ووسط نائم مهمل كسلان..!!

* * *

(أبو كامل) منهمك - يلبس نظرات تكبيرية - ينشغل بتفريغ أحشاء ساعة صغيرة بين يديه، وجدتها فرصة آمنة للوقوف، كتب ذات أغلفة متينة، متراسة بشكل مغري، رفوف في الداخل، رفوف فوق رفوف، مثقلة بالكتب، تتراص الكتب بترتيب منظم، وخبرة خبراء بشؤون المكتبات..!!

* * *

مكتبة (أبو كامل) .. مكتبة وحيدة، فريدة زمانها، فريدة لأنها مذ تم غلقها من قبل سلطة حديدية تحكمت بالبلاد والعباد، جاءت، بثت رجال في كل مكان، رجال السلطة ظهروا في السوق، كظهور الجراد أوان نضج المزروعات، في الأزقة، أمام الساحات، في المقاهي، لا شغل لهم، ينظرون إلى الناس، ينظرون إلى أفواههم، يراقبون حركات عيونهم، يراقبون تجمعاتهم، الناس تنظر إليهم بريية، الكبار يخشونهم، يبدون فروضات

الاحترام لهم، يحيونهم باحترام فائض عن اللزوم، يدفعون شاياتهم في المقهى، البقالون لا يأخذون منهم أثمان ما يشترون، يعطونهم الفواكه البرّاقة، يعطونهم طماطم حمراء، خيار غير ذابل، أصحاب المطاعم الشعبية، يقدمون لهم كباب ممتاز، يقدمون لهم (عوازة)، خبز حار، لبن ثخين قبل أن يخالطه بالماء الواجب التخفيف، يقدمون خدمة ممتازة بلا (فلوس) طبعاً، أصحاب الأفران يعطونهم أقراص خبز نادرة، يعملون لهم أقراص خاصة، كبيرة، ناضجة، يضعون على خبزهم (سمسم)، الناس بدأت تتهامس سرّاً:

- أنهم يكتبون ما يشاهدون..!!

لهم قدرة ساحرة على تحويل نظرات وخلجات الوجوه إلى كلمات، جعل تمطر السلطة باللعنات، الناس تتهامس فيما بينها:

- يدونون مصائر الناس لغاية ستظهر عاجلاً.

دائماً يكررون في حواراتهم الهمسية كلمة:

- ناس بلا ضمير..!!

* * *

رجال السلطة الجديدة، يلبسون (قاط) مقلّم، قاط (أبو السراوين)، يجلسون داخل المقاهي، يواصلون التحديق، متأملون من الدرجة الراقية، صامتون، كأنهم شعراء في لحظات إقتصاص القصائد الهائمة، لا يرغبون الصدقات، الناس تخشاهم، شواربهم متهدلة، عيونهم عيون نسور جائعة، عيون صقور ضارية في لحظات

قنص لا تتوقف، من ينظر إليهم، سيسر في نفسه:

- رجال مهنتهم النظر..!!

عيونهم بارزة، عيون لا ترمش، لا تخطئ، تقتنص الهمس من
بعد عشرات الأمتار، في الظلام تقبض على النظرات الاحتجاجية،
تقتنصها من منبتها، تكتبها في دواوين المصائر، الناس تمرر جمل
همسية كلما يرونهم في مهمة نظر:

- ناس لا يستحون..!!

* * *

مذ تم إغلاق مكتبة (أبو كامل) المثقف الذواق، مصلح
ساعات الناس العاطلة، صاحب الحس الأدبي الرفيع، والذائقة
المهرفة، رجل نادر يناقش كل شيء، يدلي دلوه في الأمور الدنيوية
والأخروية، في سائر العلوم، الأدبية، العلمية، يعرف أصول
العشائر، معارك التاريخ، أسباب الهزائم المتكررة، يعرف
السياسة العالمية، مثقفون يذهبون ويجلسون معه في المكتبة،
يتناقشون في ما هو ألد وأشهى الأحاسيس، أقصد الثقافة الأدبية.
(أبو كامل) صاحب الموهبتين، موهبة الكلام الثقافي
الجميل، وموهبة تصليح الساعات اليدوية والجيبيية للناس، حين
أغلقوا مكتبته، قطعوا رزق أطفاله، قطعوا بستان الثقافة في
البلدة، لم تفتح مكتبة بديلة لمكتبته، تذر أصحاب التعليم
المتوسط، المعلمون، المدرسون، تدمروا من تعطيل رغبتهم النبيلة،
رغبة قراءة الكتب الأدبية الثمينة، كتب يجلبها (أبو كامل) من

مصادر خارجية صادقة..!!

* * *

حوّل (أبو كامل) مكتبته إلى دكان (كعك وحلويات)، ظلّت البلدة بلا مكتبة، بلا صحف (الراصد، طريق الشعب)، بلا مجلات (الشبكة، الصياد، الآداب، الأقلام، الثقافة)، سرّاً المثقفون تأففوا، قرؤوا الواقع المحتل، الواقع اللا محتمل، كشفوا الحجاب عن قوادم الأيام، أيام آتية لا ريب، آتية سوداء، آتية تزحف، آتية بما ليس للعقل العادي استيعابه، وحده (أبو كامل) أسراً لزملائه يوم أغلقوا مكتبته:

- حين تندس كلاب السلطة بين الناس، ستحل لعنة كارثية على الحياة..!!

* * *

بلدة بلا مكتبة بلدة ستهيمن عليها أشرار، سيتدحرج العقل، سيهبط السلوك، سيتحرر الشر، سيعم الفساد، الفوضى، الجهل، ستغادر الطيور، ستذبل الزهور، سيفقد الماء طعمه، سيتبدل الكلام، كلام الناس البسطاء، كلامهم حريتهم، كلام فردوسهم الأرضي، سيصبح الكلام همساً، سيفقدوا التحاور بين الناس شجاراً، سيموت الأمل، ستورق أشجار الكآبة، ستولد أجيال كسالي، القمر لم يعد ينير كما أنار الأجيال المنقرضة، البلدة ستسكنها أشباح مفزعة، أشباح بهيئة بشر، تتجول في وضوح النهار، تتجول في الليل، في النهار تنظر إلى أفواه الناس،

تكتب الهمسات المنفلتة خاجر تطعن سراً خاصة الحكومة،
تكتب ما (رغبت) الألسنة التفوه به، تكتب غايات العيون
الناظرة، وفق قواعد نقدية تعبوية، تحولها إلى رسائل كلاماتية
واضحة التعبير.

في الليل تقف وراء النوافذ ذات الدرف الكرتونية، الأبواب
المثقوبة، تلتقط كلام الناس، تقف حتى أوقات متأخرة، تكتب
الضيق الحاصل بين الزوج والزوجة، تضع الضجيج في ورق
السياسة، تغربل الكلمات، تعيد ترتيب الجمل، يتم حذف بعض
الحروف وأستبدالها بحروف مزاجية، ستكتب أقلام الوشاية،
هناك من يتآمر على السلطة، تكتب الحكاية، حكاية العائلة
(الفلانية) زارت العائلة (العلانية)، رجال الأمن يدخلون فرن النفير
العام، المشانق تتهيئ لكنس نماذج بشرية لا تريد من دنياها سوى
الستر والعافية.

عيون تراقب شبكات التلفاز، الويل لمن لم يثبت عمود شبكة
تلفازة بالكونكرت المسلح، الريح لا تتوقف في البلدة والبلاد،
الريح تدور الشبكات التلفازية، تدورها كنواعير هوائية، إن
حدث توقفت شبكة باتجاه الشرق، (شرق الفتن، الشرقباء،
الأوبئة، تصدير السلع الثورية الجاهزة)، كما تفسر النظرية
الجديدة، أدبيات السلطة، يسجل صاحب البيت، يتبعه أبنائه إلى
عالم النسيان.

الأذان تتصت إلى أجهزة المذياع، رجال السلطة يعرفون من لديه
مذياع، جردوا في حملة كبيرة ما هو متواجد في كل بيت، داهموا

البيوت من باب تسجيل نفوس الأفراد، جرد الممتلكات المبتذلة، الناس خافوا منهم، دلقوا ما عندهم من مهملات وقاذورات خدمة العيش المر أمام أنظارهم الوقحة، عرفوا من لديه مذياع، وضعوا البيوت التي فيها أجهزة راديو تحت المراقبة الليلية، الويل لمن وضع مؤشر الموجات العاملة، على إذاعات دول (الاستكبار العالمي)، رجال السلطة الجديدة، مثل أشباح غازية من كوكب ناربي، عيونهم حمراء، خدودهم (متفحة)، هياكلهم عملاقة، باستثناء أنفاس أقزام، يصلحون لأعمال نادرة، يعملون في المقاهي، المطاعم، كراج نقل المسافرين، وكلاء أمن خلّص، يوالون كل نظام حتى الرمق الأخير..!!

* * *

مذ هبطت مواكب رجال السلطة الجديدة إلى الشوارع، رأت كبار الناس في البلدة، الكهول أصحاب التجارب الطويلة، والمريرة في الحياة، الوافدون الجدد سيغرقون الناس في مستنقعات الفساد، سيقومون بتدمير الأذواق البشرية المتآلفة، سيظلمون البراءة، سينسفون فطرة البشر، سيعلمون الإقامة الإيجابية على أنبل خصلة إنسانية لدى الشرقيين (حب التجمعات) ..!!

* * *

رؤى نضجت قبل الآوان، رؤى كبيرة تفاعلت، عقل طفل صغير، عقل صبي وقف أمام مكتبة (أبو كامل) ذات يوم لم يستوعب الرؤى الضاجة، عقل يريد يستوعب الكتب، ساقته

الصدفة ، ساقته طقطقات (صندل) إسفنج اشتراه والده من غير طلب رسمي أو (عركة بيتية) روتينية ، بين أمه وأبيه ، مشى كي يجذب أنظار العالم ، تدفعه رغبة داخلية ، رغبة التباهي والتمظهر ، وقف ناسياً (صندله) ، ناسياً العزف الموسيقي من وراءه ، وقف.. أنشغل بشيء كبير تحرك في عقله ، وقف يريد معرفة أسرار هذه الكتب الجميلة المتراسة ، المنسقة ، داخل معرض زجاجي ، فوق أرفف خشبية منتظمة ، واضحة الرؤية ، من وراء الزجاج السميك ، في مكتبة ، جلب صاحبها صاحب الذوق الرفيع نفائس الكتب ، من دور نشر عربية وعالمية.

عقل ولد صغير لم يبال بما يجري من تطورات حساسة من حوله ، شيء كبير ينمو ، ينضج فيه ، يسيّره ، يطيعه ، يصهره ، يطيّره على عالم مجهول ، عالم جاذب ، عالم خلّاب ، عالم واسع لا ينتهي..!!

* * *

الآن..أنا بدأت أدون مقتطفات من أيامي ، إستجابة لتلك الرغبة القديمة ، رغبة ولدت في ساحة المدرسة ، يوم (الخميس) ، يوم الاضطفاف ، صفان صفان ، في مربع ناقص ضلع ، يبقى الضلع المتبوتر لمدير المدرسة ، وراء المعلمون واقفون بـ (قواطيمهم) المكوية ، في الوسط يرفرف (العلم) بعدما قامت جوقة كشافة بمراسيم رفعه ، يرفرف العلم خفاً ، الكل يخضع لخشوع إجباري ، خشوع مقدس ، من يتحرك يجلد أمام أنظار المصطفين ، يبدأ السيد المدير

بإلقاء خطبته المكررة طيلة (خميسات) السنة الدراسية، بلبل حفظ اللحن الواجب التقديم، يتبع خطبته بسيل مواظت تعليمية، يعيد رسم ملامح مستقبل زاهر أمام من يجتهد وينال المعالي، يحقن الرؤوس الصغيرة الحائرة بإرشادات تربوية لا تنتهي، من يحب أن يلقي قصيدة بين الجموع الواقفة بخشوع وإنضباط عال، يسجل أسمه قبل يوم (الخميس) خميس الأعراس في البلدة، ربما كل العالم الشرقي أتخذ من يوم (الخميس) زماناً شاغراً، يمكن للإنسان أن ينجرف مع الراقصين، يزيل أو يواصل تغذية العالم بالمرح والفرح.

ولدت شرارة في الذات الطفولية، ولدت كالبرق في يوم غائم، عاصف، ولدت لحظة أوقف معلم درس القراءة الجديد منتصف الصفوف الحائرة، وقف بقاظه المقلم (أبو السراوين)، قرأ قصيدة: (قف للمعلم وفيه التبجيلا... كاد المعلم أن يكون رسولا)

* * *

العقل ظلّ يردد الكلمات الموسقة، يرددها، أغنية كاملة القافية، لا تشبع منها الأذان، دفعتني الرغبة أن أتجول، أن أسهر، جرّيت كتابة قصيدة مشابهة، كتبت، قرأت ما كتبت، خلت الذي كتبه يضاهاى ما قرأه المعلم في يوم (الخميس) ..
قفوا لي أمامي المستقبلا... حين أكبر سأهز الجبلا

* * *

شاهده صبي يجلس لصقي، نقل الخبر إلى المعلم الجديد، تقدم مني المعلم، أخذ الورقة، أنا خائف، أرتجف، قلت إنني إرتكبت إثمأ تربوياً عقابه ليس التوبيخ فحسب، بل ترقين القيد أقل ما يمكن إجراؤه من قبل إدارة صارمة، واضعاً في البال حلول آخر، ليس أقلها شأنأ التشهير بي يوم (الخميس) الذي سيأتي سريعاً، رمقت المعلم يقرأ ورقتي، يقرأ، يخالسنى النظر، يقرأ، يهز رأسه، فجأة طلبني لأتقدم منه، قلت هي ذي الصفة التربوية القاسية إذأ، سيطلب عصا الفلقة، سيرسل تلميذ إلى الإدارة ليجلب عصا المدير الغليظة، سيقوم بحفلة تربوية، سيجلد كفي، قلت أيضاً ربما سيخرجون التلاميذ من دروسهم لمشاهدة حفلة تعذيب معتبرة. تقدمت منه متعثراً، وقفت أرتجف، لسانى جاف، قدماي لا تحملاي، وضع كفه على كتفى الناحل، كتفى اليسار.. قال للتلاميذ:

- سيتلو عليكم (تحسين) قصيدة من تأليفه.

أنا أقرأ، خلل أصاب العالم، لأبد الثقافة العالمية تدرجت إلى الهاوية، من أنا كي أقرأ، هو معلّم نال شهادة تربوية، يعرف كيف يكتب ويسرق ويقرأ، بقيت واقفاً، عيناى لا تريان ما كتبت في الليل، يداي ترتجفان، سقطت الورقة من يدي، المعلم الجديد واقف يشجعني:

- هيا..هيا يا تحسين..شنف أسمع المستمعين..!!

التلاميذ صامتون، أنا واقف، فجأة دق الجرس، رنّ رنينه عالياً، وجدت نفسي أتحرق من محاكمة تاريخية.قال لي المعلم الجديد:

- لديك موهبة كبيرة يا (تحسين) أقرأ كتب شعرية كثيرة..!!

* * *

كل شيء تبدل، العالم صار أكثر إنفتاحاً، صرت أطارد الكلمات، أسهر في الليل، أكتب، أكتب، خلت ما أكتبه سيفير العالم، سيخرجه من مأزق الخصومات المتجددة، أشياء تنهض فيّ، تلهب حماسي، تدفع جسدي الصغير أن يتجول في متاهات الأزقة، متاملاً أن يجعل العالم كله رهن تجوالاته، تغيرات ذاتية بدأت تتفاعل فيّ، ذاكرتي بدأت تلهث بحثاً عن سر هذا الأرق الفكري الممتع، اللذيذ المتواصل..!!

* * *

(مذكرات كاتب العرائض).

قلت هو عنوان ملائم لما أرغب تدوينه، عنوان قديم، سكن العقل مذ وقفت في ذلك الزمن البعيد أمام مكتبة (أبو كامل)، يوم تهجيت أسماء لامعة، أسماء ناس كبار، بعضهم بيتسم، بعضهم غاضب، أتهجى عناوين تلك الكتب، عنوان صارخ، أول عنوان ولج العقل وسكن، (مذكرات ونستون تشرشل)، رأس بيتسم، رأس كبير بلا شعر، حرك غيرة صبي فقير صغير، قاده (صندل) جديد ذات يوم ليقف أمام مكتبة (أبو كامل)، ويعلن سرّاً معركة الشرسة مع العالم..!!

* * *

رغبت تدوين تحفة أدبية مدوية، تحفة تشغل العالم، تؤرخ
نكبات بلدة عشقتها، أحببتها منذ ولدت فيها، ترعرعت فيها،
عايشت ناسها، عرفت فقراءها، أغنياءها، كوارثها، طبيعة
ناسها، قلت أستدرج أحداثها، وقائع يومية، مشاهد، رؤى،
حكايات منقولة عبر أفواه ناسها، أفواه موثوقة أو مجرد حكايات
عابرة تتناقلها الأفواه، تماشياً للوقت، أو هي جدلية الفطرة
البشرية الصامدة..!!

* * *

بدأت الرغبة تلح، رغبة التفرغ لكتابة حلم طفولي ظلّ يؤرقني،
كتابة مذكراتي، أكتبها على شكل فني جديد، قالب روائي
يناسب ذوق المرحلة القادمة، متجاهلاً ذوق الراهن، قلت الناس
منشغلين، ذكراتهم (تعبانه)، أرواحهم مرعوبة، من يقرأ الكتب
في زمان ينحرف فيها البشر بلا سبب، وجدت الوقت ملائماً، الزمن
يغلي، الخصومات لا تنتهي بين رجال السياسة، ناس تتشرد،
منقفون يتوارون، كوارث بيئية تتلاحق، سماء لا تمطر، غبار
يزحف لخلق الحياة، كل شيء نادر وجميل يتوارى بلمح البصر..!!

* * *

هيات أقلام تفي بالعرض، بند أوراق مخططة، الأوراق البيضاء
أجدها لا تلائم ذوقي، أكره تعرج الحروف، أحب الجمل الماشية
على إيقاع ثابت، تمشي من غير تعرج أو إنحدار، قلت مهنة كتابة
العرائض ما عادت تنفعني، الناس بدأت تكتب عرائضها بنفسها،

جلوسي أمام إدارة البلدة جلوس محفوف بالموت، حوادث حدثت،
ملثمون فبخخوا أنفسهم، عملوا كوارث أودت بحياة ناس تتبضع،
ناس تجلس (على باب الله) تطلب أرزاقها، ناس مشت في لحظات
الزوابع، وجدت أنفسها تسبح في ربح ونار.
لذلك وجدت مهنتي القديمة (كتابة العرائض) لا تنفع.

* * *

أنا وحيد. شاب لم يجد من تناسبه لتكملة دينه كل فتات
تقدمت لها رفضت الإقتران بي. فتيات وجدن التغيير الحاصل في
العالم بأسره فردوسهن المفقود. تحررن من نير الماضي من ألسنة
أمهاتهن من مخالاب الغضب لأبائهن. كل شيء تغير النظرات
ترجلت من صهوة الماضي الغريق، القلوب ما عادت تبض
بالخشوع، الأيدي تهاوت من منازل القصاص.

كل فتاة رغبت وصالها أبت تناصفتني فراشي، وجدت الزواج
من بعد مدارس ذاتية مهنة شاقة، مطلباً مكلفاً بالنسبة لشاب في
ربيعه الثلاثين، شاب بلا شجرة عائلية، تحفه بتبريكات لسانية،
بتزكيات صورية، تمنحه رتبة شرف بين الناس، تمنحه إحتراماً
غير ذي جدوى بين عالم يتناحر.

أسكن منزلاً طينياً، ميراث متواضع توارثته من أب بسيط يعمل
حارس مدرسة، غير مدرستي طبعاً، مات بظروف غامضة، الأم
ماتت بعد موت الأب بخمسة أعوام، ماتت في حادث إصطدام سير،
الأب أخذوه إلى حرب السنوات الثمانية، أخذوه ضمن قطعام

الجيش الثالث، الجيش الذي صنعوه لحراسة المدن، لأن طواحين الحرب الدائرة طحنت الشباب، وأحدثت نقصاً هائلاً في جنس الذكور بدأت الحرب تطلب وقودها، الجيش الثالث، جيش الفقراء، المساكين، أصحاب العاهات الجسمانية، جيش وجدته السلطة يسد نهم الحرب من جهة، من جهة أخرى مهمة، أرادت السلطة الحفاظ على الجيش المنظم ليحرسها تحسباً للطوارئ، وقتل رغبات الضباط الكبار في لعبة الانقلابات العسكرية المتواصلة في أزمنة الحروب الكبيرة، لا سلطة في العالم الثالث تأتمن ضباط جيشها فهم العدو الأكبر لكل سلطة سياسية غير ديمقراطية، غير منتخبة.

أبي المتواضع، المقطوع من شجرة عائلية عشوائية ستنتهي بي، الثمرة الأخير أنا الغير الفاعلة، سيهدر رياح الزمن اللقاح يذره في صحاري الوجود، لا أنثى في الجوار، أب مسكين يعمل حارساً في مدرسة غير مدرستي، ليس له سوى ولد واحد، زوجة توقفت في أحشاءها أميبيا الولادات، أخذوا الأب طعماً لآلة الحرب، أتوا به (مقتولاً) ..!!

قالوا لأمي:

- قتل سهواً.

أجابت أمي مستفهمة:

- ومن هو هذا السهو الذي قتله.

قالوا لها:

- زوجك قتل بنيران صديقة.

- وهل يوجد عندنا صديقات يشعلن نار الحروب غير نار الفراش.
افهموها القصة، زملاء أبي أسروا الخبير اليقين بعد تفريغ
حرائق روحها.. قالوا لها:

- خرج في الليل يفرغ أمعاءه، بعدما تلوى من ألم معوي، أصفر
لونه، تناول لحم دجاج بائت، تسبب الدجاج في إسهال جماعي،
زوجك أخذ إبريق الماء، سار مسافة، فجأة دوى طلق ناري، هرع
إليه أفراد الجيش الثالث، جيش (أصحاب المهن الحرة)، وجدوه
ممدداً، طلقة ثقت رأسه..!!

حنت أمي تراب الزقاق على رأسها، دخلت مياه المجاري، وقفت
أبكي، لا أعرف لماذا أبكي، أنظر إلى أمي تبكي، أشاركها
البكاء.

صاحب الطلقة القاتلة..قالوا لنا:

- (فلان الفلاني).

ليس كما جاء في مذكرة قائد الجيش الثالث:

- (رصده قنّاص معادي أراده قتيلاً).

صاحب الطلقة التي أنهت علاقتي بأبي، (فلان الفلاني) رجل
يسكن وراء زقاقنا، رجل لم يرتح له أبي المقتول، رجل ماكر،
عرفت فيما بعد سبب قتل أبي في جبهة الحرب، أمي قبل أن تموت
موتها المروع.. قالت لي الحكاية:

- أنا أعرف فلان قاتل أبيك عمداً، لا أحد يستطيع أن يقول ذلك
علناً.

رغبت ألاحق صلب الحكاية.. قلت لها:

. لم لا يستطيع أحداً القول هو قتله.

قالت أمي:

. له منصب سياسي كبير في الحكومة، الناس تخافه.

قلت:

. لم قتله.

قالت أمي:

. أقولها صراحة لك، طلبني من أهلي زوجة ثانية له، رفضت طلبه، وافقت على زواجي من أبيك المتواضع، لذلك أنتهز فرصة وأنتقم منه..!!

* * *

سراً لعنته، سراً تمنيته أن يقتل مثلما قتل أبي، تحقق رجائي، ربما براءة أبي ظلت تلاحقه، وظلّ دمه يطارد قاتله، لم يمهله كثيراً، رصده في مكان ملائم، ضاع قاتل أبي، ضاع في هجوم كبير، لم يجدوا له أيما أثر، مات بلا قبر يزوره ذويه، ليقرؤوا عليه (الفاتحة) أيام الخميس والمناسبات الدينية، حكمة الخالق، يمهل ولا يهمل، يقتص برحمته من المارقين، يرد الدين ثميناً للصابرين والمظلومين والصادقين.

أمي ماتت بعد موت أبي بخمس سنوات تقريباً، ذهبت لإستلام راتب أبي (الشهيد)، دائماً حين يأتي موعد إستلام الراتب كنت أرافقها، فقط في يوم موتها لم أكن برفقتها، وجدنتي عليلاً، رفضت أن أرافقها، هي أحاسيس بشرية صادقة، تلك التي تغير

مجريات الأمور، رفضت مرافقتها، لابد أن دافعاً فوق إرادتها أجبرها تمتع من مرافقتي لها، حاولت كثيراً، بكيت، نهرتني جارة ذهبت أيضاً لتستلم راتب زوجها (الشهيد) كما دونوا في هويات الرواتب، في مركبة غاصة بالمسافرين، جلست أمي، فرحة بما إستلمت من راتب، ربما شغلت نفسها بي، فكرت تشتري لي ملابس جديدة، سائق المركبة تعجل الأمور، أراد اجتياز خط سلك الحديدية، قبل إيقاف المركبة لوقت طويل، الشارع يتقاطع مع سلك الحديدية، تزامن وقت مرور القاطرة مع وصول المركبة الغاصة بزوجات الشهداء، الأسرى، ذوو المفقودين، سائق المركبة تعجل الأمور، رغب يجتاز القاطرة من غير تقدير المسافة، ضرب مقدمة القطار المركبة، (دعبلها) إلى مسافة طويلة، عجن ما فيها من مسافرين ومسافرات.

* * *

رغبة البحث عن زوجة، ظلّت تتعثر، الزملاء يفاتحوني، يريدوني تكلمة ديني، العيش وحيداً في أزمنة الفوضى ممل، لا شيء يقتل هم سوى الأنثى، حكمة الفقراء المساكين، الأغنياء يتخذون النساء حساء، يريدون أنواعاً من الحساء، كل ليلة حساء لا يشبه حساء الليلة المنصرمة، الأغنياء عندهم النساء وسيلة لهو وقتل المال، الفقراء هم سادة العالم، هم يعطون الحياة الدوافع المحركة، هم بناء الحضارات، هم صنّاع السعادة البشرية، هم أولياء الله الصالحين.

الليل..ليل الفقير طويل، المرأة تجعل ليالي الفقراء ممرات
سالكة إلى فراديس لا تنتهي، بعض زملائي حاول سحل مهرة
لتحتي، لم يجدوا من ترضى بـ (كاتب عرائض) يجلس صباحاً،
حتى الساعة الثالثة من بعد الظهر، كل يوم إلا أيام الجمعة
والعطل الرسمية، يجلس أمام مبنى البلدة، يجلس على كرسي
بسيط، أمامه طاولة متقلبة، يجلس في إنتظار زبون له مشكلة
عائلية، مشكلة تتعلق بالملكية، مشكلة فرز البطاقات
التموينية، مشاكل خصومات الجيران، الطلاقات المتواصلة،
متطلبات الزواج الروتينية، شراء البيوت، بناء البيوت.
كاتب عرائض يعود في الأصيل مرهقاً، طاولته المتقلبة على
رأسه، يحمل كرسيه بيمينه، حقيبته الجلدية بشماله.
كاتب عرائض ليس له أم، أب، ليس له أخ، أخت، لا خال، لا
عم، لا خالة، لا عمّة، لا جد، لا جدّة، شاب يعتقد بساطة العيش
هي مفتاح السعادة في أزمنة الفوضى، هذه النظرية تخالف المفاهيم
السائدة لدى بنات جيله، الباحثات عن التمظهر والتبختر، أكثر
مما يفكرن بمعنى الجوهرى للزواج وفضائله الدنوية والآخروية،
ينشغلن بالتححرر والانغماس في اللهو، في العبث، أكثر مما يشغلن
أنفسهن ببناء أسرة محكمة الروابط لمجابهة زمانها.
شاب ينشد الخلوة، أكثر مما يرافق زملاء الواقفين في
فسحات صغيرة، تعيق حركة الناس داخل السوق، الجالسون في
المقاهي، الرافعون قهقهاتهم لتزعج الناس.
شاب يحب قراءة الكتب، أكثر مما يحب العلاقات الغامضة،

الهشة، النفعية، الزمن في المنظور العام يفرز أمراضه على كل شيء، الأزمنة المريضة، أجيالها دائخون، الأزمنة المتعافية، أجيالها لا معون، تلك هي الموازين الكونية لتراجيديا الوجود البشري.

شاب متوحد، له مشاغله الخاصة، يسكن في بيت طين بائس، بيت توارثه من أب قتلوه، أم ماتت بحادث سير، تخرج من (كلية الزراعة)، طرق أبواب الدوائر الزراعية بحثاً عن فرصة تعيين. قالوا له: - الفلاحون تركوا أراضيهم، لا أحد يزرع كي يشرف (حضرة جنابك) على زراعته..!!



داهمتني الرغبة، رغبة التفرغ لكتابة (مذكرات كاتب العرائض)، حوادث جمّة تحاصرني، قلق العقل القديم، عقل الطفولة القلقة، مراحل حياة حافلة بالمتغيرات السياسية والإجتماعية، عالم شعبي، عالم حافل بالتبدلات الإيدولوجية، تيار يزحف، يكتسح الزمن، يكنس السدود، يجرف الوجود كلّه، يؤسس سدود جديدة، سدود لا تستمر، تيارات مناوئة تتأهب للزحف، تلك هي أمراض العالم الثالث، العالم الذي يحتل نفسه بنفسه، العالم تبدل شكله الكوني، خرج من قوالبه الثورية، ترك عكاز التجديد، بات يمشي بلا معتقدات فكرية، بلا أهداف، بلا رؤى واضحة، عالمنا تغيرت متطلباته، تبدلت أفكاره، قوالب أمس ما عادت تلائم أفكار اليوم، لا أحد يعرف لم هو يعيش، انتهى زمن التخطيط والتسيق، التخطيط

الذاتي للوصول إلى الأهداف والغايات، التنسيق الإقليمي لمعالجة
المشكلات الراهنة، والتهيؤ للتحديات المستقبلية المحتملة..!!

* * *

لا أحد يريد الحلم الطفولي، الناس نست أنفسها، كل شيء
تبدل، عالم يلهث لا يعرف لما هو يلهث، عالم يتقاتل من أجل
إشباع الغريزة الغابية.

الناس تمشي، تقف، تتحرك الأيدي، تتحرك الشفاه، الكل
يمشي يسأل نفسه لما يمش، لم خرج من البيت، من جديد يمشي
في محاولة تذكر سبب خروجه..!!
- ناس سكرانة.

جملة سمعتها من شيخ كبير سقط جراء إصطدام رجل لاهث
به..!!

* * *

تحاصرني أصوات تضح في الذاكرة، تدفع الجسد ليطارد
النجوم، ليته في (صفنات) لا تنتهي، قلق قديم يواصل ضرب
الذاكرة، يضره بعنف، العقل يذهب بعيداً في (صفناته) يجد
نفسه تائهاً في أثير ضاج، يبحث عن سيماء العالم المخبول، يطارد
الزمن المتذبذب، يفككه، يطارد الومضات المختبئة، تتشكل
دائرة معارف كبرى، بالونات أحداث تكبر..تكبر، تريد أن
تتفلق..!!

* * *

رغبة الذات الجريحة/ كوميديا الزمن المتسارع/ الفراغ المهول/
حرب الجسد ضد التقوقع/ الكسل/ حرب الذاكرة لتأويل عالم
مخبول محتل..!!

* * *

تهيأت لكتابة (مذكرات كاتب العرائض)، شعرت بديب
الخوف يسري في عروقي، فكرت ماذا أكتب، كيف أبدأ،
الأزمة في البلدة تلاحقت، تداخلت، أشياء مهولة حدثت في السابق
ماعدت تشكل وجوداً لا معاً أمام الذي يحصل، الخطف العلني
بغية الإبتزاز، الموت المدمر، بلدة محتلة، بلاد محتلة، عالم محتل،
القلم يمشي، يتعثر في مشيته، يسكب بضع قطرات حبر، تُشكل
كلمات وجمل، لا حرارة فيها، يدي تقذف القلم، أناملي تعجن
الورقة، تمزقها، تسكنها سلة القمامة، من جديد يبدأ العقل،
يسبح في توهان بلا حدود، البدايات باهظة الثمن، تلك هي فلسفة
الكتابة عبر العصور، البدايات مفتح الأعمال الخالدة، البدايات
مسالك وعرة، يمكنها تدمير الحلم، تحطيم الغاية، يمكنها
تعبيد مسالك سهلة لقولية أحزان العالم في بوتقة صغيرة، بوتقة تنير
أجيال تلو أجيال، تخبرهم أوضاع التاريخ الشامل، لحركة البشر
عبر محطات خالدة ونافعة..!!

* * *

أيام مضت، وجدت رغبة العقل القديم هامة، العقل الذي وقف
أمام مكتبة (أبو كامل) في زمن قديم، رغب وضع اسمه بين تلك

الأسماء الخالدة، رغب صناعة (كتاب) ذا تأثير واضح بين الكتب، في المعرض الزجاجي، على أرفف الكتب داخل المكتبة. كتاب مذكرات، مذكرات بلدة (جلبلاء)، قبلما تتحول إلى (مذكرات كاتب العرائض).

قرأت بعض الكتب المتيسرة لدي، كتب لكتّاب محليين، كتب مستسخة، رديئة الطباعة، كثيرة الأخطاء الإملائية، لا كتب تصل، المراقبة الشديدة على الكتب في المعابر الحدودية، في المطابع الأهلية، الخبراء يرفضون كل كتاب يجدوه يناهز الواقع، كل كتاب يقول الصدق، ماتت الثقافة، همد وهج العقل، تخثر بزاد بغيض، ثقافة (آيدولوجية) رديئة.. قالوا:
- الكتب تخرب عقول الناس، تبعده عن صفاته الوطنية.

كلام المسئولين، يكرروه في التجمعات الشعبية الأسبوعية..!!

* * *

تبدل الزمن، تغيرت الأمور، عالم إنسحق، عالم جديد زحف، خرجت الناس إلى العالم الجديد، تحررت الألسن، راحت تطلق حممها المصادرة:

- إنفتحنا على العالم، سنستعيد عقولنا.

لهجت ألسنة الطبقات المتتورة، طبقات المثقفين.

تغير كل شيء، تغير المزاج، تغير الحب، تغير القلب، تغير

الفكر، تغير لون الرغبة، مذاق الطعام، طعم الماء.

وما زالت البلدة، بلدتنا (جلبلاء) بلا مكتبة..!!

* * *

ذات صبيحة وجدت نفسي مكرهاً على العودة لوظيفتي السابقة، كتابة العرائض، عرائض تختلف هذه المرة عن تلك العرائض التي مارست كتابتها لسنوات طويلة، وجدت الناس تندفع إلى باب بيتي، رجال كبار السن، عجائز، يطلبون تدوين ما يحكون لي، بعدما طاش خبر توزيع تعويضات مادية مغرية من لدن (سلطة الإخلاف) كما يحلو للناس وصفهم، تشمل من مسّه الضرر في سنوات الألم الجماعي، تلقفت القرار، قرار واضح وصريح، صادر من حكومة تجلس داخل سور حصين في عاصمتنا السليبية (بغداد).

تعويض تشمل المتضررين والمهجرين والمفصولين من وظائفهم، السياسيين، مكرهاً وجدت نفسي أكتب قصص حياتهم، وجدتھا ممارسة ميدانية للوقوف على آلام الناس، ممارسة حيوية لاستعادة تلك الرغبة الطفولية، رغبة الكتابة، في بيتي هذه المرة. هيأت غرفة لاستقبالهم، تقاطر الناس، وجدت الضوضاء تستفحل خارج البيت، حاولت احتواء الموقف، قررت العمل بنظام اجتماعي جديد، غريب على ناسنا، نظام ديمقراطي على حد زعم أحدهم، تسائراً مع الوضع المفتوح حسب مزاج كل فرد، عملت قائمة بتنظيم أسماءهم بالتسلسل العادل، علمتهم نظام الوقوف (سرة).

كتبت سبع عرائض لناس أخذوها معهم، كتبت ست عرائض لناس ليس لديهم القدرة على مراجعة الدوائر المختصة، كونهم كبار السن، لا طاقة لهم على المراجعات الروتينية، لا مال

يملكون ليدهنوا به سير معاملاتهم، لاصحة متعافية يمتلكون
للقوف أمام أبواب الدوائر المغلقة لأشهر، قلت لهم:
- سأكملها لكم، أرفعها أنا بالنيابة عنكم.
شكروني ومضوا..!!

بدأت الفوضى تعم في الباب، وجدت ناس صنعت من نفسها
مراقبين، يسجلون أسماء طالبي العرائض، مقابل رشوة بسيطة،
صياح يعلو، هرج دفع الجيران اللجوء إلى دوائر الشرطة، جاءت
مفرزة طوارئ لترتيب النظام، شعرت بغثيان وخوف، قلت مع نفسي
أنا تخلصت من مكان دائم الحوادث، وجدت الحوادث تأتي إلى
بيتي، لمت نفسي، قلت أنا السبب، فكرت العودة إلى مكاني
القديم أمام مبنى إدارة البلدة، دفعاً للشرور والمصائب المتوقعة،
وجدت مكاني السابق مسوراً بخرسانات كونكريتية وأسلاك
شائكة، جراً سلسلة حوادث كارثية حصدت نفوس أبرياء..!!

* * *

رجل طويل باغتني، رجل عملاق، سمعت عنه حكايات
متناثرة، قيل لي:
- حمال البلدة، له جد شهير.

لم أره من قبل، دخل حانياً رأسه، سلّم بأدب، طلب مني أن
أصغي، أكد لي أنه غير راغب بالتعويض، جاء من أجل حكاية
كبيرة وطويلة، ذكر لمرات إنها أسطورة حقيقية، هي حكايته،
جاء كي أكتبها له في كتاب، وأقوم بنشرها على العالم حسب

مزاجي أنا والتوقيت الذي أرغب..قلت له:

- تفضل بالجلوس.

رفض.. قال:

- أكره الجلوس، صاحب الحكاية الكبيرة لا يليق به الجلوس.

قلت له:

- لا يجب أن تطيل في حكايتك، أختصرها، أوجزها، خير

الكلام ما قل ودل.

قال:

- خير الحكايات ما حفلت بالصدق حتى لو طالت.

قلت:

- الناس تتقاتل في الخارج، من أجل الحصول على فرصة سانحة

لكتابه حكاياتهم.

قال:

- حكايتي ليست حكاية تعويض، جئت من أجل حكايتي

فقط.

رفض يجلس، أنتبه لآلة التسجيل قربي.. قال:

- إستمع بهذا الجهاز، وحده يحافظ على ما أحكي، حكايتي

لا أريد ضياع كلمة منها، إنها أسطورة، هي أسطورتني يا ولد يا

كاتب..!!

قلت له:

- لا داعي للجهاز، أصغي لك، أنت أحكي، سأوجز حكايتك،

سأجعلها مفيدة أكثر مما هي مملة..!!

قال:

- إيجاز العبارة سيخل بفصولها، سيدمر إيقاعها، سينسف أحداثها.

قلت له:

- لا تحيرني يا رجل، الناس بدأت تتعارك في الخارج.

قال:

- إنسان العالم المحتل لا شغل له، يهتم بأموره الشخصية أكثر مما يهتم بمجريات الأمور في بلاده، جئت أهتم ببلادي، أهتم ببلدتي.

قلت له:

- تكلم..ماذا تريد أن أكتب لك.

قال:

- شغل آلة التسجيل، وحده الصادق فيما يقول، سيقول ما أقوله بكامل التفاصيل، القلم يكذب دائماً مهنة القلم نبيلة، لكن قلم اليوم منحرف عما كان.

قلت له:

- ليس لدي أشرطة فارغة.

أخرج من جيبه مذياع صغير، وضعه أمامي..قال:

- إستعن بأشْرطتك القديمة، ليس لدي سوى هذا المذياع الصغير هدية لك، جهاز ثمين، أعتز به، سأهبه لك مقابل نقل أمانتي للعالم..!!

قلت له:

- مادام المذيع عزيزاً لديك لن أخذه، أنا لا أتعب، الجهاز هو الذي سيتعب.

قال:

- خذ المذيع، لست بحاجة إليه، أنا ذاهب في مهمة عسيرة، مهمة بلا عودة مهمة تاريخ، مهمة العالم الجديد.

استغربت من كلامه، من إصراره، من سلاسة كلامه، رجل بهيكل كبير، يبدو أنه من عصر العمالقة، جاء مع التغيير الذي عصف بالبلاد والعباد، سمعت عنه في مناسبات متفاوتة، قيل حمّال مؤدب، سمعت أيضاً تزوج غجرية صغيرة، هربت من أهلها، رغم الفوضى أمام بيتي، وجدته يستحق التقدير، والانتباه الكامل لحكايته..!!

قلت له:

- أنت مصر على عدم الإيجاز.

قال:

- أنا جئت لتكتب أسطورتني، لم أجيء بحثاً عن وسخ الدنيا، أترك الناس في الخارج، أنا أدري بهم، عشت بينهم، لا أحد إكتوى بقدر ما إكتويت، نصف العالم الثالث يكذب، نصفه يأكل بالكذب، دهمهم، أنهم يلفقون الحكايات، هدفهم المال، أنا لا أبحث عن المال أيها الولد الكاتب.

قلت له:

- مادام حكايتك طويلة، لم لا نوزعها على عدة جلسات.

قال:

- أنت تريد تأخير العالم خطوة مهمة، قلت أنا في مهمة أسطورية، حكايتي لا مجال لتأخيرها، لم أقتحم عليك البيت، جئت حسب تسلسلي في الدخول، جاء (سراي) ودخلت..!!

قلت له:

- حسناً، غداً يبدأ حظر التجوال، الناس ستلازم مساكنها، غداً بإمكانني أن أصغي لك.

قال:

- أنت تريد أن تؤخر مهمتي الإستثنائية، أقول لك، أنا في رحلة تاريخية، ليس بوسعي إرجاء حكايتي، بعد ثلاثة أيام موعد احتفالي الكوني..!!

وضعت شريطاً في آلة التسجيل، وجدته يقترب، طلب مني أقف، استجبت لندائه، وقفت، أمرني أن أجلس على الكرسي الخشبي القديم، دنا مني، أوماً برأسه، شغلت له آلة التسجيل، جلس أمامي على الأرض، بدأ يقص حكايته..!!
فاتحاً فاه، مرتجفاً، ناسياً العالم، وما يجري في خارج غرفتي، مبجلقاً.. تائهاً.. رحتم أصغي لكلامه..!!

* * *

معضلة العنوان

قد تستغرق كتابة رواية دهوراً، ربما دهوراً، تتوقف عملية إنجازها على كمية المعلومات التي بحوزة الكاتب، قوة موهبته، مضافاً برنامج عمله الكتابي، قد تتدخل ظروف عابرة تعاكس مزاج الكاتب، قد تستهويه فكرة طارئة، تهبط أثناء عمله على رواية ما، تغريه، تغويه، ليتوقف في محطة ما من روايته، ليجر إلى متاهات الفكرة الجديدة، قد تأتي فكرة أخرى وأخرى، وأخرى. يبقى العمل الروائي الأول نائماً في إنتظار شعلة تذكي ذاكرة الكاتب، كي يعود متحمساً لتكملة مشواره الذي بدأه. روايات كتبها كاتبها في أيام، أسابيع، هناك روايات كتبت بثلاثين عاماً، كل شيء وارد في عالم الكتابة، هذا العالم المجنون الشائك، الممتع، الغريب، المغربي، هذا العالم المكافح، رغم تهديدات تنهال على المتورطين به، اعتقالات لا تنتهي، قتل، تشريد، تهميش، كل ألوان العقوبات الممكنة طالت الكتاب في كل العصور، رغم ما جرى ويجري للكتاب، لكن الكتابة ظلت تتواصل في تحدياتها، مثل مطارق غاضبة تهوي على رؤوس كارهيها ومحاربيها، هذا الشد، التآرجح المتواصل، سر ديمومة

مهنة (مكافحي) الظلام بمبيدات إبداعية، مؤرقة، فاضحة لكل متجبر عنيد لا يتعامل بالمكاشفة والصراحة، رغم أنه كائن تم تكريمه على الملائكة، ويمشي على قدمين..!!

* * *

لم تستغرق كتابة هذه الرواية سوى عشرين يوماً، عشرون ليلة تحديداً، كل ليلة ست ساعات عمل متواصل، لجهاز (اللابتوب) الفضل الكبير على مواصلة الكتابة، فهو يخزن طاقة كهربائية كافية على العمل بعد الإنقطاعات المتكررة للتيار الكهربائي اللا.. مبرمج.

العنوان وحده أخذ مني أشهر، ليس في كلامي مبالغة، فلتة قلمية مقصودة، لمداعبة، أو دغدغة ذاكرة القارئ، أثناء الكتابة أجد عناوين لائقة، سرعان ما أعود لتبديلها، يستغرق التبديل، أيام، أسابيع، أشهر، وجدت عناوين مقنعة من صلب (حكاية)، لنقل (أسطورة) رجل صار حكاية بلدي (جلبلاء)، أستحق بجدارة أن تقوم الإدارة الجديدة للبلدة، بصنع تمثال برونزي يترع منصة فولاذية، يتصدر التقاطع الرئيس لرأس السوق، قبل أن يفاجئ الناس في ليلة ظلماء، دوي هائل، نسف التمثال إلى رمال محترقة. أستقر العنوان الأخير (بعل الفجرية)، حالة عجز مني، لا أقول بلائقيته، قد يجد القارئ عنواناً أكثر تأثيراً، أنسب جاذبية، أشد ملائمة لروح النص، فهو مخير للعنوان الذي يقترح، ربما لمن يريد تبديله أود القول، هذه العناوين التي أقترحتها طيلة أشهر:

(زكام الديك) .. (في بلاد المنيفيست) .. (أفراح العالم المحتل)
.. (مذكرات كاتب العرائض) .. (بعل الفجرية) ..
(سيمياء العالم المخبول) .. (حمال جيلباء) .. (عشاء مع.....)
}}..

* * *

[..فصل الفصول..]

[كل فتقبيبير..رواية..!]

[..فصل الحكى..]

[..ما رواه نوار..]

القسم الأول



حكايتي ليست حكاية محض، وهمٌ من كوابيس خنقت
عصرنا المتلبس بالبلاهة والبلادة، عصر (الدوخة) كما يحلو لي
وصفه، بالمناسبة أنا حمّال مثقف، أتهدج ما أجده على الأرض،
مزق صحف ملقاة، أحب القراءة، أمتلك جهاز مذياع صغير بحجم
الكف، أضعه في جيبي، أضع السمّاعة في أذني، لا أحب
الأغاني، أحب الاستماع إلى أخبار العالم، ميزة نادرة تجدها عند
الطبقات المسحوقة، زملائي يضحكون كلما يجدونني أنحت
عيني في ورقة، كتاب مهمل، يطلقون علي أسم (الفيلفوس) أريدك
أن تكتبها كما يقولون عني (فيلفوس) لا تكتبها كما هو
(فيلسوف)، كلمتهم تليق بي، هم وضعوا النقاط على الحروف،
قالوا ما هو لائق وجميل، مهما يحصل سأواصل كلامي - لن أتعب
بطبيعة الحال - أيها المحب للحكايات الخارقة، أكتب ما أحكيه
لك، لي دليلي على ما حصل، لا تستغرب من مروياتي، أكتبها،
ألقها في سلة الزمن، سيأتي من يفك ألفاظها، من يقلب ظهر المجن
ويخرج حبات اللؤلؤ وينثرها لمن حوله، لا تموت الحكايات، ضع
هذا في بالك، الحكاية مثل الـ (فينيق) تنام ربما سنوات، ربما

أجياًلاً، تمام، ذات يوم، يوم لابد أنه سيأتي، هناك من سيسلط الضوء عليها، يخرجها، يمسطها من دعاسيب الإهمال، يلقيها على طاولة الوقت فاكهة للوقت، لافرق بين الفاكهة والحكاية، كلتاها تمنحان المرء سعادة خالدة.

الأساطير لا تموت، الطفاة يكرهون الأساطير، الطفاة صعاليك يرغبون أن تغدو شعوبهم بليدة، كي يغدوا برؤوسهم حكماء، أنا فقط جئتك أن تعطني فرصة تكفي أحشاء حكايتي، تلمم أشلاءها المبعثرة، تجمعها في قالب لا يشبه قوالب المحكيات الروتينية، لي أدلة متوافرة بين الناس، يمكنك اللجوء إليهم إن تطلب الأمر، لابد من التقصي، لابد من بذل جهد استثنائي لكتابة الواقع غير الممزوج بخيال، أريدها واقعية، أريدها مدرسة خاصة، سمها مثلاً، الواقعية المبعثرة، الواقعية المبعثرة تليق بحكايات المرحلة، أنها لا تبعث الإملال عند قارئها، يمكنه قراءة الحكاية من أين يرغب، من المنتصف، من النهاية، يقرأ أشلاء يختارها، يقوم ذهنياً بلملمة شظايا القص المبعثر، كل حسب مزاجه، أدلة حكايتي موجودة بين الناس، كثيرون يعرفونني، يعرفون أبن من أنا، ما هي أسطورة جدي العاشر، أيها الولد الكاتب، تهياً وأجعل من نفسك آذاناً صاغية، آه..دع المسجل يسجل..!!

في شارع الأشباح

من شهد بأمر عينيه المشهد، مشهدي أنا، رهط كبير، ليس بينهم عابر سبيل، أو مستطرق قذفته الصدفة يمشي في مكان يجهله، قبلما يشرف - غير مبالياً - على مهرجان عسكري كبير. مهرجانات تتواصل في كل شارع، عسكر بملابس غريبة يتجولون، شاهرون أسلحتهم، أعينهم تفسر الحركات سلباً، في طريق مخيفة، لا يسلكها بشري يعرف حكاية ذلك الطريق، فقط هم أغراب بينهم (ملثم)، شاب يجيد لغتنا، ولغة الأعراب، ينقل لهم كلامنا، ينقل لنا كلامهم، وقفوا، تجمدت أوصالهم، رأوا ما رأوا، أتمدد أنا على حافة (شارع الأشباح)، شارع متهالك، عمره يرجع لعمر جدي الذي مات قبل سبعين عاماً، سمّوه رجالنا الأقدمين، (شارع الأشباح) أسم قديم، تنفيه الناس، ليس كل الناس طبعاً، فقط الناس الجدد، مواليد عصر الفشل، عصر العجزة، لنقل مواليد الحروب، سمّوه (شارع الأشباح)، قيل: أشباح تظهر لمن يسلكه، في الليل تظهر، في النهار تظهر، يختفي المسافر، تنتشر الحكايات، يخاف الناس، لا أحد يسلكه إلاً غريب ظلّ دربه، عابر مدن، بلدات، هارب من عيون الوشاة،

شباب يجيئون، يختفون، شباب لا يجدون الراحة في ظل نظام غير مريح، يغادرون عبر بلدتنا (جليلاء) يمشون عبر (شارع الأشباح)، لا أحد يعلم هل يصلون إلى شمال البلاد، أم تتلفهم مخالب الأشباح، ناس يأتون، يمشون، يصلون، يختفون، حكايات جديدة تولد، من جيل لجيل، يظل اسمه مربعاً (شارع الأشباح).

الزميل (حمار) واقفاً ينهق نهيقاً لم ينهقه طيلة سنوات الخمس عشرة، (حمار) سأحكي عنه كل ما ترغبه، اتفقنا أن نحكي بواقعية مبعثرة لا تتسى ذلك.

منطرحون بين اليقظة والنوم، أنا و(عشتار) ابنتي الوحيدة، قرب (بئر الشياطين)، هكذا يسمونها منذ أزمان طوال، بئر شهير، كما تذهب حكاية شائعة، تافلتها ألسن الناس بلا سأم، تقول الحكاية: امرأة هربت من بيت زوجها ذات صباح، أو ذات فجر، الحكاية لا توضح ساعة حدوث الواقعة، هناك من يذهب أن الحدث قد حدث في ثلث الليل الأخير، امرأة مليحة أسمها (صبيحة) هربت من عنفوان زوجها وفحولته البربرية، ليلة زواجها منه، لم ترتح، لم يدعها تلتقط أنفاسها، زوج يقولون لم يمهل (صبيحة) وقتاً للراحة، ليلة الدخول عليها وفق السنّة والأصول، صغيرة هي، هو كبير، قتل نساء ثلاث، لم يعرف أحد لم وكيف قتلهن، رجل ضخم يملك مالاً كثيراً، يتاجر بالمنتجات، أي فتاة يرغبها يغري أبيها بحفنة مال، صارت (صبيحة) أنثاء الرابعة، ركبها ركوب الديك لدجاجاته، قيل ثلاثة عشر مرة ركبها مذ دخل عليها في أول الليل، حتى دخول الليل في ثلثة الأخير، الرقم منقول من زميل الفحل قاتل النساء الثلاث.

هربت (صبيحة) باتجاه بيت أبيها، أقنعتة، أوهمتة أنها تفرغ
مثانتها من إدرار وأقذار نويات ركويه، رغب أن يطرحها، قبلما
تجبره ينتظر برهة وقت، نام على ظهره، سلاحه في وضعية رمي،
سلاحه النادر، خرجت وقفلت باب الغرفة من الخارج، لم ينتبه
لفعلتها، لم يسأل نفسه لم قفلت (صبيحة) باب الغرفة من الخارج
عليه، (صبيحة) لبست عباءتها، مشت في (شارع الأشباح)، ظلت
المسكينة دريها، وصلت حافة البئر.

البئر في زمن ما اتخذتها القوافل السيّارة محطة راحة، قوافل
بشرية لا تتقطع، تتقل الممنوعات إلى شمال البلاد.

(صبيحة) قبل أن يقبل عليها الفجر، شعرت إنها ارتكبت أثماً لا
يفتقر، ماذا تقول لهم، كيف تواجه أبيها، أمها، أبوها استلم أموال
كثيرة عليها، أبوها رجل صارم، سكير، سيضربها، سيرجمها،
جلست تبكي، توسلت إلى رب السماوات السبع أن يجنبها الهلاك،
أعلنت ندمها، ستعلن توبتها، ستقبل يديه، باطن قدميه، ستنام على
ظهرها، سترفع ساقها، ليفعل ما يحلو له من فعل، سنة الحياة
المتعبة، هذه قسمتها عليها أن لا تتكر ما أنعم الله لها من رزق لم
تحض به نساء كثيرات، وسمت نفسها بالحمقاء، ابتغت العودة من
حيث أتت، ستترك أمرها للزمن، ستعود عليه، سيأتي يوماً هي تريد
منه كي يفعل أكثر مما فعل سابقاً.

من بعيد لمحت نقاط ضوئية تتحرك باتجاهها، غزا جسدها
تمل أفقدها وعيها.

(صبيحة) وجدوها تهذي منفرجة العينين عند ثغر البئر، نقلوها

إلى بيتها، لم تتفجع معها عصا سيد شاع أنه يخرج الأبالسة من أجساد النساء، سيد محترم بين الناس، مهاب الجانب، تنحني الرؤوس أمامه، تتحرك الألسن طلباً لبركاته، يعري من هي مسكونة بالشياطين، من تعاني من وجع طلق طويل، يدخلهن إلى غرفته ليلاً، بعد صلاة العشاء، يلقي ما عليهن من ملابس، علاج قد يستمر لأيام، يرسم على الظهر العارية، تحت جناح الظلام، بعصاه خرائط، أوشام، لملاحقة الأبالسة، الشياطين، (صبيحة) لم تتفجعها ضربات العصي، وضعت بعد سبعة أشهر، مولوداً قيل هو شبيه حيوان غريب، يموء مواء القطط، يكشر عن أسنان طويلة، معقوفة ككلب جائع، سرقوا (الإنسا..حيوان) منها، حرقوه في حشد بشري كبير، نساء تآمرن عليها، (كلام متفق عليه)، انتزعوا المسخ من بين أحضانها، ولولت، عاطت، قيل كلاب القرية نبحت تضامناً، الحمير ظلّت تهق، اختلط الحابل بالنابل، (صبيحة) رأّت أبنها ينادي، يصرخ من داخل النار، نساء أسررن أن الكارثة ستحل بهن، سيلدن كلهن أماسخ، عليهن القيام بإجراء فوري يحافظ على كرامتهن الأنثوية، دفعن رهط أطفال يفعلوا فعلتهم النكراء.

* * *

(صبيحة) ظلّت تمشي عارية في الأزقة، يرمونها بالحجر، يرمونها بالقاذورات، يقولون: أرهط أشباح غزت القرية بعد ثلاث ليالي من حرق ابنها، أنت منتصف الليل، ألقوا وشاحاً أبيض اللون عليها، أخذوها..!! هناك من يؤكد، بعدما تم تغليف جسدها بلباس أبيض،

حملوها على حصان أبيض مثل الثلج، حملوها، أخذوها إلى البئر،
كل ليلة ينطلق صوت شجي متلفع باللوعة، بالحنين من ضوء كهيئة
امرأة تجلس على ثغر البئر، تختفي عند الفجر، حكاية قديمة، لما
تزل تهيمن على عقول ناس أهالي بلدتنا (جلبلاء).
أكتبها يا كاتب، كما أحكيها لك، إن لم تكتبها كما
أحكيها لك، اعلم أنك خنت.

* * *

قرب ثغر البئر، كئنا غارقين في نوم ثقيل، عيون الأعراب رأتنا
مستلقين عبر عدسات آلة التكبير، لهم عيون لا تشبه عيوننا، عيوننا
لا تبصر، عيونهم تغريل الأشياء، عرفت أن هناك بشر يبيعون
الأسرار مقابل حفنة وسخة من المال، تقدمت أرتلهم باحتراس شديد،
هكذا تخيلتهم من هول ما سكن عيونهم من دعر، اتخذوا وضع
الحرب، أنت تعرف ما أعني بـ (وضع الحرب)، طائرات مروحية تحوم
فوقنا، طائرات غريبة، عملاقة، تتوقف، تستدير سابحة في بساط
السماء اللامتناهي، مراصد كاشفة، متهيئة لقنص كل إيماءة،
كل صنوف قواتهم المتحركة تحيق بنا، آليات حريرية، مسرفات
بمدافع عملاقة، في طريق لا يسلكه سالك، ما خلى أرهط، وجدت
تهريب مخلفات البلد وسيلة مقنعة للكسب السريع، طريق متاهة، أو
كما تسمى درب المهالك، بكل وجل تقدموا، يمشون على إيقاع
ثابت، خلتهم في عملية تطهير طريقهم من العبوات الناسفة المزروعة،
عبء مهمة شاقة، دحرجتهم أن يضاعفوا من إجراءات الحيطة

والحذر، يمشون في طريق أذاقتهم الويل والثبور، ونقلت الكثير منهم إلى ظلمات الضياع والقبور، فقدوا مئات من جندهم، عشرات من آلياتهم الحربية، لا بد منظر (حمار) يقف بكل أدب وتواضع، ورجل بمعطف رث، يحتضن طفلة تشبه دمية بعدما استعادت كامل عافيتها الجسدية، بعد رحلة شاقة، ممتعة - قد لا تقنع - إلى عالم مجهول، عالم سأحكيه لك، عليك أن ترويه كما أرويه، يا ولد يا كاتب، حكاية فيها شيء من الريبة، كثير من الشك، كمية وافرة من الغرابة أيضاً.

العسكري يتقدمون، الجنود مستعدون لتفريغ ما مهين من رصاص داخل حجرات بنادقهم ومدافعهم لأيما حركة تبدر منّا، حتى لو جاءت بلا إرادة، شعرت بأزيز يحوم حولنا، قبل أن ينبهني الزميل (حمار)، شيء صغير، مسلي يحوم من حولنا، آلة كهربائية، تمتد منها أذرع، عدسات تومض من كل جانب، (ربوت) آلي يجر وراءه سلكاً لا ينتهي، رأيت أرهط عسكري في وضع الرمي، منبطحون كاتمي أنفاسهم، عيونهم ترتجف، يا كاتب، لا بد أنك رأيت، سمعت كيف شاع في بلادنا - بعد خسران مبين - اللجوء إلى جهاز صغير بهلوان يتم التحكم به من مكان آمن، لديه القدرة على الكشف وتفكيك العبوات الناسفة الموقوتة، ذلك خيارهم الوحيد للخلاص، وسيلة منقذة لتطهير حافات شوارعنا الخارجية من متفجرات تزرعها أشباح تغزو وتتسحب - بلمح البصر - دون أن تترك أيما أثر، عبوات لم يتوصل أحد إلى عاملها وناصبها وناقلاها ومفجرها، وضعوا مكافئات

كبيرة، مكافئات لمن يدلي بمعلومات تقود إلى تلك الأشباح، شاع كلام غير مشكوك بصحته، الأعراب يقومون بزراعة العبوات، متفقون مسبقاً مع مبلّغين يكتمون السر، يقومون بتفكيكها، مقابل المكافئات المغربية، أكتب ما أقوله، لا تخشى، هذا زمان الخروج من القواقع، زمان إلقاء الأقتعة، زمان الخروج لمجابهة الواقع بما يدور تحت العباءات الساترة، أكتب طالما أنا أحكي الحكاية، أنت فقط ناقلها، لا إثم على ناقل الخبر، أنا من عاش الحكاية، أنا الراوي لها، مشكلتي، أنني لا أعرف الكتابة المنمقة، هي حكايتي يا ولد، حكايتي التي أرويها، كما رويت شطوراً غير مترابطة منها للناس، أريدها تعيش، تغدو أسطورة، كما غدا جدي أسطورة.

العسكر المتحمس، المتحضر، بعدما تأكدوا من خلوا أجسادنا من أشياء ستنفجر عليهم - أنت تعرف ما أعنيه - تقدم المثلث، أنهضني من نومي، دفعني أن أوقفظ (عشتار)، وقفنا أمام كاميرات راحت تصورنا، أوماً لي أن أمشي باتجاه مشرق الشمس بعدما فتشونا أيما تفتيش، وضعوا جهاز تصوير الأحشاء على أبداننا، جهاز أعجوبة، فحصت أحشاءنا، فحصوا أحشاء الزميل (حمار)، تأكدوا من خلوا أجسادنا من أشياء ناسفة، أشار (المثلث) بعدما تغمغم مع كبير الأعراب، أن نتوكل، نغادر، حملت (عشتار) ابنتي، وضعتها على ظهر الزميل (حمار)، سرنا، من عيني (عشتار) شعّت خيوط أفراح ملونة، كركرت بصوتها الملائكي، نقلت عينيها تحديق إلى السماء من بعد مصيبة حلّت

بنا، حرمتنا نوم الليالي السبع، سلبت منا فرحة البيت الغريب، الأعراب ظلّوا شاهرين أسلحتهم، قاذفين شتائمهم وراءنا، الزميل (حمار) ظلّ يطلق عليهم مدافعه الهوائية، قصف عشوائي نشر في المكان ضوع كميماوي مدمر، آه..تذكرت، في تلك الواقعة، في أصقاع بعيد، بعيد جداً عنّا، العالم يجتمع، كل العالم تقريباً، أنت تعرف ما أعني بالعالم، ملعون زمانه (قائد الحملة الحربية)، يلقي خطبة بمناسبة مرور عام على العمليات التحريرية، العالم كلّه يصغي، ينتظر حوادث أو تغيرات أو مستجدات ما بعد الحرب، ما بعد تصفية الحسابات الإقليمية، لعبة الكراسي المتحركة، مناصب تعلن للبيع في (البيت الورقي)، ملعون الزمن يخطب، الزميل (حمار) يخطب أيضاً، يطلق مدافعه الهوائية، أكتب هذه الموازنة، لا تغفلها، كبير الكبراء يحاول أن يقنع العالم الغاضب، يلقي عليهم بعد حفاوة لقاءات، بالحضن تمشي الأمور، كلمات من غسل، لا معنى لها في حسابات البيدر والحقل، يلقيها على عالم زحف ليحتفل مع شياطين العالم، و(حمار) يلقي الخطبة الهوائية على جنود ملعون الزمن، هو فرحان بحشود المؤيدين الوافدين إليه، (حمار) ي، فرحان أيضاً، سادني ذعر فاضح، تلاعبت أغواري، بعدما شاع في المكان الضوع المقذع، رائحة حريفة تتقذف من دبر الزميل (حمار)، خشيت أن يستوقفونا، أحدهم سيصيح استوووب، هاند أب، أي مين بت يور هاند أوفر ذهيدياً صرخة مخنوقة، يطلقها فم بلا شارب، سيستوقفنا الصوت من جديد، بداعي التهريب، سيتذكر سبب

مجيئهم إلى بلاد الأبحان، المآسى التي لا تنتهى، سيتدكر تلك المواد التي دوّخت العالم، جعلت الرأى العالمى أن يجتمع على مدار السنة، قبل أن تتطلق الحملة الحربية العظمى لقلع الظلام، وحبب باقات النور إلى ناس يستحقون الحياة، مواد جاءوا من أجلها، مواد (نووية)، تم إخفاءها من قبل السلطة الهارية، خشيت أن يأخذوا الزميل (حمار) إلى مختبرات العالم، سيدخلونه صالة عمليات عظمى، يفككوا أحشاءه بحثاً عن مصدر هذه الكيمياويات القاتلة المنبعثة من دبره، رحت أربت على ظهره محيياً إياه، على انتمائه النبيل لعصره الزاهر، وحيوانيته العالية جداً.

الأغرب واصلوا رحلتهم، نحن واصلنا رحلتنا، فارقتنا الوجل ونحن نسلك طريقاً صارت كابوساً وعلقماً عليهم، جرّاء (بمبات) ظلّت تحصد من غير حساب أرهطهم (الدائحة) ليل نهار.

بطبيعة الحال تعرف يا عزيزي، هناك رهط (ضلّ) سبيله، انسلخ من جادة الحياة، رمى نفسه في مستقع عسير المخاض، راح يقطع أوصال أرض المآسى، رهط ضعيف، باع من أجل حفنة أوراق أسرارنا، صار الواحد يمرر أخبار مشوهة عن بعض الناس، سرعان ما يختفون، ناس تأتي وتأخذهم، على ذوبهم توفير (دفاتر دولارات) فدية مدفوعة مقابل إطلاق سراح المخطوفين، رهط ليس بوسعه الجوع لحظة واحدة، انسلخ عن جذوره، تقنع بجلايب الهوان، شرّح شوارعنا المنسية، فرش نفوسنا الأبية، ما فيها من أحلام غير قابلة التحقيق أمامهم، رهط ظلّ حتى في منامه، في لحظة استحمامه، لا ينتزع عن وجهه اللثام، ملثمون يرافقونهم

أدلاء..أدلاء، كما تقول الناس عنهم، المثلثون، العاملون مع الأعراب، فتحوا مغاليق أسرارنا، ما نخبئ من طيبة، تسامح توارثناه، دلّوهم على ما نزرع على بساط الزمن من خصال، طبائع ودودة، مهدوا من غير إدراك، أو من أجل حفنة مال مسالكنا الوعرة لهم، مكنّوهم ليعرفوننا كما نعرف أنفسنا.

وصلنا مع الظهيرة، منتصف النهار تحديداً إلى البيت الغريب، (منار) مستغرية تقف، في عينيها سؤال ضاج، أستقبلتنا:

. كيف نجوتم منهم، لديهم التخويل الكامل لقتل كل ما هو يثير الشك، أو يقف خارج نطاق الواقع.

رجل بلحية كثة، معطف متهرئ، عملاق، بنت بعينين عسليتين، جديلتين منسوجتين بمهارة تجهلها نساء اليوم، مهارة من مخلفات عصر ما قبل الأعراب، (حمار) يفهم كل ما يتفوه به بشري، لكن مصيبته عجزه التام رد الجواب لكل سؤال مطروح، يكتفي بحركات، أو إيماءات، أو نظرات، أحياناً نظرات غاضبة، أحياناً نظرات متسامحة، يهز رأسه، أحياناً يعمل ما بوسعه عمله، كناية لكل عابر سبيل تؤرقه هواجس وشكوك، رغم شيخوخته المبكرة، يتمتع بصفاته الحمارية النبيلة، لا يعاند في معروف، عاشق للمغامرة، لنا عنه كلام ذي صلة، سأحكيه كما اتفقنا، وفق (الواقعية المبعثرة) وليس بطريقة الواقعية المهمة، لقد تركونا دون أن يعتقلونا، أو يتخذوا إجراء مناسباً بحقنا، ربما وهذا لا أريد الخوض فيه، جزء من أسرار حكايتي العجيبة، لمحت بكل وضوح، ومضات الهلع في مآقيهم، من غير

شك علامة فارقة مما حصل في رحلتنا العلاجية، علاج (عشتار) .
وصلنا البيت الذي لاح من بعيد حزم ضوئية ملونة تتعاشق، تمتد
منه صوب السماء التي سحبت محاجر عيوننا، أنا، (عشتار)،
الزميل (حمار)، باقات أفراح تتوزع على قسماتنا، وجدت (منار)
واقفة، كلها ذهول، في عينيها أسئلة، قلق، هي أيضاً تحدق إلى
السماء.. تأوهت (منار) :
- ما الذي يحصل.

- عشتار شفيت يا منار.. (قلت لها) .

- لست أعني هذا يا نواaaaaaaaaار.. (أجابت بأهة طويلة) .

مسكت معصمي وقادتنني إلى فناء البيت، صدقني يا كاتب،
سحرت، كدت أجن، لولا صليل جرس في ذهني رن، غشاني
فيض نعاس، حوّطني كثيف دخان، ابّيضت الأشياء من حولي،
وجدت نفسي في عالم ليس هو بالحاضر الرتيب، لا هو بالماضي
الكثيب، لا بالمستقبل العجيب، كل شيء في البيت القديم
جديد، كل ما هو مصنوع من طين، فخار، استحال إلى ذهب،
حجر عقيق، (منار) الدميمة المترهلة، تتهدل جدائلها متموجة، من
عينيها تبرق حزمة خضراء، من ضوء صايفي، على نحرها زهرة
متوهجة، قطعة آثار حوّلت (منار) من ليل إلى نهار، ترفل بأسمال
فضفاضة، أسمال بالومض تشع، أسمال ليس من الحاضر
المرفرف، لا من الماضي المزخرف، بدت ملكة قامت من نفيها، أو
من موتها الإجابري.. قلت لها:
- لا تقصّي هذا على أحد.

- يبدو أنك نسيت أننا خارج العالم يا نوّار.. (ردّت) .

قلت لها وأنا غاطس في فرح كبير:

- آه ..أننا فعلاً خارج (الزمان والمكان) ..

أنزلت رأسها من السماء.. قالت لي:

- تعال..قل لي أين وجدت الطبيب، كيف عالجت (عشتار) .

- آه..آه..يا منار..انقلبت موازين الدنيا، ليته واقع وليس حلم..

(رديتها بفرح غامر) .

قالت لي باستغراب:

- حلم..كل هذا النعيمييييييم من بعد سنوات جحييييييييم

وتقولي حلم.

- دعينا نتأكد من هذا الذي جلب الرببييييييع إلى مقابر اليوم..

(تأوهت) .

قالت لي:

- ألم أقل.. لا بد من يوم فرح..هكذا قالت لي خالتي يوم زارتنى

في الرؤيا، أمرتنى مرافقتك وأطاعتك حتى الممااااااات.

عانقتها، مهرت ثغرها بقبلة سريعة، تقدمت من (عشتار)

احتضنتها، راحت تدور بها فناء البيت الذي صار فردوساً، من بعد

ليلة ليلاااااااا..!!

* * *

البيت القديم

قلعة مهجورة، غرفها متداخلة، بناءها رصين، طبقات آجر مرصوص بعناية فائقة، جدران البيت تؤرخ قدم بناءه، فوق كل غرفة قبة حجرية، في الزوايا أربع مدرجات متروكة، تقود إلى غرف تطل على مساحات واسعة، فوضى أشجار غابات متشابكة، تلال، أراضٍ جرداء، تبدو مراصد، أو نقاط حراسة.

يقع البيت على مرتفع مهمل، يطل على نهر متعرج، تحفه غابات كثيفة، تتناول هامات الشجر المحتشد على جانبي الماء، ترتمي أفنانها بوحشية، تلامس الماء، تعيق سير المجاريف المتواصلة، تتهدل الأفنان كشعر طويل لفجرية، أو (أمازونية) ما ذاق أسنان مشط قط، نظرة واحدة تحسس الزائر، أنّ البيت متروك، لا فلاح داعب بمنجله أشجاره.

البيت لاح من أفق الخيال، هذا ما بوسعي قوله، ليس بيت حلم، كما يشتهي المزاج، يرسل شعاع الراحة للقوافل للسيارة، قوافل تتخذ المكان ملاذاً آمناً للوصول إلى الشمال، آه..الشمال الذي نشدناه، الشمال الذي تأتي منه رياح باردة، موطن الثلوج، قوافل مهريين من الدرجة المحترفة، قوافل هاربيين، القوا الحياة

التعيسة وراء ظهورهم ونشدوا الشمال، تخلصاً من جحيم البلاد، ليس بوسع الوشاة رصد التحركات الجارية في مكان مخيف، مكان كثيف الشجر.

البيت الذي لاح لنا، قديم البناء، يرجع بناؤه لعصر ما قبل غزو الأعراب بمئة عام، ربما يزيد على هذا التخمين وفق حسابي الخاص، حساب (بعل الفجرية)، الحمّال الذي لا يخطأ في حساباته الوزنية، أعلم يا كاتب أن الأبنية تبوح بأعمارها، الأشجار تفصح عن أعمارها، مثلما جبين الإنسان يعلن عن سنوات عمره، مثلما طبقات الأرض تعطي الجولوجيين التخمينات المتوقعة لعمر الأرض. البيت متماسك البناء، بنوه ليبقوا، من بناه جهل للعمر نهاية، ربما أرادَه للقصف والمجون، ربما بناه لصيد القوافل الخارجة عن سكة القانون، لا يعنيني سبب بناءه، لم تفتك به رغم قدم بناءه أسنان الظروف وحراب المناخات القاسية، وجدناه من بعد عناء ترسب في الروح، عذابات لا توصف، سنوات ترحال تحت راية عالمية، راية العوز والحرمان، لنقل رحلة البحث عن الأمان.

للق أقول لقد ضاقت بنا السبل حتى الرحبية منها، اعدمت فرص الراحة والإستقرار، يا مؤرخ آلام الناس المحكيّة، لم تعد بلادنا واهبة فرصة قرار، لم تعد أرضها رحبة لتؤويننا، قرار ولد في لحظة تعاسة، لم نمهل الفكرة لحظة واحدة للنقاش، خشية ترهل الفكرة، موتها قبل الشروع بتطبيقها، كحلٍ أخير يمكن اللجوء إليه، الواحد منّا لا تأتيه الفرص الكبيرة مرتين، ربما فرصة واحدة تأتيه في شريحة من شرائح عمره، يستغلها / لا يستغلها،

مصداق الحياة متحفزة، دائماً تعرقل الجهود عراقيل، تحجم
الآمال الكبيرة، تقتل براءة الرغبة قبل إنفلاقها، نحن لا نتناقش،
أقصد بنحن، أنا و(منار) الفجرية كما تسميه الناس، أليس
النقاش يورث العراقيل، خصلة نادرة تقاسمناها، أننا لم نتناقش،
أو ننجر وراء وجع الرأس، والثمرات التي أهلكت أقوامنا،
فتكت بماضينا الجميل، تتاحرات الأخوة أشد فتكاً من تتاحرات
الأعداء، هم يأتون لديهم قدرات محدودة، أفكار واضحة، لديهم
طمع، غاية الغايات عند الغزاة، يمكنك أن تجابهه بما تملك من
قدرات، لكن حرب الأخوة خاسرة على طول الخط، حرب
نقاشات سفسطائية، أوصلتنا إلى ما نحن فيه، لعلمك أيضاً أنا و
(منار) لا نتناقش حول ما يتوالد فينا من قرارات، أو رغبات، بلا
مدارسة، أو تردد ننفذ ما تدفعنا ملكتنا الفطرية، ربما براءتينا
النادرتين لتتفيذه، كل ما يولد فينا من قرار، نلقي من أجله
مرساة حياتنا، نبحر من غير متاع طبعاً، بلا تردد، أو خوف،
صوب ومضته السحرية، ومضة ما يتوالد في ذاكرتينا في لحظة
تأمل..!!

* * *

قالت لي (منار):

- نتطلق غداً..!!

نهار أول خميس، من شهر (صفر)، السنة الخامسة من غزو
الأغراب، آخر مكان أوانا، جنب بقايا حطام عمارة عملاقة،

نسفتها ذات صباح سرب طائرات، قلبت سافلها وأنزلت عاليها،
قيل مسلحون سكنوا سراديبها الأرضية، عس مقاومة كما سرب
(الملثمون) معلومة دسمة إلى الأغرأب، ظلّت البناية تتآكل
وتتضاعل، كلّمأ يحتأج إنسان إلى شئ يلتجئ إليها، مختصر
مفيد، جردوها من الحديد والنوافذ والأبواب، وجزء كبيراً من
طوابيقها.

في لحظة صفاء اشتغل مخ (منار)، أشتغل مخي مع مخها،
واقفنا الزميل (حمار)، ليس ثمة بد، نحن عائلة مترجلة لا شبر
أرض نملك رغم سعة بلدنا، وضعنا متاعنا البسيط في العربة،
وضعت (عشتار) على ظهر الزميل (حمار) وجلست (منار) داخل
العربة، أمّا أنا مشيت، يحلو لي المشي، أتبعهم، نمشي حيثما
يمشي الزميل (الحمار)، دائماً وأبداً حين أمشي أطلق عقيرتي
بالغناء، لي صوت غير مقنع بالنسبة لي، (منار) تقول عنه (ناي)
الروح..!!

الزميل (حمار) يواصل شق مسارب التاريخ، وغريلة أحشاء
الجغرافية بخطوات واثقة، يرفع رأسه، يضرب كعوب أقدامه
بتناغم موسيقي متوازن، تخرج إيقاعات راقصة، مثل عسكري
منضبط يمشي في استعراض سنوي، خلته يقتحم المنايا، أو في
مهمة مستحيلة، يهز رأسه طرباً، نشيطاً يبدو أو ان التقلات، يافعاً
يندفع، مبتهجاً يشاركنا هذا الفرأ الذي يغمرنا أو ان التحولات
المكانية، نتجول من غير سابق تخطيط، لم نهتد رغم غريلتنا
لأرضنا السلبية إلى ملاذ أمين، كل الملاذات تم إستيطانها من قبل

مشردين ومهجرين ووافدين من بلدان الغربية بعد سنوات المنافي، والنوم على قارعة طرقاتهم، حين نمشي نسلو ونلهو، المشي مفيد في بلاد واقفة، بلاد لا تريد مواكبة ما يجري، لا تريد أن تغدو تابعة، وقفت مصدومة، ناسها أوقفوها، بلاد بدأت تتدحرج إلى الهاوية، ناسها تريد ذلك، هم يدحرجون حياتهم صوب المسالك الخانقة، نحن اخترنا حياتنا المتقلة، حياة فيها فائدة، نغير جوّنا كما نرغب، نمشي في شوارع تغص بالقمامات، لا يهمننا ذلك، نقول: الناس لا تحب النظافة..!! ليس كل الناس، هناك ناس تحب النظافة، لكنها تخاف أن تتكلم، مسكت ألسنتها على مضض تنظر، تذرّف دموع غالية، قلوبها تحترق، الشعر يشيب قبل أوّانه، ترى وجوه بريئة، رؤوسها ثلجية، من كثرة القهر كبروا، من لا يحب النظافة ليس منّا، فيهم منابت الشر، لا يتورعون، قتل من يقف بوجههم، لا يرضون من ينصحهم، النصيحة شتيمة في بلاد تائهة، دنيا عجيبة وغريبة، الواحد يحب سند الواحد، لكن ذلك الواحد يعتبر المساندة إهانة، لا يستوعبون الأشياء، لا يريدون أن يستوعبوا، تراهم يرشقون بكلمات جارحات، أو رشقة رصاص، كثيرون ماتوا، ماتوا صدفه، قتلتهم حسن نياتهم، دافعوا عن أخلاقياتهم المثالية، جوبهوا بأخلاق خارجة عن قوانينها، لا يهمننا ذلك، ما لنا وما لأفعال الناس الذين لا يحبون النظافة.

نمشي، فرحين بتبديل محل سكنانا، برك مياه آسنة، مياه تتحدر من مجاري المنازل، والمزابل سدّت المجاري العامة، مزابلهم يرمونها من النوافذ، أو من وراء جدران بيوتهم، وأنت تمشي..يسقط

على هامتك كيس زباله، أو دورق مياه قذرة، أنت تعرف ما اعني بـ(مياه قذرة)، لا منافذ لمياه المجاري، بيوتات تجاوزت على القوانين، كل فرد حجز مساحة تكفي هبوط سرب طائرات مروحية، سيّجها، بنى بيوت عليها، بعضهم راح يبيع البيوت، البيوت المتجاوزة قطعت أوصال الطرق، سدت المجاري، بدأت مياه المجاري تمشي في الطرقات المتبقية للسابلة، تسد دروب الناس، دروب مركبات (المنيفيست) لا أحد يتكلم، الكل صامت، راضي بما يجري، الواحد يخاف على حياته، الحياة صارت ثمينة، هناك ناس حياتهم هي الأعلى، حياة الآخرين عندهم تساوي رصاصة واحدة، بعضهم يدفع ثمن أعلى لضحيته، يدفع رشقة رصاص، أو عبوة ناسفة غير مكلفة، ينسف بها من يجادلها، أو يريد أن ينصحه، صارت الفراغات وتعرجات الأزقة مرتعاً للذباب، وجحافل البعوض.

مالنا وما يجري، نمشي، نرى، ندفع بما نرى وراء ظهورنا، عمارات مهدمة، حرام يا عالم، حرام أن تهوى عمارات كلفت الخزينة ما يساوي بناء ربع مدينة، هياكل صامدة، أعمدة كهرباء مسلوخة، سرقوا أسلاكها، ناس بلا ضمير، نزعوا أسلاكها، باعوها إلى البلدان المجاورة، ناس تقول الأسلاك الكهربائية القديمة توجد فيها نحاس، النحاس ثمنه مرتفع هذه الأيام، أعمدة هواتف منزوعة الأسلاك، ناس تقول: أسلاكها موصلة جيدة لإشارة البث التلفزيوني. ناس تقول: من أين نأتي بالفلوس، الرواتب مقطوعة، الحياة ترتفع، أولادنا لا أشغال لهم،

شهاداتهم أوراق لا قيمة لها.ناس جاءوا من خارج البلاد لديهم شهادات مزوّرة، صاروا سادة يرعون مصالحهم لا مصالحنا، ناس تقول هذه الأشياء من غير خوف: من أين نعيش.ناس تقول هذا، أخذ حاجيات البلاد حلال، ناس تقول هذا: ما دام البلاد منهوية، مادام بلادنا مسلوبة، مادامت البلاد لا تمشي بعصا الشرع، حلال نهبها، ناس تهذر بذلك، أخذ ممتلكاتها حلال. الناس تتكلم بهذه الأشياء، في الطرقات، في المقاهي، أمام أبواب المنازل، أين تجد تجمعاً، حديثهم يدور عن الوضع المعيشي، عن النهب والسلب، عن الخطف والفتية، ناس تعيش حياتها وفق ما تراه يليق بمعيشتها.

رجل الدين الوحيد في البلدة، رغب أن ينصح الناس، تلقى طلقة مسدس في وجهه، يقولون جاءه ولد ملثم، عند خروجه لصلاة الفجر، باغته، خاله طالب عوز أو مشورة دينية، شبّان بدأوا يلتجأون إلى المسجد، شبّان استقبلوا (السقوط) برقص وفرح، اشتروا الهواتف الجوّالة، إشتروا الصحن الكبيرة، فوق كل بيت صار صحن يتحرك، يجلب أخبار الناس في المعمورة، كل أخبار الدنيا يجلبها عبر الصحن السحري، يمررها بقدرة قادر عبر أسلاك إلى التلفزيون الملون، الناس بدلت تلفزيوناتها، تلفزيون (الأسود والأبيض) لا يشتغل مع الصحن، مضى وقته، العالم ملوّن، العين تشتهي النظر بمتعة لنساء عاريات، كل شيء يوجد في الصحن، المحرمات متواجدة في قنوات (الهوتبيرد) تحديداً قناة (XXL)، عجائب، غرائب، تحدث في يومنا هذا، أشياء يجلبها الصحن، تقول عنها الناس لا تليق بأخلاقنا،

تفسد شبابنا، تخرب عقول بناتنا.

أراد (ملاً) البلدة، إعلان ثورته الإيمانية، في أيام الجمع المباركة، هاجم بضراوة من وضع صحناً على سطح بيته، سمّاه (راية الشيطان)، الناس حارت في أمرها، تلفزيون البلد عاطل، ناس تريد معرفة أخبار الدنيا، ترغب معرفة ماذا يجري في بلادنا، اشترت (السنترلايت) بعضهم يقول (ست لايت)، أشتروها ليعرفوا ما هو مصير العالم الملوّن، بعدما شاهدوه قبيحاً (بالأبيض والأسود)، (الملاً) واصل حملته الحماسية، لا يمر كلام جارح في البلدة من غير عقاب، مفهوم قديم يتواصل اللجوء إليه بين فترة وأخرى، خرج (الملاً) من بيته، خرج ليصلي بالناس فجرهم، ولد ملثم، باغته بمسدسه، الله رحمه، مديده الجبارة، دفع، أو صد الرصاصة، قبل أن تدخل رأسه، يد الله فوق كل يد منحرفة، حرّفت الرصاصة عن رأس رجل يخدم الله في الأرض، نجا (الملاً)، دخل منزله، قرر مغادرة البلدة، ناس تقول: صاحب كرامة..!! ناس تقول: بعدما خدّم السلطة الهارية، عاد ليقول الحق بعد زوال الغمة عن البلاد..!! لا احد يدري من وراء تلك الفعل، ماذا يريدون من (ملاً)، لا يختلف عن ملالي غاضوا بصرهم أيام الفساد الأجبّاري، خيطوا ألسنتهم عن قول الحق لوقت طويل، عادوا يقولون الحق في يوم بلا قانون، عادوا من جديد لصمتهم، بدأوا يسكتون كما سكتوا في سنوات الغليان.

تلك الطلقة مرقت قريبة من رأسه، كانت فوهة المسدس تبعد متروربع المتر تقريباً، خرجت الطلقة من فتحة مسدس كاتم

الصوت، عندما خرجت الجموع المبكرة لصلاة الفجر، وجدوا
(الملاً) جالساً يفكر، أو يشكر، رافعاً إلى السماء بصره، ناس
تقول ذلك، تقول: الولد المثلث، لا يعرف كيف يطلق النار
بالمسدس. الولد المثلث هرب، فص ملح ذاب في محيط غاضب،
(الملاً) غادر البلدة، أخذ أطفاله، ذهب إلى الشمال الآمن، ناس
تقول: (الملاً) تلقى تهديداً من مجهول، هاتفه في الليل، هدده
بضرورة تحليل ممتلكات البلد، من باب البلد محتل. (الملاً)
رفض، بعدما بدّل جلده القديم بجلد ديموقراطي، ناس تقول:
(الملاً) واعد المهاتف أن لا يتكلم عن هذه الأمور ثانية. لكن الولد
المثلث خرج من حجر إبليس، وقف أمامه، سدد فوهة مسدسه إلى
رأسه، أطلق، خابت طلقاته، لا أحد ينصح في بلاد تنفعها النصيحة
أكثر من المال والقوة، الناس بسطاء، الكلام الحلو، المرتب
حسب الأصول، الكلام الحلو يخرج الأفعى من حجره، الكلام
المنعش للروح، حتى لو تم تصفيط أكاذيب، على أقل تقدير،
ينعش أغوارهم الكاسدة، ناس تعلموا على التعامل المحسوس،
التعامل بالكلام، الترحيب يسعدهم، لسان معسول يجعلهم كتلة
متصالية، متعاونة على البر والتقوى، أنت ترى ناس أتوا من القرى،
يطرقون الأبواب، يدعون: مجهولون خطفوا أبناءنا. الناس تصدق
أقوالهم، تمد يد العون من باب الإحسان، الناس تجلس في بيوتها،
جمدوا رغباتهم إلى إشعار قد يطول مع وقف التنفيذ، أحلامهم
ينتظرون، بفارغ الصبر ينتظرون صاحب رأي رشيد، قائل قول
حلو، لكن الأمور ما تزال تجري كما يريد أصحاب التهديد

والوعيد، ما لنا وما للناس، نحن لا نعطل رغباتنا، نطلقها للزمن.
نمشي.. بقايا أشجار يابسة.. أشجار تم زراعتها لصد أغبرة
الدنيا، أشجار صارت طويلة، متفرعة، تمد ظلال مؤنسة، في
الصيف يجلس تحت ظلالها البسطاء، عشاق يمارسون الهوى على
الهواء الحار، بنت يحتضنها ولد، ترى العجب تحت ظلال الأشجار
الصامدة بوجه أغبرة الدنيا، أغبرة محيرة تزحف من الجنوب
الغربي للبلاد، من صحاري عديمة الفائدة، تأتي لتطمرنا، كل
سنة، أحياناً كل نصف سنة، حتى تم فقد الموازين الطقسية،
صارت الريح تجمع، تتطلق إلينا، صار الغبار يأتي كل يوم، يأتي
ليقيم على البلدة وشاحاً خانقاً، يستحيل إلى كرنفال كوني،
يقتلع صفائح المحال التجارية، يقتلع أعمدة الكهرباء، يقتلع
أسلاك الكهرباء، يقتلع أبواب منازل من الدرجة التعيسة، يطرد
الناس إلى قبورهم، تستمر الريح، ناس تقول: تأتي لتخصيب
أرضنا جراء الجذب المتواصل. ناس تقول: تأتي ليموت أصحاب
(الريو) والعاهات المزمنة. ناس ترى ترك الصلاة في المسجد سبب
البلاء المتواصل علينا. ناس تقول: الغش في السوق جلب على رؤوسنا
نكد الآخرة. النقاش يطول، نقاش يورث خصومات، رشق بنادق،
ناس تموت، ناس تخرج من المولد بعاهة، حكايات جديدة، تولد
لتتواصل سيرة الناس في بلدة (جلبلاء).

أشجار كثيرة تم زراعتها قبل مجيء الأعراب، اختفت، الناس
تزحف لقطعها، الناس تريد أن تعيش، تريد أن تبقى لزمان أطول،
تريد أن تطبخ، تخبز، ناس تمتلك أفواج أطفال، عيونهم مفتوحة،

أفواههم لا تشبع، لا يوجد غاز، لا يوجد نطف.

نمشي.. أينما نجد بقعة منسية، نراها ممكنة السكن، نحط
رحلنا، ننظف، نزيح الأوساخ، أكوام براز بشرية، بقايا مواد
إنشائية محطمة، نفرح ونحن نواصل العمل، ليت الناس مثلنا، تلهج
ألسنتنا، ليتهم ينظفون مثلما ننظف، لصرنا بلدة نظيفة، بلادنا
تصير نظيفة، عالمنا يغدو نظيفاً، سيحبنا العالم، العالم لن يحاربنا
إذا صرنا ننظف أوساخنا، العالم سيخافنا حين ننظف، سيقولون:
يا ويلنا، بدأوا الحياة..!! ماذا عملنا كل هذه الأجيال، ألم نعش،
لماذا يقولوا الآن - بعد آلاف من السنين، بعد ركاب من الحضارة
والتراث - بدعوا الحياة، ما علاقة الحياة بالتنظيف، سؤال يشغل
الذهن، جوابه عند عالم يراقبنا، العالم يتهياً، يحترس، ما الذي
جرى، لا.. لا.. شيء.. لا.. شيء.. العالم يخاف من نظافتكم،
نظافتكم دليل نهضتكم، نهضتكم دليل عافيتكم، عافيتكم
دليل قوتكم، قوتكم دليل وحدتكم، وحدتكم دليل هزيمتهم،
هزيمتهم دليل حضارتكم، أه.. هي الحضارة إذاً، العالم يقول ذلك
إذا رأونا ننظف، سيقول: حضارتهم بدأت تلمع، بدأت تشع،
خرجوا من الكهوف، علينا أن نعمل شيئاً يدرء عنا خطر
حضارتهم الناهضة..!! نحن ننظف أي مكان يليق بنا، لا علينا بما
تفعله الناس، تتملكنا رغبة المكوث طبعاً، أي مكان نجده، هو
ملك الله على البسيطة، الأرض ليست ملك أحد، ملك من يحرثها،
ملك من ينظفها، أي مكان مهمل ننتخبه ملاذاً آمناً، نطرح حياتنا
قليلاً، حياتنا المتجولة، نبغي الكسل لوقت قليل، نعرف أن بقاءنا

مرهون بوشاية واشي يتربص بنا، يلاحقنا، واشي يبيع الكلام مقابل مال حرام، يبيع الخبر بحفنة مال قدر، نستعد دائماً، أنا و (منار)، كلّمنا ننظف مكاناً نضع في باننا لحظة الرحيل، نتهياً له، ونحن نطرح حياتنا المتقلّة، نضعها على أهبة الإستعداد، في حالة نفير كما يحصل أوان الكوارث المتوقعة، تداهمنا قوافل الأعراب، لم نحتفل بعد بفرحنا، لم نسلخ بعد من التعب، تداهمنا قوافل مركبات، يترجل شاب يتلثم بقناع يضيع ملامحه، يتقدمهم مصطنعاً صوتاً واقياً يجنبه عيون الوشاة، حالة شاعت في البلاد، بعدما تم نحر العديد منهم من قبل فئات بجهر القول تتادي ضرورة طرد الأعراب من أرض الأجداد، كل من يقودهم نحونا، يتمتم بلازمة لا تتبدل، كلمات بطبيعة الحال غير لائقة التداول بين أبناء البلد الواحد، يجبرنا أن نشد الرحال من جديد، صوب متاهات بلادنا التي لا تنتهي..!!

* * *

لحظة اتخذت (منار) قرارها، مؤشر مخي أشار إلى جهة الشمال، باتجاه أعالي البلد، تلك الأعالي النظيفة، ناسها بعد صبر طويل كنسوا هموم ماضيهم، فرشوا جمال أرواحهم بسط وثيرة لحياة جديدة، تلك كانت أمنية (منار) أيضاً، (منار) تحب الأعالي، تقول: ليتني ولدت هناك، ليتني تعذبت عذاب نساءهم، ليتني.. ليتني.. ليتني..!! هي تقول ذلك، الحياة هناك - كما شاع بين الناس - فيها بعض الخير، هم يقولون: بعض الخير..!! أنا أقول الخير

كله هناك، عندهم ثلوج، عندهم عنب أسود، زبيب، عندهم طائر القبج، أنا أقول ذلك، بعض الأمان هناك، الناس تردد ذلك، تماشياً مع ما يقولون، سأقول بعض الخير هناك، الأمان كله سكن عندهم، أنا أقول ذلك، رغم ما جرى لهم من ويلات الزمن والسياسات النافرة، تشردوا، قتلوا، أنفلوا، سلبوا، طيلة سنوات العزلة، أيّام الغليان..!!

* * *

قبل غروب اليوم السابع من رحلتنا، وصلنا ربوة يابسة، ترتفع من جهة الشرق، قبل أن تتحدر لتلف كذراعٍ طويلة مقوسة نهر (دلبلاء)، رأينا جثث كلاب نافقة، ركام عظام، جماجم مهشمة..!!

- على ما يبدو مصيرنا هكذا.. (فاهت - منار - بحسرة) .

قلت لها:

- هياكل عظمية لكلاب، تبدو أنها انتحرت بصورة احتجاجية

وجماعية.

قالت لي:

- دائماً تجد تفسيراً مناسباً للظواهر المرعبة.

قلت لها:

- هذا إن لم نر هنا رصاصات تدين عملية إبادة كلابية.

أجابت:

- لو.. وجدنا هياكل بشرية بدل هذه الهياكل الكلابية، لربما

ما تقوله عين صواب.

أجبتها:

- هذا ما رأيته بأمر عيني، يوم وقفت عربات الأغرَاب ذات أصيل على شارع مقبرة البلدة، يوم انقطع ماء الإسالة عن الناس، ذهبت لجلب دلوين ماء من نهر (دلبلاء)، حدث ذلك قبل زواجنا بعام، قبل أن تقرقع مفاصل السماء، تمطر وتلقيك بين أذرعِي، رأيت بأمر عيني، كيف ترجل العسكريون عن دباباتهم، أوقفوا السير، قطعوا حركة المركبات، رحنا نراقبهم وجلين، جمهرة كلاب تتقاتل من أجل كلبة، سحب بعضهم أقسام سلاحه، راحوا يطلقون الرصاص، قنّاصة لعنة الله عليهم، قنّاصة لا تخطأ أهدافها، عملوا مجزرة كلابية، تركوا كلبين كي يصوروا مشهد التجانس، بيد أنهم صعقوا.

قالت لي بتعجب:

- صد...ع...ق...وووووووا.

قلت لها:

- لما عرفوا الكلبين المنتخبين ذكرين.

ضحكت (منار).. صاحت:

- على ما أظن هذه المجزرة كانت حفلة غرام أخرى.

أجبتها:

- لتكن معلومة ثابتة، كل مقبرة جماعية سببها أغراب يا(منار).

وضعت يدها تحت حنكها..قالت:

- لا أفهمك.

قلت لها :

- الناس تقول: (طريقة) جديدة لإلهاء الناس.

أنزلت يدها.. قالت:

- ماذا تعني بـ(طريقة) جديدة.

أجبتها:

- فئات قامت بإخراج هياكل الأموت، صوروا المشاهد، أعلنوا

إنها مقابر النظام الهارب.

قالت مستفهمة:

- وما الداعي من ذلك يا بعلي.

أجبتها:

- يضرِبون عصافير ثلاثة بحجر واحد.

قالت:

- ما حكاية عصافيرك يا بعلي.

قلت:

- من جانب يلقون التبعة على النظام الهارب، لزيادة الطين على

رؤوسهم عند الرأي العام العالمي.

قالت:

- ذلك عصفر واحد.

قلت:

- يلهون الناس، يشغلونهم كي لا يفكروا بوقع صدمة

السقوط، وما يجري في أنحاء البلاد.

قالت:

- وما هو العصفور الثالث.

أجبتها:

- يستولون على أراضٍ ممتازة كي يبيعوها.

صاحت:

- يا للخيبة. يا للمصيبة.

من وراء الربوة الجرداء إندفع أرنب برّي، وراءه يلهث كلب صيد نحيف، من بعيد دوى طلق ناري، استدار الأرنب حول المكان دورتين، قبل أن يقرر لجوءه الحيواني إلينا، صار أسفل العربية، راح يتوسل بطريقته الحيوانية، رق قلب (عشتار)، تأوهت (منار)، حملت الأرنب المذعور، في عينيه لمحت صرخة استغاثة، الكلب ظلّ دالِقاً لسانه، يئن، يراقب الموقف، يهز عجيزته اليابسة، يهز ذيله الطويل، يقعي، ينهض، الزميل (حمار) طلب منّي مشورة، لح بنظراته، كاد أن يندفع بعدما فقد صبره، ربما هياً سلاحه الطارد، (الكيمائي)، رغب يستخدم وسيلته الخاصة، لوضع حدٍ للموقف، هيمنت على أعصابه بإشارة، عرف ما رميت إليه، وصل صياد أغبر الوجه، رجل إكتهل قبل مواعده، عدواني الطباع، لم يلق ترحيباً، طلب بكل سوء أخلاق الطريدة، اللائذة من بعد مثابرة وهلع بنا.. قالت له (منار):

- ماذا ينفعك هذا الهيكل العظمي المتهالك يا غريب.

أجابنا:

- من أسبوعين، أهيم في البراري بحثاً عن أرنب بري.

قلت له:

- نحن إصطدناه، ليس من المعقول أخذه متنا.

قال:

- لي ابنة عليلة لا يشفيها إلا لحم أرنب في وقت الحيض.

صاحت (منار) بوجهه:

- وما أدراك هو كما تقول.

واصل عناده:

- أعطوني الأرنب، أبنتي ستهلك.

حاول بشتى الوسائل، قدّم حفنة نقود غريبة أخرجها من جيبه، هددنا بالسلاح، لولا كلبه الذي هجم على (منار)، وأقلت الأرنب من بين يديها لما تركنا، إندفع من جديد يركض وراء كلبه، الذي صار في لمحة بصر نقطة أثر، بكت (عشتار)، رفعت كفيها إلى السماء، تدعي للأرنب كي ينجو من (الكلبين).

واصلنا رحلتنا، هواء جاف، تلال شاحبة، قبل أن يتوارى قرص الشمس، برق ضوء أوقفنا من جهة اليمين، خلت نفسي في لحظة وهن، (منار) حدقت في بذهول، كذلك (عشتار) أمّا الزميل (حمار) بدا أكثرنا ثباتاً وجرأة، غيّر من اتجاهه، تساءلت ألسنتنا: ما الذي يحصل..!! من جديد برق الضوء، استحال إلى عمود ملوّن، يمتد من داخل بيت متروك نحو السماء، بيت لا تظهر ملامحه إلا بتسليط بصر حاد عليه، ضوء يتموج، يصعد كطيف شمسي في يوم ربيعي ممطر.. قالت لي:

- ماذا أرى.

أجبتها:

- أخاله مقام رجل قويم.

قالت:

- لم لا نذهب إليه، عسانا نجد مرادنا، أو نجد لنا مكاناً
يأويننا.

عند أوّل الليل، ألقينا متاعنا أمام سور حجري عالي البنيان،
وجدنا باباً لم تسمح لي (منار) معالجته، بقينا أمام المنزل حتى
مطلع النهار، ضوء قمر منير ينور الدنيا من حولنا، نسيم رطب
منعش صد هجمات البعوض علينا، بيت وجدناه خير مأوى، من
أعين الوشاة، والأشرار..!!

* * *

بيت أمين مهمل، يغيب بين صفوف أشجار اليوكا البتوس،
سدرتان، خمس نخيل، البيت من حجر عتيق البناء، طرازه يقود
الذهن صوب بدايات القرن المنصرم، يوم زحف الأعراب من بلاد
الأناضول، عاثوا في البلاد الدمار، أتوا بكل ما هو يلغي النبع
الصايف، قتلوا أبناء الطوائف المتواضعة، بحثوا عنهم في القرى، في
الوديان، من لا يدين بدين الوالي، ينحر قرباناً بأسم الدين
والجهاد، غيروا الطباع، الكتب تقول ذلك، أنا لم أعش زمنهم،
لم أولد في فترتهم، حكايات كثيرة سمعتها، تقول أنهم جاءوا،
عاثوا في الديار فساداً، حكايات تقول: خربوا أخلاقنا..!!
حكايات تقول: أخذوا فلذات أكبادنا طعماً لحروبهم البعيدة..!!

جعلوا الولد يبصق بوجه أبيه، كي يثبت ولاءه للغازين قبل تسجيله شرطياً مطيعاً، جعلوا البنت تغادر حوض ماضيها، تدوس على أعرافها المتوارثة، ألقت من على رأسها كل ما يستر ملامحها، بنات رغبن التجديد لحياتهن، رغبن المشي مع الموضة، التحرر الكامل، تفككت أسر، عشائر، توسعت متباعدة القرى، المدن، استعرت نيران النزاعات، حول الإرث والملكية.

من سطح البيت ترتفع قبب وديعة، قبة فوق كل غرفة، ست غرف متداخلة الأبواب، ست قبب فوق البيت، تشكل القبب نجمة دقيقة الترسيم، ربما تشبه لحد ما نجمة (داود)، لم نهتد لتأويل مقنع بخصوص مالكه، أو الفترة المتوقعة لآخر نزول حط رحاله، بيت غريب منفرد، في مكان مؤهل للعيش بعيداً عن مشاكل المدن، في المدن مشاكل كبيرة، العيش فيها غاية كبرى، لكن المشكلة الكبيرة، ثرثرات الناس، ناس تدعي ثقافتها، تجيد العجن، تجيد تخليط الأمور، ضياع الخيط الرئيسي للحكاية، تدعي ذلك فلسفة، ثقافة حدثية.

البيت مرتفع البنيان، مرتفع على مرتفع أرضي، نهر يجري أسفله، منتصف النهر صخرة فيها عين صخرية، يندلق منها شلال ماء رقراق متوهج، وجدنا مدرجاً حجرياً يتعرج صوبه، سهّل عملية نقل الماء، ربما قطن المنزل (باشا) من (باشوات) الأتراك، أقوال كثيرة سمعتها، أقوال أخرى تهجتها في مزق أوراق، ربما البيت كانت محمية من محمياتهم، لرصد اللصوص، ناقلوا الممنوعات إلى (أكراد) الشمال، كلام كثير شائع بين الناس عن أماكن

سريّة، مقاصف للمجون، تقام فيها حفلات صاخبة، للأنس والجنس، من قبل عليّة قوم، تركوا جمال دنياهم، ملاحه نساءهم، جاءوا يبحثون عن أجساد جديدة، هناك حكايات عن فتيات اختفين، نساء تركن بيوتهن، في ذلك الزمن العلقم، بنات جميلات يأخذونهن، يبيعونهن لملاهي البلدان المجاورة، إلى ملاهي (الأمة)، على أية حال، تلك حكاية أخرى، ربما اسطورة أخرى لرجل سيأتي، يريد أن يحكي اسطورته، حكايتي يا كاتب، موجعة، لا أقول مفجعة، كلّما أحكيها، تسحب مواقع لا تنتهي، تقلب ظهر المجن، تتطاير المحن، لنعد إلى فلك الحكاية.

البيت يقع على مرتفع أرضي بوسع كل عين، من فوق قببه، رؤية مسالك خفيّة تتخذها قوافل المهريين طرق نجاة من مخالب (جندرمة) الحدود، في تلك الأيام العصيبة، أيام الجوع، وبيع الشرف في بيوت الباشوات المحررين باسم الحرية والدين، طرق ترتسم مثل خطوط متعرجة، أو أغصان شجر بلا أوراق، ألقينا التعب وراعنا، بهمة ونشاط أزلنا ما تساقط متراكماً من يابس الشجر، توحشات الأغصان المتهدلة، أنزلنا متاعنا، فرشنا غرفة لنومنا، غرفة للزميل (حمار)، بطبيعة الحال حدث هذا مع تباشير الفجر، بعد ليلة سهر وفرح خارج البيت، نامت (عشتار)، بقيتُ أنا و(منار) نتجاذب أطراف الحوار، حتى برز الخيط المبين الذي رسم ملامح النهار، كدت من هول الغبطة لحظة وصولنا ليلاً أن أقتحم الدار لولا رفيقة دربي (منار) التي أصرّت: (في الصباح). عانقتني، رطبتُ ثغري بقبلة من قبالاتها التي لا تنتهي، من جهة، هي أيضاً

لعبتها الساحرة، كلما تلمحني، أو ترى بغريزتها الأنثوية مغامرة
مجهولة العواقب، تتضج في أفق خيالي، استقبلتنا العصافير،
الحمام، غرابين وقفأ يهزان رأسيهما، غرابان يرحبان بنا، صوت
ديك صدح، تحرّيت حتى أقرتّ (منار) أيضاً: سمعت صياحه على
ما يبدو لي وجدناه يعتلي جدار البيت من جهة اليسار، ديك منتفخ
الأوداج، بمهابة يقف، ينظر إلينا، خلته يخبر العالم عنّا، ديك خلته
وجبة غداء تاريخية، ديك كبير الحجم، مكنتز اللحم..!!
صاحت (عشتار):

- أبي أريد ذلك الديك.

قلت لها:

- سنمسكه، سنغذى به هذا اليوم..!!

انقضى الصباح، أفلحنا من بعد جهد الإمساك بالديك، أتعبنا
كثيراً بمكره وخفته، حتى ليخال أنه تدرب على الطيران، ديك
أثار في جملة شكوك، ديك بلا دجاجات، شيء غير وارد، الديك
لا يعيش بلا دجاجات يركبهن كل دقيقة، كيف بديك ينفرد
معتزلاً عن الدجاجات، مسكناه، ذبحته بحرية عسكرية أحتفظ
بها من زمن حرب (إيسان) أخرجت (منار) حفنة طحين، عملت لنا
على نار الحطب فوق الصاج، أرغفة مطعمة برقائيق بطاطا، شرائح
بصل، يوم تاريخي لنا، نحن نلتهم لحم من بعد سنوات حرمان،
فرح يغمرنا لأننا أصبحنا نملك من بعد شقاء وعناء، بيتاً لا يخرجنا
منه مالك، أو يدفعنا العوز مغادرته مكرهين، لعدم حصولنا على
أجرة السكن، بيت أفرحنا، فرح الزميل (حمار) بعد أن شبع من

الحشائش، أغترف من النهر عذب الماء، بعد سنوات من مياه البرك
الأسنة، فرحت، فرحت (منار)، فرحت (عشتار)، فرح الزميل
(حمار)، طوال ذلك النهار، لم نخلد للراحة، بقينا نرتب ما نملك
من مهملات، ننظف، نزيل ما هو موحش، معيق، انطلق لساني
يفني، الزميل (حمار) راح يهز رأسه، هو يسحل جذوع أشجار
متروكة، بينما (عشتار) ظلّت جالسة فوق جذع شجرة توت،
تصفق لنا بكفين من بلور، تكرر كاشفة عن أسنانٍ دقيقة،
تلمع كالياقوت..!!

* * *

لابد من مقدمات بسيطة أقولها بكل وضوح لك يا كاتب،
أريدك أن تلم بحكايتي، هي أنا يا كاتب، ما أحكيه لا يعدو
سوى براكين احتدمت، انفلقت، نثرتني على زمنين، زمن ظالم،
زمن لما يزل لا ينور، لا نور في الأفق، خمس سنوات، الظلام رفض
أن يتحلل أمام الضوء القادم، زمان عنيد، ضوء بليد، أريد أن
أحكي كل شيء، كل ما حكيته للناس، الناس لم تسمع من
حكايتي سوى شطور، أريد أن أقربك من قضيتي، قد أعجز إذا
ما طلبت منّي الأسهاب في شرحي، بخصوص هذا التكوين العائلي
لنا، التركيبية التي أنتجتنا، هل هي لعبة قدرية..!! أم ترسيمة بارعة
من ألعاب الصدف..!! أنا من شجرة مقطوعة، صحيح لي جد
شهير، تاريخ تمناه الكثير، لكنني لم أشبع من أبي، لا من أمي،
ليس بوسعي أن أتذكر شيئاً من طفولتي، كل ما هو يرتسم،

بكل دقة في بالي، سنوات من العمل حمّال في بلدة (جلبلاء) المتواضعة، المطلة بكمد على حافة نهر (دلبيلاء) المتعرج، كثعبان جريح زاحف من الشمال، منحدرًا حتى الجنوب، مثلما (منار) فتاة صغيرة مستديرة الوجه، عينان واسعتان، شعر يتهدل بطريقة غجرية، متوافقان في كل صفة، أو خصال مقبولة، (منار) ترعرعت ببراءة نادرة، وعشق بلا حدود للحياة، من غير أب، أم، مثلما أنا عشت، كذلك (عشتار) كتب عليها العيش بقية عمرها بلا أخ، أخت، كما أكدت سنوات زواجنا، الزميل (حمار) خلال سنوات رفقتنا لم أجده يتسم رائحة أنثى، لا يعير بالأكلما مرّت واحدة أمامه، أعني حمارة، صرنا عائلة لا تمل التتقل، رغم ركلات الظروف القاسية، رغم موت الفرح في بلادنا، رغم الجوع، توافد أوبئة غريبة، أصبحنا عائلة لا تعرف غير السعادة لغة، لا تستغرب أيها الصابر المتابع لما أقوله، أن قلت لك: عقل واحد غير بليد أو معقد يستوطن رؤوسنا، قلب واحد لا يغير من إيقاع نبضاته أو ان التجاوزات الحاصلة علينا، يتوزع داخل أجسادنا، أجسادنا نحن الأربعة، أنا، (منار)، (عشتار)، الزميل (حمار)، هي حقيقة تؤكد ما عشنا من وقائع، رحلات فوق العادة، لك أيها الولد الكاتب الحصيف، أن تمسك خيط السر، خيط الحكاية للوصول إلى لب ما أقوله لك، من خلال أسماءنا المتناسقة.. (نوار - منار - عشتار - حمار) ..!!

* * *

الحبيبة منار

(منار) ..من..نا..ا..ر..ي، هي نصفي اليانع في يابس الحياة، هي زوجتي، مساحة الفرح والأمل الدائم، هي ألغت الماضي التعيس، وأورقت لي خضرة المستقبل، قد تتصور إنها امرأة عادية في زمن غير عادي، هيهات ثم هيهات، ليس بوسعك مهما بذلت من فراسة، أو توقعات، كي تعرف من هي هذه الـ (منار)، ساعدي الأيمن، دواء لكل لعنة واجهتني.

حسناً هي (منار) - من.. نار - هكذا سمّوها بعدما مات أبويها، للحق أقول (وكيحة) جداً، لا أعرف من مات أولاً، أبوها.. أم أمّها، تملك ذاكرة عجيبة، لا تتسى ما ترى، تسمع، تتذكر طفولتها. هي (نار) حين يحاول القدر صقع روعي، التي ما مهدت للجليد أن يتجلد، في يوم ما، مهما تتالت الصدمات، رغم أنهار العذاب الجاري على وجه بسيطتنا العجيبة، ساحرة هي (منار)، كلّما تستعر عواطفها، في قلب الجوع تغني، ترقص، مختصر مفيد ماء زلال أيام القيظ، أو في يوم صيام طويل، شديد الحر.

بطبيعة الحال لا تعرف، كيف صرنا أنا و (منار) ي.. واحداً في نصفين، كائنان متنافران خلقياً، منسجمان فكرياً، متآلفان،

ربما تراتبية الصدف، أو ثمة سر من أسرار من هو ساهر،
بحكمة، بعلمانية قاهرة لعلمانية البشر، ساهر ليحرك، ويوجه
العلامات المؤسسة لدولة الوجود..!!

* * *

في يوم اتفقنا أن لا ننساه، يوم ممطر، المطر (الجلبلاي)
المعروف، المطر الذي إذا أنهم دمر، ليس مثيل لمطر (جلبلاء)،
مدرار، مطر يدخل الناس في تأهب تام، يوم لقاءنا، رغم
كارثيته، حفل بعرس جميل، رغم المدرار الإلهي الذي غمر بلدتنا
المنسية، من قبل كل من تولى زمام إدارتها، أو تسنم مقاليد
الحكم، في البلاد التي وسعت حضنها للمصائب والمكائد، لأن
القائم بمقام الأعمال ينشغل بتكوين مستقبله أكثر مما يشغله
مستقبل رعيته، الحاكم ينشغل بكتابة واجعة وحيح خطبه
الرئاسية الفارغة، أكثر مما يصحح أخطاء سابقه، الذين يأتون،
الذين ينتخبون، يختارون أماكن حيوية للمكياتهم، أماكن
تجارية، يستولون عليها بقوانين يستووها لصالحهم.

تحت مطر لا يرحم، يفمرني فرح لا يوصف، مضيت أذفع
عربتي داخل السوق، يبللني المطر، داخل سوق مدينتنا المبللة
(جلبلاء)، لمحت فتاة صغيرة تبكي، ضئيلة مدورة الوجه، تتلفت
يميناً، شمالاً، ذات الأمام، ذات الوراء، ذات الأرض، ذات السماء،
شيء نهض في، دعاني مرغماً أن ألاحقها، بنظرات ليست عفوية،
أقولها صراحة شهوانية، شهوة البرد الذي ينهض الروح الصادحة،

- منهم.

أجبتها:

- سأقف قرب بيتكم يوماً.

مستغربة، باسمه، أسنانها البيضاء تلمع هذه المرة.. فاهت

بهمس:

- (ليش) تقف قرب بيوتنا.

أجبتها بهمس، همس خشن، همس رجل لا يعرف كيف

يلطف بنت صغيرة:

- كي أراك تبكين.

بهمس أجابت:

- أنا لا أبكي.

قلت:

- وما هذا الدمع في عينيك.

منكسرة تقف، ربما لعبة بنت شاطرة..قالت:

- أخاف من السماء.

في تلك اللحظة، ومض برق صاعق، قرقت مفاصل السماء،
اندفعت صوبي، صارت بين ذراعي، حرارة قاتلة، راحت تحوطني،
قلبان يضريان بعنف، وجهان يقتريان، أنفاس حارة تختلط، الدنيا
تغيم، المطر لا يرحم، مطر عنيف ينزل، لم أرغب في يوم ما أن
أعيش كما عشت تلك البرهة السامية، جسد مبلل، طري، دافئ،
يدفع تيارات لا تحتمل من رعشات وعبق، لذعات أنهضت في
عروقي رجفات متواصلة، حرارة تصاعدت من عمودي الفقري،

زرعت عينيها في عيني، راحت تجتهد لرسم ابتسامة على ثغرها
المبلل، ماأحلى الثغور المبللة، الثغر حين يتبلل يغدو فاكهة
ناضجة، (أجاصة) في صحن مرمرى، تفاحة خراب، تفاحة سقوط
يغدو كل ثغر مبلل، ثغر البنات فقط، دموعها تتحدر لتمتزج بالماء
الهاطل عليها، دموع وماء، ماء ودموع، شعرها مبلل، وجهها مبلل،
عيناها مبللتان، كل شيء فيها مبلل، دفتها، كلمات خجولة في
عينيها، بريق يلهب الروح، بريق ينبعث مع لهاثها، انفاسها حارة،
تقتل البرد، في تلك اللحظة لم أنتبه لما حصل من حولي، يسكنني
وجع غريب، يفاقم في رجفات، شيء دافئ يستعمرني، يسكرني،
صاحت أفواه صيحة متحدة، (ألعب بيها ياعم)، انتزعت البنت
المرتعشة نفسها، انفك أشتباك الجسدين الملتحمين، وقعت في
حيرة، وجدت الناس من تحت المستقفات الواقية للمحال التجارية،
والدكاكين المغلقة، ينحتون عيونهم، يتهامسون بتعجب فاضح،
تعجب يستعمر وجوههم بشكل واضح، يتهامسون، يغامزون فيما
بينهم..!!

* * *

لا تستغرب يا كاتب، أنا (فيلفوس)، كما يذهب الحمّالون،
بدأت أقرأ، أنا أحب القراءة، بدأت أقرأ الروايات المسليّة، روايات
بوليسية، أشترتها من كشك صغير يبيع الصحف والكتب،
التهجى نما، تطور إلى قراءة متعثرة، قراءة تكفيني فهم ما أقرأ،
قراءتي إبتدائية، أقرأ، لكن لا أعرف الكتابة، أريد أن أكتب،

رغبة عسيرة ركبت رأسي، اشتريت قلماً، رحت أقلد الكلمات،
قلمي لا يمشي، يقف، يرسم بتعرج كلمات عرجاء، حرف لا يشبه
حرف، حرف كبير، حرف صغير، جف القلم في جيبي، ظلّ
متعلقاً، أتباهى به، يطلبه الناس، رجال يمرون من أمامي، (قلمك
من فضلك) أناولهم قلمي، يكتبون به أشياءهم الخاصة، لا أعرف
ماذا يكتبون، ربما وشاة بلا أقلام، يطلبون القلم ليكتبوا به
وشاية عابرة، كلما أكتب، يسقط القلم من بين أصابعي، أجلس
ساعات وساعات، أجد الورقة بيضاء، القلم ساقط من يدي، أترك
الكتابة، لا أجد رسم الحروف، أقول لنفسي، لم أخلق للقلم، أنا
حمال، خلقت للحمل، خلقت لدفع العربات الكبيرة.

* * *

في زمن ما، دخلت محو الأمية، تعلمت القراءة، لم أتعلم
الكتابة، القراءة المتعثرة، المعلم أنشغل بمداعبة (خصيته) أكثر
مما أنشغل بتحريك مخنا، يقف قرب النافذة، امرأة متحررة تقف
في باب بيتها، امرأة لا تدري ما الذي يحصل في غرفة الدرس،
المدرسة تحاذي صف بيوت العسكريين، المرأة تجلس، المعلم يقف
في النافذة، يداعب (خصيته) بأنامله الخشنة، نحن ننتظر أن يقرع
الجرس لنهرع إلى عرباتنا، نريد رزقاً ليلتنا، المعلم يواصل اللعب،
النظر، نحن نتابع حركات أنامل المعلم، قضينا المدة المقررة، ستة
أشهر، أنا بقيت أتراوح في تعثراتي، تشجعت أن أشتري صحف،
كتب تأتي من العاصمة، كشك صغير فوق الشارع الرئيسي

الممتد من قلب البلدة إلى العاصمة، شارع بلا رصيف، ذلك الكشكك نسفوه بعبوة حارقة، ناس قالت: هددوه بعدم بيع الصحف والكتب، لأنها تخرب عقول المسلمين..!! ناس قالت: طلبوا منه فدية..!! رجل فقير لا يملك شيء، في ليلة حالكة الظلام سمعنا الدوي الكبير، (بمبمبمبمبمبم) اهتزت المنازل، لم يخرج أحد، البلدة يحتضنها خوف متفاقم، حظر التجوال يبدأ في الساعة السابعة مساءً، يستمر حتى صلاة الفجر، الناس تقول أشياء كثيرة، من يا ترى يعرف لم نسفوا الكشكك، أكتب هذا أيضاً، أكتب ما أحكيه أرجوك، لا تخف، الكاتب الخائف جبان، من لم يوصل مواجع جيله للأجيال اللاحقة يخون مهنته، من يخاف اليوم لا يعرف كيف يجابه الزمن القادم، ليس لديه مكان في بيت المستقبل، أكتب كي تعيش أطول عمراً، أنت تعرف في بلدتنا، ربما في بلدان الدنيا الواسعة، يغدو الحمّالون أكثر الناس شهرة، لأنهم يتجولون في السوق، في الأزقة، ينقلون البضائع إلى كل بيت ودكان، يجلسون في الساحات المخصصة للعربات، في انتظار زبائن يتسوقون، زبائن يملكون المال الكثير، يشترون كل شيء، ما ينفعهم، ما يقتلون به نمو أموالهم التي لا تنتهي، تراهم مثل الزنابير يحومون، يلهثون في السوق، يغربلون السوق لمرات ومرات، أموالهم تمنحهم طاقة المشي، الحمّالون يدفعون عرباتهم وراءهم، يضعون ما يقتنون في العربات، يتباهون وهم يمشون، الناس تنظر إليهم، الناس المعدمون، المحرومون من المال الكثير، عيونهم تدمع، السننتهم تغمغم، يلفظون حسرات، آهات، الحمّالون

يطاردون كل من يهبط من عربات القطار، يجرون بسرعة، يتسابقون من أجل الفوز ببضاعة، يتنازلون عن التعريفة، يحصل عراك بينهم، يلهثون خلف كل فلاح يهبط من عربة القطار، يهبط، يجرو وراءه كيس، يجرو صندوق، طماطم، خيار، باذنجان، باميا، قرع، خضراوات، بطيخ، رقي، لوبيا، بعض الفلاحين لا يدفعون النقود، يعطون بدل النقود ما يجلبون من محصول، بعضهم أعد ما سيعطيه للحمال مسبقاً، يرضى بعض الحمالين بما يعطي الفلاح، لذلك الحمالون مشهورون، الناس تعرفهم، ينادونهم من مكان بعيد، كيف بيّ أنا الحمال أبا عن جد، لا بد أن أغدو أكثر شهرة، رغبة لا تدعني أن أرتاح، أريد أن أغدو كما غدا جدي في زمانه، شهرة ومال، رغبة ممكنة التحقيق، طالما الزمن يغلي، طالما الغرائب والمصائب تعترضني، تداهمني أينما أتواجد، أعبرها، أمشي، أعبئها في سلة حياتي، فكرة توالدت (على حين غرة)، أكتب هذه الجملة، أكتبها بقوة، بقوة أرجوك، (على حين غرة) ضعها بين قوسين، أحب هذه الكلمة (على حين غرة..على حين غرة) أحضرها في الورقة بقلم حاد، حلوة هذه الكلمة، يا مسجل سجلها بصوت عال، سمعت هذه الجملة مرة من فم ولد كثير اللغو، كثير الإعتناء بمظهره، من يعتني بمظهره عليه أن يتعلم كيف يهتم بلسانه، اللسان والمظهر يكملان قيافة الإنسان، (حصانك لسانك) أنا يعجبني قول الكلام هكذا.

جدي لما يزل يعيش بيننا، كل حمال يطمع أن يغدو، أو يحذو حذوه، الناس تعرفني أنا من سلالته، يعرفون كل شيء عني، قبل

أن أولد، فقط (أناي) لا يعرف شيئاً عن طفولته، الناس تقول أشياء ورائي، فشلت أن أصل إلى ما يقولون ورائي، لا أملك جرأة أن أسأل عن طفولتي، قلت الحياة ماشية، لا تتغير إن عرفت، أو لم أعرف شيئاً عن طفولة غير نافعة، أنا حمال، حمماً!!!!!!!!!!!!!!، كفى.

* * *

أظن إن منظر يوم المطر جعلني أكثر شهرة، طاش الخبر بين الناس، كل خبر جديد يطير مثل البرق لتداوله ألسنة الناس، في وضح النهار، خبر لا يجب السكوت عنه، ألسنة الحاضرين قالت ذلك، كل من رأى ما رأى، اضاف من عنده على ما رأى، سرد لذويه الحكاية، صرت في البلدة على كل لسان، المطر الذي جمعنا، أنا والبنت المبللة بالمطر، البنت التي دفعها عصف البرق لتلتصق بين أذري، المطر ظلّ يمطر، لم يتوقف لثلاث ليالٍ سوياً، ماء غير معهود هبط من خزانات السماء، تحررت سيول الجبال، غطت الوديان، غزت البلدة، جرفت بعد يومين من بدء هطول المطر، البيوتات الطينية الجاثمة على طول الوادي، بيوتات طينية لفقراء، لمعدمين، بنوا بيوتات طينية، دائرة كهرياء البلدة حرمتهم من الكهرياء، قالوا: بيوت متجاوزة..!! بيوت مظلمة، يشعلون أول الليل نيران، يجلبون الحطب من مكان بعيد، النيران تخمد عندما ينامون، لا يحتاجون إليه، تقنياً للحطب، يطفئون النيران، سابقاً لم يطفأوها، مات أطفال مختنقين بغاز النار، من يومها بدأت

البيوت تطفأ نيران المناقل والمواقد، الفقراء ينامون (بدرى)، لا شيء لديهم يشغلهم، همومهم كثيرة، يريحون أنفسهم بالنوم، كي يحافظوا على الحطب، كي يحافظوا على صحتهم، بيوتهم طينية، بيوت تنهار كلما السماء تغضب على الأرض، كلما يتحول رعد السماء إلى ماء، يهطل ليكنس بيوت الفقراء، تجرف بيوتهم، تدحرج ممتلكاتهم القليلة صوب نهر (دلبلاء)، ذلك المطر، مطر يوم اللقاء، لقاءنا، أنا والبنت الصغيرة التي تبللت، البنت التي دفعتها فرقعات أحشاء السماء، دفعتها لتكمل معي مشهد الكون المحتفل، مشهد رجل يحتضن بنت صغيرة تحت مطر مدرار، المطر ظلّ لا يغادر الرؤوس، حادثة كبيرة تسكن كل ذاكرة، ما راكمته الناس في الوادي الكبير، من أعواد خشب لتسقيف المنازل الطينية، حصران، أكياس رمال، أكياس سمّنت، أكياس (جص)، أكوام متراسة، يمتلكها أصحاب المال والنفوذ، جاءها سيل عرمرم، أخذها إلى النهر، الوادي كبير، واسع جداً، فشل أن يستوعب ما زحف من ماء نائر، الوادي يشرخ بلدتنا إلى جهتين متناقضتين، جهة يقطنها فقراء، مساكين، أيتام، معدمين، جهة الشمال، واطئة، تحاذي الوادي المتعرج، بيوتات طينية، بعضها من صفائح زيوت ألقته وحدات عسكرية، تأتي في الصيف إلى المنطقة، تمارس تمارين بذخائر حية، تخلف وراءها أكوام مزابل، صفائح، قذائف غير منفلقة، تغادر، تندفع الناس لغريبة مزابلهم، الناس الفقراء تهول، يعود كل فرد فرحاً بكيس زبالة على كتفه، النساء أيضاً يذهبن إلى (ميدان الرمي)،

يجلبن ما ينفع في اليوم الذي لا يريد ترك سواده، ولد واحد جلب كرة مدورة، وجدها في حفرة، كرة جميلة، لمّ من حوله حشد أصدقاء، أحدهم جلب مطرقة حديدية، ظلّوا يتناوبون الطرق عليها، الولد الذي وجد الكرة، واعدهم بتقسيم النقود داخل القاصة بالتساوي، ظلّوا يطرقون، (بممممم) .. هرعت الناس، الفقراء والأغنياء، نساء بدأن يمزقن أسماهن، نساء الفقراء طبعاً، من فوق أسطح المنازل المقابلة نساء الأغنياء يلقين نظراتهن - هادئات - على نساء الفقراء الثاكلات، وهنّ يمرغلن وجوههن بالطين، تلك الكرة الحديدية، انفجرت وقتلت سبعة صبيان فقراء، من يومها تم تبليغ الفقراء بعدم الذهاب إلى مزابل الجيش، قالوا: الفقراء لا يميزون النافع من غير النافع..!! ، حرّموا من بقايا بطانيات يلقيها العسكر المغادر، علب، صفائح زيوت، يرممون بها بيوتاتهم بعد زوال الفيضانات السنوية.

على الطرف الآخر للوادي، منازل منسقة، حجرية، لا تصلها السيول، تصمد بوجه الأمطار، أزقتها حجرية، لا يتبلل أقدام ناسها في الشتاء، أغنياء، أصحاب نفوذ تأتيهم الأموال بيّاتاً وهم نائمون، يقطنون الجهة المقابلة لجهة الفقراء، عالية بيوتاتهم، عمودية مسلحة تجثم على طول الشارع الرئيس، شارع الموت، كما يحب بعض الناس وصفه، كل موسم طفل فقير تسحقه فرامل مركبة، اطفال الأغنياء لا يلعبون في الشارع، عندهم غرف كبيرة، كثيرة، ناس تقول: لديهم ملاعب أطفال..!! ناس تقول: أطفالهم (بزر جكليت) يلعبون في متنزه البلدة..!! كل مساء

مركباتهم تمرق، تقف أمام المتنزّه، الفقراء لا يدخلون، ليس لديهم تراخيص دخول، يقفون من وراء السياج ينظرون إلى أطفال مسرورين، هم عملوا جمعية لسعادتهم، الفقراء لا يحتاجون إلى جمعية مسرات، يحتاجون إلى جمعيات خيرية تأتي لمساعدتهم، تأتي، تذهب، ناس تقول: الأغنياء سجّلوا أسماءهم، أسماء وهميه، عملوا هويات مزورة، ينالون حصة الأسد..!! عندما تأتي جمعية خيرية، تأتي مركبة كبيرة، تاخذ ثلثي ما تحمل مركبات الجمعية الخيرية، ناس تقول: الأغنياء يستحون ان يأتوا، يرسلون مركبات يدفعون لهم مبالغ، ينقلون حصصهم إلى منازلهم..!! الناس تقول هذا الكلام، طبعاً والكلام في وقتنا هذا لا يأتي من فراغ. في ذلك الفيضان، صار كل ما هو ملكاً للفقراء، طعماً لسيل غريني عرمرم قلع نباتات الجبال، جرف قمّامات الأغنياء، حفر مأساة لا تنسى في ذاكرة بلدتنا، انجرفت أعواد سقوف متراصة، حصران، عربات، قمّامات، خمسة هياكل لمركبات متهاكّة، عشرات الأطنارات المتروكة، أزاحت وجار الكلاب السائبة، قبلما تسقط البيوتات، مختصر مفيد، حدث جلل لما يزل بداية لبناء منازل جديدة، اتخذت من المرتفعات أمكنة آمنة.

* * *

عوداً لذلك المشهد الذي رسم حياتي، مشهد حمّال يحتضن بنت مبللة، عندما عاطت افواه اللائذين بالمسقفات، إنتزعت البنت المبللة نفسها من بين ذراعي، استدارت وولت الأدبار، تعالت

همهمات أخرى من اللائذين، بعدما وجدت نفسي واقفاً يطرني المطر بلا رحمة، لم أنم ليلي، شيء فوق طاقتي صار رفيقي، نديمي، أقف، أنظر من شبّك غرفتي الوحيدة، غرفة مهملة، قمت بترتيبها، نظفتها من أوساخها، قطنها رجل كبير، وحيد، مات، لم يستغلها أحد، ناس تقول: مسكونة بالشياطين والأبالسة..!! ناس تقول: من يسكن في دورة مياه مجانية غير مجنون..!! سكنتها أنا، أنظر إلى سماء غاضبة، إلى وشاح مائي يسد درجة الرؤية، لم أنم ليلي، شيء جديد صار يستوطنني، يرعش جسدي بدفع لذيد، قلبي يواصل الضرب بعنف، لم أنم، قلت لنفسي، النوم وقت المطر لا يليق بالفقراء، حرام أن ينام الفقير والسماء ترحمه، في المطر يكثر الخير، على الفقير أن يشكر، يصلي، الأغنياء لا يحبون المطر، المطر يكثر خير الفقراء، المطر يمنعمهم من مبارحة منازلهم، المطر لا يحبه كل ذي مال، المطر يتواصل، أقف، أجلس، أرى شبح البنت يقف أمامي، أقف، ألث وراءها، تهرب من بين يدي، أحتضن الحائط، أضحك، أعود إلى منامي، تأتي من جديد، بنت لا تريدني أن أنام.

* * *

جاء الفجر، أنا سهران، أنا فرحان، أنا تعبان، وقف المطر، بدأت السيول تتجحفل، بدأت تحتشد، وراءها كنس، جرف كبير، ثلاثة أيام عمر السيل، لم يحصل مثله في البلدة من قبل، انحسر مد مياه الفيضان، بدأ الناس بإعادة ترتيب حياتهم، فقراء

بلا مأوى يتراجفون في أمكنة حجرية، حالهم حال، للحقيقة أقول
لم أعر ما يجري بالأ، رغم رقة فؤادي، رغم شفافية دموعي،
شغلتنى البنت المبللة، أغوارى تحتم، تقلبات جوهرية تحدث،
مشاعر تتبدل، أحاسيس تفتد، خلايا تلقى أريدتها البليدة، جلست
أبحث عن علاج ييقيني حملاً يواصل الحياة، قرار مباغت، آه..
اكتب (على حين غرة) بعنف زائد أحضر الجملة، قرار ينضج على
لهيب لهفة، رغبة، لوعة، نمو مدهش لعقلي، جوارحي، بحثت عن
سبل ميسرة للوصول إليها، هي دواء الجسد الذي تبلل بحرارتها،
تبلل بلهاتها، تبلل بنظراتها المبللة، تفكيري حط (على حين غرة)
على مساحة فرح، خبرتي الحمالية ذكرتني بالأشياء الحميمة،
المؤنسة لقلب الفتيات اليافعات، البنات يشعرن بقيمتهن عندما
يلبسن الزينة، كل بنت تشعر انها كبرت، صارت هدفاً مغرباً
لفحل يتربص بها، فلسفة الأنثى الكونية، أعددت كل ما رأيت
مناسباً ومرغوباً، جزء لا يتجزأ من كينونة كل أنثى شرقية كما
تؤكد متن كتب تاريخنا الزاخر بالمجون.

فيما مضى من عمري، أو وعيي لم يخطر بذهني، أو يتحرك في
قلبي شيء، يجبرني أن أهتم، أو أسمح لعيني أن تتجاوزاً حدود
الرؤية العادلة، رؤية محرمة بالنسبة لي، رؤية أنثى تمشي من
أمامي، أو أتبعها أنا دافعاً عربتي لإيصال حاجياتها.

انطلقت، كلّي فرح، قلبي يرفرف، لساني لا أعرف أمن فرح،
أم من خوف يترنم، حتى السماء بدت باسمه، مشرقة بعدما قشعت
غيومها، ربما من أجلي فعلت تلك الآية الجليلة، السماء تبدو نشطة

بعد تفريغ دموعها، تبدو نقية كالبلور، سماء رقراقة، توافق مدهش يحصل كجزء لا يبد من تناسقه الكوني، ربما هو حظ مؤجل، بعد قرون من المتاعب والمآسي، أوقفت عربتي أمام البيوتات الصفيفية بعدما نجت من السيول الغاضبة، بسبب ألتصاقها بجدار حصين لمدرسة البلدة الوحيدة، بدأت بصوت خجول أنادي على ما وجدته جاذباً للفتيات، النساء، من أشياء ذات صلة بزينتهن، أمشاط تأتي مهريّة من مملكة (إيسان) ماسكات شعر، تشكيلات زاهية من قراريط، خرز، أوشحة، قلائد، روائح في زجاجات، جاءت البنت الصغيرة، تمشي على إيقاعات قلبي، ولهفة أنفاسي، تتبع حشد نساء سمراوات، فرحت لرؤيتها، حدجتني بنظرات ملؤها غزل وحنين، أشياء أنثوية أجهلها، لحظة صارت أمامي، ثبتت عينيها على عيني، رأيت بكل وضوح فرحاً أنثوياً ينمو في أعماق مآقيها، نسيت نفسي، تفرغت لها، لم أعر النسوة المثرثرات من حولي أذنأ صاغية، نحت عيني بلا خجل فيها، أتتفس ببراءتها، أزيح برد الشتاء المتراكم في عمودي الفقري، برد يوم المطر، يوم صارت بين أذرعِي، عمل منتج ومفرح في آن واحد، عمل سيوفر لي سعادة، مال، بعد سنوات من لهاث وكد، أبأ عن جد، حمأل ابن حمأل، خشيت ان ينتبه الحمألون لوظيفتي الجديدة، قلت مع نفسي، سيفيرون أيضاً عملهم، سينافسونني على مهنتي الجديدة، قلت مع نفسي، سينزلون أسعار الأشياء، ربما يسرقون البنت التي تبللت يوم المطر من أمام عيني، سيأخذونها من بين يدي، هذا العمل وفر لي مال متواصل، بعد

سنوات لهاث بلا كلل، أو ملل، أنقل الأشياء إلى بيوت الأغنياء،
بالكاد أسد أود نفسي، وأسد أجره عربتي المضاعفة، العربية
كبيرة الحجم، يسمونها (دبل) ..!!

* * *

جدّي العاشر معروف في ذاكرة كل من قطن مسكينتنا
(جلباء) يملك تاريخاً مشرقاً حافلاً بمغامرات ومواقف طريفة
لست بصدد التعكز على ذكرياتها، فقط أريدك أن تكتب
أسطورتى الشخصية، أنا أيضاً أريد أن أشتهر في زمن سيأتي فيما
بعد، لابد أنه آت، مثلما جاء الزمن الذي جعل من جدي أسطورة،
سيرة جدي يتمناها الكثير من الرجال، بعد عناء شاق وضيق حاد
وكفاح مرير، هكذا تقول بداية أسطورته، قرر في زمنه المقيت
جداً، زمن الجوع والأوبئة، قرر (على حين غرة) أن يوقف مكرهاً
زحف جوع فتك بخمس من أبنائه، بكل شجاعة سرق حفنة
أشجار، من بستان أحد باشاوات قرون الدكتاتوريات المتلاحقة،
أخذ إطارات غير مستهلكة من إحدى خاناته، عمل لنفسه عربية،
سرق بغلاً لضابط عثماني بعدما لكمه بقبضته الفولاذية، جعله
يتلوى ممرغاً داخل زريبة البغال، قبل شنقه وألقائه في النهر، تشير
الواقعة إنه خط بكبرياء إنسان (عراقي) محروم، مسلوب الأرزاق،
ذاق الهوان، أول برنامج حدثي في تاريخ عشيرتنا، قبل أن يقوم
جدي بفعلته، ويخرج عشيرتنا من مأزق الذل والهوان، الناس تعرف
عشيرتنا إمتازت بطول أزلامها، هياكل عملاقة نادرة، شوارب

طويلة معقوفة تتهدل على ثغور رجال عشيرتنا، أنا أسري قدماً مع نهج جدي، حمّال، لم أتفق مع شواريهم، كرهت الشوارب، رجال كثيرون يمتلكون شوارب، لكنهم فاقدى الغيرة، صارت شوارب اليوم للزينة، ترى أصحاب الشوارب يتربعون صدر مقهى البلدة، يجروّن (الأركيلة)، يداعبون شواريهم بأصابع خشنة، يتباهون بشواريهم، كلّما تمر أنثى أمامهم، تستفز غرائزهم، يتململون في كراسيهم، يداعبون شواريهم، يريدون جذب الأنثى لتتظر إليهم، ترى أبخرة تتلوى كأفاعي سكرانة، تغطي منطقة جلوسهم، أنا أحلق شواربي، أيام الجيش صنعت شوارب طويلة، نهرني الأمر، قال: الشوارب الطويلة هوية القوادين سماسة البغاء...!! الأمر قال ذلك، استحييت من كلام الجنود، اشترت موسى، قذفت الشوارب إلى جهنم وبئس المصير، أكتب هذا، لا تنسى، لا أريد أسطورة خالية من الحقائق.

في ذلك الزمان القحط وتواجد الاستعمار (العثماني)، افتخرت عشيرتنا بين العشائر المجالية، افتخرت بقربها من حكومة (الباب العالي)، هي بين أيديها، تحصل على مال وطعام، لا تعمل كثيراً، تحصل على ما يدفع عنها الجوع والمرض، رجال عشيرتي العمالقة، تراهم بشواريهم يقفون فخورين بباب الباشاوات، واقفون يداعبون شواريهم الطويلة، التاريخ يقول عنهم ذلك، حكايات تتوارثها الناس، يتكلمون عنها في مجالسهم، يحكون الحكاية لأولادهم في الليالي، رجال طوال، شوارب طويلة، مهنتهم لا تسر، يجب أن أذكرها في أسطورتى، يجب أن تنقلها يا كاتب، الأسطورة

أمانة، عليك أن تكتبها مثلما أحكيها، رجائنا الطوال مهنتهم الإعتناء بكلابهم، ببغالهم، كلاب الباشاوات، بغال الباشاوات، مقابل حفنة رز وحنطة، وأوقيات من سمن حيواني، صفائح دبس، أكياس تمر، تقول الحكاية، تمر فيه دود، يعطونهم بدلة لكل جنتلمان، بدلة في الشتاء، أخرى في الصيف، ملابس الشتاء تعطى صيفاً، ملابس الصيف تعطى شتاء، معظمها لا تناسب هياكل أزلام عشيرتي، لا يتجرأ أحد أن يطرح سؤالاً حول ذلك، الواجب الموقع عليه من الجانبين، لا يجوز الإخلال بينوده:

العمل بلا ملل، على اللسان أن ينسى إن لم نقل بيتر إزاء كل تعارض، أو مستجد منا في، للاتفاق المبرم بين الطرفين.]

فالوقت وقت قحط، وقت تفشي أمراض عصبية، رزق يأتي من قوم غزوا البلاد، لا يجوز التفريط به، لا أحد ينكر نعمة جاهزة، الواحد يبيع أغلى ما عنده من أجل ان يعيش حفنة أيام خاوية، عشيرتي من باب البقاء للأذكى، نافسوا العشائر المتقدمة لتلبية طلبات العثمانيين، فازت بسبب طول الشوارب، الحكاية تقول، عشيرتي لم تضع شوارب طويلة قبل تلك المهنة، واحد ذكي من عشيرتي إنتهى للعثمانيين، وجدهم يتباهون بشواربهم، أسر لشيخنا، تم تعميم الأمر السري للرجال الطوال، تقدموا وفازوا بمهنة المهن، فمن ينكر النعمة في ذلك الزمن مجنون.

* * *

جدي تعب، تقول الحكاية تعب، ناس تقول: طلب باشا النوم مع زوجته مقابل حفنة ليرات وسخة.ثار ثائرة جدي، أضممر شراً مستطيراً، رسم جريمته بدقة، أستغل الوقت الملائم، سرق أشجار من بستانه، قتل حماية الباشا، أطاح بشواربه، أتى إلى بلدة (جلبلاء)، ناس تقول، الضابط الذي شنقه جدي العاشر، وجده جدي يفتصب فتاة فقيرة، باغته وقتله، ثم رماه في النهر، أنا من هذا المنطلق خفت ان أضع شوارب، لا من قول الأمر، قلت سابقاً من قول الأمر، أقول أيضاً كي أشبه جدي أيضاً، عندما برز سبب حلاقة جدي لشواربه، حدوت حدوه، جاء البلدة، يمتلك عربية وبغل، الناس تجمعت، رجل غريب طويل القامة، يتربع على عربية يجرها بغل، معه امرأة جميلة، ناس استقبلوه بترحاب، ناس باستغراب منحوه قطعة أرض مجانية، ناس تقول: من أجل عيون امرأته الجميلة أعطوه الأرض..!! ناس تهمس بهذا الكلام، أنا لا دليل لي عن الحكاية، أصمت حين أسمع مقطع تكريمه بقطعة الأرض غير المحبب من اسطورة جدي، هكذا تقول الناس عنه، من يومها صار جدي العاشر حملاً، تقول روايات متداخلة، صار أغنى حمال عرفه البلد كما هو مدون في الكراريس التي تبحث عن تاريخ المدن الفقيرة، أو المنسية، صار فيما بعد السيد المطلق للمدينة، تقول أسطورته، عرف ظلم حاكم البلدية، هاجمه في السوق بمدية، نحره، هلت الناس، جاءت الشرطة، ساقته إلى السجن، تمكن من الخروج بعدما دفع مالا كثيراً لقاضي التحقيق، المال أخرجه من تحت المقصلة، خرج، زارته الناس،

كَبَرُوا فعلته الجسورة، تم اختياره رئيساً للمجلس المحلي للبلدة، عمل أعمال مفيدة للناس، دافع عن الفقراء، عمل لهم مساكن من طين، مساكنهم كانت صفائح، جدي لم يستمر كثيراً في مهنته، غادرها بعدما فقد ماله، ناس تقول: فقد ماله على نساء الأثرياء..!! نساء غير محتشمتا يذهبن إليه في غرفة قيادته، يختلي بهن لساعات طويلة، فقد ماله، وجد نفسه كائناً لا فائدة فيه، كراريس كثيرة كتبها مستشرقون، جاءوا يبحثون عن حكايات نادرة، الناس تقول حسب ما هو منقول من آباء عن أجداد، هناك من جلس مع جدي، حكى جدي له ما عمل في حياته، دوّنوا حكاياته، أخذوها إلى بلدانهم البعيدة، ناس تقول: المستشرقون حولوا حكاياته إلى أفلام سينمائية..!! صار جدي صاحب الكلمة المسموعة، بعدما قتل حاكم البلدة أمام أنظار الناس، ذلك الحاكم طغى وبغى، الناس تقول هذا، يمشي في السوق، الحاكم الظالم يأخذ ما يشتهي من البقالين والقصّابين، يأخذ ما يريد، لا يدفع نقوداً، يمشي في السوق، يجد فتاة حلوة، يناديها، يعطيها ورقة لتقابله، الفتاة تخاف أن لا تأخذ الورقة، تخاف على أبيها، كل فتاة لا تأخذ الورقة، أو تأخذ الورقة، لا تذهب إلى مقابلة الحاكم، يختفي أبوها، شرطة تأتي في الليل، يكممون فم والد الفتاة، يأخذونه إلى غياهب الظلمات، تتقدم الفتاة، تطلب متوسلة إطلاق سراح والدها مقابل مقابلتها له، يثور الحاكم، يشير لحمايته، يأخذون البنت، يتناوبون عليها، يدمرونها، يلقونها فضلة لا أحد يريد، عوائل كثيرة غادرت، قبل ان يقوم الحاكم

بإنتهاك أعراضها، طغى طغيان (فرعون) وأطغى، قبل أن يتفاجأ
بجمال امرأة فارعة، واسعة العينان، أرادها، ثار بعلها، لم يحتمل
البعل تلك الإهانة، وقبل أن يحل الليل، وتأتي شرطته لأخذها،
تغدى به قبل أن يتعشى الحاكم به، تقدم البعل الذي هو جدي يا
كاتب، استل مديته، طعن بطن الحاكم، شرطته لم تفعل شيئاً،
إندلق بطن الحاكم، خرجت أمعائه، خرجت أحشائه، حراسه
وقفوا مندهشين أمام حمّال غني، يحبه الناس، طويل القامة، قدّم
لكل شرطي قدراً من المال، أيام الأعياد والمناسبات الدينية، وقفوا
فاغرين أفواههم، وقع الحاكم على طين السوق، تجمع الناس
منذهلين، واضعين أكفهم على أفواههم، فرحون بما يرون، فناس
البلدة تكرهه، أذاقهم مر الهوان، أخذ شرف بنات صغيرات،
أكل اموال الناس، أشار جدي لشرطته، ذهبوا بخشوع تام،
تركوا سيدهم يلفظ روحه على الطين، لفظ روحه أمام الناس،
تقدم جدي من قاضي التحقيق، سلّم نفسه، ناس تقول: لو لم يسلم
نفسه لشنقوه..!! ناس تقول: هو رتب مع آخرين الجريمة..!!
حكايات تتضارب، كلّها تنتهي في مصب واحد، في أسطورة
جدي، من يومها صار جدي العاشر، مضرب الأمثال بين الحمّالين
إلى أبد الأبدين، كل من يرغب أن يبعث الهمة، النشاط، في قلب
ابنه الكسول، يسرد وقائع سيرته النادرة، سيرة رجل حمّال
كافح، جاهد، أنتقم، وصل كرسي رئاسة البلدة، ناس تقول: لو
استلم جدي كرسي رئاسة البلاد لقضى على الفساد، وأفرج
العباد..!! شهامته توزعت على أبناء البلدة، كرامته، أمواله،

حكاية نفاذ ماله لا صحة له، ناس تغار، تريد تشويه سمعته، ناس موثوقون قالوا: أعطى ماله للمحتاجين والمساكين. حكاية النسوة غير المحتشمات، ما هي إلا محاولات أغواء، محاولات باءت بالفشل، لم تتمكن أنثى اغواء جدي، زوجته نادرة، وجميلة، دافع عن حرمة شرفها (دفاع الطرواديين عن هيلانا)، هي تحبه، هو يحبها، طول قامته، سببت له مشاكل، قامته الفارعة، جذبت النسوة إلى غرفته، كلما يمشي في زقاق، امرأة تهمس لإمرأة، يخرجن، يقفن في الباب، يمتعن أغوارهن بقامة رجل يمشي أمامهن، رجل غير عادي، قتل ضابط عثماني، سرق من بستان الباشا ما أراد، بطولة نادرة تثير شهوة النساء، الطول مهم للرجل، الرجل الطويل محظوظ من جانب النساء، هن يعشقن الطول، المرأة تحب القامة الطويلة، امرأة الأمس، لا امرأة اليوم يا كاتب، امرأة اليوم تحب المال، لا تحب الجمال، المرأة تحب الطويل كي يرفعها، ترتاح حين يرفعها بعلمها الطويل، لا بد أن أشياءه الثمينة فارعة أيضاً، هاجس يتوارد لذهن كل أنثى تراقب رجلاً طويلاً يمشي، جدي شوها سمعته، ناس لا رحمة في قلوبهم، يحاربون النجاح، يحاربون أصحاب السمعة الواسعة، ناس لا تستحي، بعض الحمّالين الجدد، وضعوا ملصقات كبيرة، ملونة على عرياتهم، أخذوها شعارات جاذبة للمتبضعين، رسوم نفيتها، رسوم لا تمت للواقع بصلة، واقع لا يحتمل الإهانات الفائضة، أنكرتها بسبب التهويل الزائد لجدي، ليس من المعقول أن تقوم أيدي ماهرة، أيدي تجيد الرسم بدقة بالغة الأثر، أيدي وضعت لجدي أجنحة كبيرة،

أجنحة في وضع الطيران، وضعت مخالب نسور في لحظات إنقضااض على فريسة، وضعت رأس حصان كبير حجمه أكبر من الواقع، وضعت أجساد حيوانات خرافية، حيوانات عملاق رؤوسها رأس جدي، جسد طير كبير فارداً جناحيه منقذاً على أكوام أشياء رأس الطير رأس جدي، أفعى عملاقة فكّيتها تلقفان بناية البلدية كاملة، رأس الأفعى رأس جدي، صور غريبة، صور تعملق جدي أكبر مما هو، وجدت الصور والملصقات تشويهاً صارخاً لكرامته، بطولته، رسّامون وجدوا أسطورة جدي وسيلة مريحة، عملوا ملصقات حسب الطلب، الحاجة، تشظى خيالهم، رسموا رسومات فوق العادة، أنا لم أضع ملصقاً على عريتي، شجرتي الحمالية تكفلت مهمة إيجاد الزبائن لي، هيكلي مطلوب، أنا طويل، طولي غير طبيعي، ناس تهمس سرّاً وراءي (طنطل) تقول: جاء الطنطل، راح الطنطل..!! كلام غير مؤدب وصلني من صغار يصيحون وراءي، كلّمّا أمشي في الأزقة، قوّتي معروفة، قوّة بغل أو حمار (حيساوي) كما يحلو لصاحبي العاقل أن يصف قوتي، صاحبي الذي نصحني، وجهني إليك كي تكتب اسطورتي يا ولد يا كاتب، يصف قوتي بلا إحراج، يقول للزبائن: خذوا (الحيساوي) وحده يتحمل حمولتكم..!! أتبع الزبائن، أحمل ما يجلبوه من القرى، محاصيل في أكياس كبيرة، فلاّحون يتقشفون، يستعملون كيس كبير بدل ثلاثة أكياس، الكيس الواحد عليه تذكرة في عربة القطار، الأكياس الثلاثة عليها ثلاث تذاكر، قوّتي النادرة، طولي (العنتيكة) بالمناسبة، امرأة دلالة

ظلت تتاديني، أبو طول (العنتيكة)، تأتي كل جمعة، تنزل من القطار، تحمل معها قدور اللبن الرائب، قدور كثيرة، تتاديني: أبو طول العنتيكة.. أبو طول العنتيكة..!! أسمعها، بالمناسبة، صرت أنتظرها، صارت زبونة لي، ذات يوم مشينا معاً، نقلت قدورها الفارغة من السوق إلى المحطة، قالت لي: لماذا لا تتزوجني..!! أوقفت العربية، نظرت إليها، أطلقت ضحكة عاهرة، ضحكة طويلة، صريحة الشهوة (هاهاهاهاهاها)، قالت: لماذا تقف، أمشي..!! (هاهاهاهاهاها)، دفعت العربية، قالت مرة أخرى: اتدري لماذا اريدك زوجاً..!! (هاهاهاهاهاها) أكتفيت بالنظر إليها، اسفل بطني توتر الكائن الشريف، قالت: يقولون كائن الطويل مرعب ومخيف..!! (هاهاهاهاهاها)، الكائن كاد أن يلقي بشرفه في المحطة، تعرقت، بدأت اقدمي تتدافع، قالت: الطويل يقولون يخاف من النساء..!! (هاهاهاهاهاها)، وصلنا العربات، القطار مغادر، وقفت تتدب حظها، قالت أين انام هذه الليلة..!! (يابووووو) لم أمتلك جواباً، جسدي مستفز، كائني يتحمس، نار تأكل أحشائي، قالت: سأنام معك في بيتك..!! تحرر لساني، تحرك من بعد جمود، قلت للدلالة، بالمناسبة هي ليست دلالة، أنا سميتها دلالة، شاهدتها تشتري بالات (اللكة) أحملها لها، تأخذها إلى القرى لتبيعها للنساء المحرومات من رؤية البلدة، هي تبيع اللبن، القيمر، الحليب، البيض، تجلب فرايج صغيرة أيضاً لتبيعها، قلت لها: ليس لدي بيت يا خالة..!! قالت: وهل تنام فوق المزابيل. قلت لها: أنام في غرفة (مراحيض). قالت: لمراحيض يكفي اثنين..!! جاء

حمّال صديق، إقترب منّا، قال: ها خالة بقيتي هنا..!! قالت له: أبو طول (العنتيكة) أخرنى..!! قال لها: تعالي معي إلى البيت، قالت له: أين أذهب، أنا مجبورة أن أأتي معك إلى البيت..!! رفع الحمّال الصديق حاجياتها، وضعها في عربته، للحق أقول نسيت أن أأخذ أجرتي منها، كائني المتحمس شغلني، الهب كياني بحمّي لذيدة، غمزتني الدلالة، قالت وهي تتبع الحمّال الصديق: (طنطل) ما (بيك) خير..!! بعد أسبوع رأيتها تهبط من عربة القطار، هرولت نحوها، قالت لي: لا..لا..لا ترفع أشياءي، سيأتي صاحبك..!! جاء صاحبي، أخذ زيونتي، انا خسرت زيونة، مقابل كنز ثمين أبقيته خارج الحياة، خارج اللعبة البشرية القذرة، لعبة السقوط بين مخالب شيطان المتع، فيما بعد، سمعت إن صاحبي الحمّال، وضع نفسه بين مخالب الشيطان، سمعته يسرد للحمّالين مواقعاته النهارية والليلية معها، بعدما صارت تلك المرأة تؤخر نفسها أيام المجيء إلى البلدة، بدأت تجيء دائماً، ليس فقط أيام الجمع، المرأة إختفت، سمعت أن صاحبي الحمّال جمع الحمّالين ذات ليلة على المرأة، سمعت انها رفضت أن تتعاطى اللذة مع تسعة حمّالين، قام أحدهم، أخذها بقوة، بعضهم قال: وضعوا لها في الماء حبوب منوم..!! بعضهم قال: صاحبي الحمّال بعدما جردها من ثيابها، نال حصته، اخذ ملابسها، وتركها مثلما خلقت، دخل عليها آخر، نال حصته، ثم جاء ثالث، إنتبهت المرأة لرائحة مؤامرة لا تنتهي، أرادت تصرخ، فشل الحمّالون من تطويعها، أخذوها بعدما كمّموا فمها، من يومها إختفت المرأة التي أسميتها دلالة..!!

بلدتنا صارت تغص بالحمّالين بعدما نشطت التجارة، سقوط
البلاد فتح آفاق واسعة للتهريب، كل ممتلكات البلاد صارت،
ترجع من حيث جلبت، جاءت بعرق الجبين، أكداً الدولارات،
رجعت بثمن بخس، مهريون جدد، يريدون حياة واسعة، يريدون
مركبات (منيفيست) يريدون تعويض خسارتهم الماضية، يهبون،
يبيعون، ناس تبيع لناس، سلاسل مهريون، ناس تسرق الدوائر،
مخلفات العسكر، تبيعها لسماسة أكبر حجماً، سماسة تبيعها
لبلدان الجوار، ناس تقطع الدبابات المتروكة، دبابات جديدة لم
تقاوم الإحتلال، ناس تقطع الجسور إلى قطع صغيرة سهلة الحمل،
النقل، ناس تقول: بلدان الجوار ماذا تفعل بالمخلفات..!! ناس تقول:
تريد الإنتقام من ناس بلادنا..!! ناس تقول: بلدان الجوار تريد تفرغ
بلادنا من كل شيء قديم، كي تبيعنا أشياءها الجديدة..!! أكتب
هذا أرجوك، أكتبها، لا تخف إن لم تكتبها أنت خائن الأمانة،
يا كاتب أكتب ما أحكيه لك، حكايات اليوم مطلوبة، التاريخ
يحتاج من ينطقها، أنت تكتب التاريخ، أنت أمام محكمة
صارمة، أنت تكتب أسطورة، تعامل بدقة، بمصداقية أرجوك، لا
تتبع حشد الكاذبين الخائفين المتملقين الطبّالين، نافخوا الأبواق،
الباحثون عن الولائم، والتباهي الفارغ، هؤلاء رفعوا عقيرتهم مثل
كلاب ضالة وجائعة، هم حشد رعا، ولّوا مع المولّين، فروا، مثل
الكلاب، وضعوا أذنانهم بين سيقانهم، هربوا، لا مكان للكذب
في يومنا هذا، مضى زمن الكلاب يا كاتب، استل قلم الصدق،
افرش ورق الحياة، اذرف دم الغيرة، أسكب دمع التحدي، ستغدو

أسطورتك إلى جانب أسطورتني، ستقول الناس عنك: يا له من كاتب شجاع..!! ناس تقول: شبيه الحمّال الذي هو جدي..!! أكتب ما أقصّه عليك.

* * *

بعدما صارت التجارة حرة، لا قيد، لا ضرائب، وجد الرجال فرصة مثالية للثراء، من يروم أن يغدو مثل جدي غنياً، يكتري عربية لابنه، يدفعه صوب السوق كي يجلب في آخر النهار حفنة دراهم، ضاق السوق بالعربيات، صرنا مثل طوابير الذباب، نلهث خلف كل من نراه يقف أمام دكان، نلهث، نقف مثل كلاب تنتظر رمية عظيمة، كسرة خبز، ننتظر، الزيتون يساوم على كل حاجة، البائع يهبط السعر له، ينسحب الزيتون، البائع يحاول أن يرجعه: تعال خذه بسعره.. تعال.. تعال .. تعال.....ال خذه بأقل من قيمته.الزيتون صار في محل آخر، نتقدم وراء الزيتون، خطوات آخر، تمر الدقائق، ثقيلة، مملة، الثغور تبتهل، تتوسل أن يشتري الزيتون حاجة، الشمس صارت فوق الهامة، صارت جحيم، تصب أشعتها، عمودية، متوغلة إلى المخ، حمّالون ينسحبون، حمّالون يتابعون اللهاث، يريدون قيمة أجرة العربية، الزيتون يغادر، زبائن تأتي، زبائن تمضي، وصل بالبعض منّا أن يتنازل إلى أوطأ عملة، بغية أن يحصل على أقل تقدير أجرة العربية، إذ نص قانون جديد سنّه وافد مسلّح إلى البلدة، رجل مربوع، كرشه يتدعبل أمامه، يتبعه حراس غلاظ، سنّ قوانين يومية، غير خارطة الشوارع، ناس تمشي مسافات طويلة كي تصل إلى بيوتها، وضع

مطبات كونكريتية، حواجز خرسانية، جاء بأسلاك شائكة، منع السير في معظم الطرقات، رجل لا يتهاون، يرفض السلام، يمشي، أمامه طابور حماية، يمشي وراءه طابور حماية، حماية كبيرة، حماية عن يمينه، حماية عن شماله، سنّ قانوناً ضد مهنتنا، نقل شرطي كلامه للحمّالين، للحق أقول، أنا لم أسمع، صديقي الحمّال قال لي ما قاله الشرطي لهم، قال: قال الشرطي لنا: (الأستاذ) يقول ممنوع عربات تسير في البلدة. قلت لصاحبي: هم يفخون المركبات، لا أحد يفخ العربات. صاحبي قال: نسميك (الفيلفوس) أين (فيلفوس) مخك يا (عنتيكة) ..!! قلت: أخبرني يا (فهيم) ..!! قال: طرقة جديدة يا (عنتيكة)، ناس تعرف كيف تسرق جيوبنا، (الأستاذ) خصص غرفة من إدارة البلدة، جعلها جمعية للحمّالين، سيشتري عرباتنا بفلسين ويؤجرها لنا بدنانير ..!! ناس فرحت بالسقوط، ناس ترقبت الأمور بحذر، ناس مشت على أهواها، ناس هجست بخسران ميين، إختلط الحابل بالنابل، إختلط الجميل بالقبيح، الحمّالون باعوا عرباتهم، أنا لم ابعها، قمت بتحويلها، دفعت لنجار مبلغاً من المال، قام بتحويل عربتي إلى عربة عالية، عربة بيع حاجيات نسائية، تخلصت من مخالف نقابة مستقلة تدافع عن كيان الحمّالين كما قال الشرطي لطابور الحمّالين، بنى الحاكم المربوع خاناً، راح يحرق تراخيص خاصة بالمهنة، تم إضافة بند إلى قانون العقوبات سارية المفعول من قبل حاكم البلدة الجديد:

- ايعاقب كل من له عربة ملك بالحبس لمدة ثلاث سنوات مع

الأشغال الشاقة ..!!

تصور حبس الحمّالين بلا جريرة، تصور يا كاتب، المجرم لا أحد يسجنه، هم يخافون من المجرمين، ناس تقول: (المسؤولين) يخافون على حياتهم..!! التّأمين على الحياة لم تعد المصارف ودائرة الضمانات تؤمنه للمسؤولين، الفئات المسلحة، هي التي تقوم بحماية من يروم التّأمين على حياته، ناس تقول: (مسلحون) هددوا من يتابعهم..!! تراهم يصلون ويجولون في السوق، يبحثون عن ضحايا جدد، ثلاث سنوات سجن سيقضي كل حمّال عربيته غير خاضعة لنقابة الحمّالين، سيصادر عربته، الشرطي قال ذلك للحمّالين يوم جمعهم أمام مبنى إدارة البلدة، أكد على مدة السجن، ثلاث سنوات، بالتمام من غير إفراج شرطي، الحمّالون خافوا على أرواحهم، قالوا: الحاكم الجديد عديم الرحمة، يفعلها وهو غير نادم على ما يفعل..!! كلام تهامس به الحمّالون فيما بينهم، الشرطي قال أيضاً: بعد خروج الحمّال من السجن لا يسمح له العمل حمّالاً..!! قال أيضاً: ستسحب منه هوية نقابة الحمّالين..!! ناس تقول: تخلصنا من حرامي واحد، وجدنا جيش حرامية في أنتظارنا..!! ناس تقول ذلك علناً.

* * *

تآلفنا أنا والبنّت الصغيرة، صرنا نلتقي صباحاً ومساءً، أذهب إليها، يدفعني هاجس ما، تدفعني رغبة لا ترحم، الرغبة تدفعني، أنا أدفع عربتي بقوة الرغبة التي تدفعني، إليها اذهب، هناك في تلك الرقعة المهملة، البراءة، الفطرة، الحب، العالم ينشغل بالتصدع

السياسي، بالتصدع الإجتماعي، بالتصدع الأخلاقي، فقط في الرقعة المهملة، ناس تقيم حضارتها الكونية، تقيم إحتفالات في عالم يتأحر، أذهب، أقولها بصراحة، من غير لطف أو دوران، منذ أقلقني الهاجس، هاجس الحمى الغريبة في جسدي، قررت دفع مهنة الجد العاشر (الحمالة) وراء ظهري، مهنة الجد والأب، كرهت أن أنضوي تحت مسميات (نهبية) أكثر مما هي مسميات نفعية، كرهت التجمعات، النقابات، تركت زبائني، قلت مع نفسي، خرج جدي من مهنة، أقتحم مهنة أخرى، فتحت له آفاق الدنيا، أنا أريد أن أحذو حذو جدي، أريد برنامجاً جديداً، التجديد مطلب دنيوي، التغيير يعطي البشرية دوافع جديدة للديمومة، فالتبدل ليس مطلب كل فرد طبعاً، أيها الولد الكاتب، ليس كل إنسان له مخ كبير، أو شهادة تعليمية نادرة، له مطلب التجديد، صفة البشر التقليد، كل جيل يمشي على خطى الجيل الذي سبقه، الناس تقلد بعضها، امرأة تلبس ثوباً جديداً، نساء الزقاق يقلدن، فتاة تقص شعرها، تظهر في شاشة التلفاز، بناتنا يقلدن قصتها، تسريحتها، أمخاخنا متحجرة، أمخاخنا لا تفكر، لا تتفلسف من سكك الروتين، الكسل، على المخ أن يجلس في حضرة التفكير، أن يحاول قراءة الظواهر الحاضرة، يحاول إكتشاف ما ينفع، ما يفيد الآخرين، ليس كل فرد، ليس كل شخص يستطيع أن يجدد، فقط أصحاب الأحلام الواسعة، أصحاب الجرأة الكبيرة، الجرأة والحلم يدفعان المرء صوب تجريب حظه فيغامر، هناك تتوفر فرص التجديد، فرص

دافعة لزخم الحياة، لذلك وجدت نفسي في حالة جديدة، رغبة،
جرأة، أريد تبديل مهنتي، تدارست الأمر، ناقشت القضية الحاسمة
مع نفسي، تحوطت من كل جانب، جانب المفاجئات، عواقب
الأمر، أنا لست مثل جدي، هو قتل وتخلص من عارض سبيله، أنا
ليس بوسعي قتل ذبابة تطن في وجهي، حتى البعوض القارص،
أتركه يأخذ ما يشتهي من دم من سحنتي، أقول للبعوض، أقول
للذباب، دمي فقير، خالي من البروتينات والفايتامينات، أقول وقت
جدي ليس وقتي، زمانه يختلف عن زماني، وقته وقت، وقتي وقت
آخر، زماني زمان، زمانه زمان، ناقشت الأمر مع نفسي، هل
بوسعي قتل من يريد سرقة زوجتي، فعل جدي ذلك مرتين، هل
بأمكنني أن أستل مديّة، ثم أنا لا أحبذ المديّة، اكرهها، المديّة
آلة غدر وخيانة، تؤرقني رؤيتها، سمعت أن هناك شعوباً تتباهى
بالمديّة، رجل بلا مديّة رجل عقيم، لا رجولة له، لا أحد يعطيه
امرأة، مختصر مفيد أيها الكاتب، من لا مديّة له لا حيلة له، لا
قوة له، تلك هي فلسفة شعوب تجد المديّة رمز عزتها، عنوان
كرامتها، لكل شعب إنعاجة تاريخية مهولة، شعوب تحب
الشوارب الطويلة، شعوب تتباهى باللحى، شعوب تلبس القبعات،
شعوب جديدة تفكر بالعودة إلى الحياة الأولى، أعني حياة
الكهوف والغابات، بدأت تؤسس جمعيات كي تجد لنفسها وطناً
بعيدا، خالي من أتكيت الحياة، لا كهرياء، لا ماء قادم بالتقطير
المكلف عبر الأنابيب، حياة عارية تماماً، يتغذون على الأعشاب
والفواكه، يعملون النيران بتقديح حجر على حجر، يتعايشون عراة

في غابات، أمكنة نائية عن أورام الحياة.

لا تستغرب من شعوب تابعة لنا، الكبار والصغار، يتسلحون بالمدى، مدى معقوفة، مطرزة بالذهب والمنمنمات الملونة، في الأسواق، في المقاهي، يرفعون أبوازهم، بيرزون مداهم، عجائب، مصائب، الدنيا غريبة يا كاتب، ثم أنا لا أملك مدية، الناس تملك أسلحة، سرقوا أسلحة الجيش، أسلحة الدوائر كلها، الناس نهبت أسلحة الجيش الخفيفة والثقيلة، الثقيلة قصصوها إلى قطع صغيرة وباعوها إلى دول الجوار، جلبوا آلات قطع تعمل بالغاز، حوّلوا هياكل عملاقة إلى خردوات، الأسلحة الخفيفة تاجروا بها، باعوها لناس تأتي من القرى، تشتري أسلحة، ناس تقول: القرى لماذا تشتري كل هذه الأسلحة..!! الناس ترى: القرى بحاجة إلى الأسلحة، يخافون من هبوط الذئاب إليهم بعدما ترك الجيش الحدود..!! ناس تقول: في الأمر (إنّة) ..!! ناس تقول: أهل القرى تتوقع تفاقم الأمور السياسية في البلاد في القريب العاجل..!! أنت تعرف ما أعني يا كاتب، أكتب ما أقوله، حرفياً، لا تغيير في ما أقول، لن أمنحك تصريحاً، أو تخويلاً، بتبديل مفردة واحدة، أنا أروي، أنت فقط ناقل حكاية، حكاية هي حكايتي أنا.

* * *

كل الناس تقريباً حصلت على أسلحة نارية، انا بقيت واقفاً أنظر إلى أرتال الناس تركض باتجاه المعسكر الكبير، تركض صوب الدوائر الحكومية، خرجوا مع الفجر، قبل طلوع الشمس، ناس

تستحي من ناس، ناس تريد تسرق دون أن تراهم ناس، ترجع مركبات الحمل مثقلة بكل شيء، أشياء تنفع، أشياء لا تنفع، ناس ترجع حاملة أسلحة، أسلحة كثيرة، رجل يسجل عشرات البنادق مربوطة بحبل، تقلت بندقية من الحبل، تقلت أخرى، الرجل لا يعير نزيه حمولته أهمية، الحمولة كثيرة، تنقص، لا تنقص، سواء بسواء، نساء من فوق أسطح منازلهن، يشاهدن ناس تسرق ممتلكات بلدها، رجل يسحب مدفعا رشاشا، مدفع يتكئ على أربع إطارات، (مدفع لا يبدو عليه أنه قاوم الإحتلال)، مدفع مزيت، فوهته مكمومة بكيس أخضر (سر مهر) لا يبدو عليه أنه أطلق قذائف على طائرات أثقلت أرض البلاد بالقنابل، الرجل يسمع صوت رجل واقف ينظر بحيرة، يقف ويده على حاجبي عينيه، يده الأخرى تعصر عصا معقوفة (عوجيته) يعصرها كي يتماسك، يحافظ على وقفته، يحاول أن يلم بما يجري على أكمل وجه:

- ماذا تعمل بهذا المدفع يا رجل.

الرجل الذي يسجل المدفع الرشاش يصيح:

- سأضعه أمام منزلي تذكرك السقوط.

يرده الرجل الواقف:

- أسمعنا دويه وقت الإفطار في رمضان، سماعات الجامع لا

تعمل.

الرجل الذي يسجل المدفع صار بعيداً، صار سعيداً بما يسجل،

صار على مرمى حجر من بيته، منظره منظر بغل يسحب عربة.

طفل يدحرج إطار مركبة، إطار مركبة كبيرة، الإطار أعلى

من الطفل:

- ولك شيطان كيف دحرجت هذا التاير.

صوت امرأة واقفة في الباب، تراقب الإحتفال الكوني للنهب والسلب، ولد يحمل على كتفه كرتون، الكرتون ليس كبيراً، يقف، لسانه يخرج لاهتاً، ينزل الكرتون من على كتفه، تعب شديد يهده، الولد يفتح الكرتون، يفرغ نصفه، ست علب من معجون الطماطم، ستة يكفيه هذا ما فكر به، يمشي خطوات، يتوقف الولد، يرمي بنصف ما تبقى من علب معجون الطماطم، صار يحتضن ثلاث علب معجون طماطم، يمشي خطوات يتوقف، يناقش الموضوع مع نفسه، موضوع السلب والنهب.. (أنا لم أنهب - يقول ذلك مع نفسه - أنا لست لصاً) كلام آخر يضيفه لما قال، شمس قاسية فوق رأسه، يرمي علبة معجون طماطم، يرميها على الرصيف، يمسح عرق جبينه بكمي قميصه، الولد يمشي، علبة المعجون تتدحرج وراءه، تستقر منتصف الشارع، صوت امرأة من يمينه، يتوقف الولد:

- (خطية) حرامي فقير.

الولد لم يحتمل الإهانة، لا يلتفت لصاحبة الصوت.. يصرخ:
- أنا لست حرامياً يا خالة، ليس لدينا معجون طماطم في البيت، لا يوجد معجون طماطم في السوق، شهران لم يدخل بيتي معجون طماطم، جلبت علبتين لزوجتي، أشتهينا تشريب باميا، أنا لست حرامياً، يا خالة..!!

الولد يمشي، المرأة تهز رأسها، صبي صغير يحمل ناظور دبابة، ناظور أثقل من ثقل الولد، ينوء بحمله الثقيل، لاهتاً يجرجر

قدميه، يركض فرحاناً بما جلب، يباغته أبوه:

- يا كلب الناس تحمل ذهب، أنت تحمل حديد.

الولد الصغير يرمي ناظور الدبابة، يرميها في الشارع، منتصف
الشارع، يستدير، يبدأ الركض بإتجاه المعسكر، صوت من
خلفه:

- (ولك) أركض اسرع المعسكر سيفرغ.

نساء يلهثن، واحدة تحمل كيس تمن، واحدة تحمل صفيحة
دهن، واحدة تحمل كدس خشب، واحدة تنوء تحت جبل
(بطانيات) عسكرية، النساء فرحات بما يحملن، نساء يلهثن
صوب المعسكر الكبير، نساء يلهثن صوب البيت، يسرعن لألقاء
حمولتهن والعودة لمشوار جديد.

بنت صغيرة تبكي، تمشي، تتلفت يمناً، يسرة، تصل باب
مغلق، تطرق الباب، لا أحد في البيت، أمها في المعسكر، أبوها في
المعسكر، أخوتها في المعسكر، أخواتها في المعسكر، هناك
يحتفلون مع الناس بأعياد التحرير، أعياد النور القادم بالنار
والحديد، بلاد تتصدع، أخلاق تموع، شرف يترجل، الناس تحتفل
نهياً، سلباً، تدميراً، البنت تجلس أمام الباب، تبكي بحرقة،
تناديها امرأة مسنة:

- لما تبكين يا بنت.

البنت الصغيرة لا تتكلم، تواصل نشيج الألم، نشيج إنسانة
أسقطها السقوط، السقوط الذي سمّوه تغيير، سمّوه حرية، حرية
التعبير، ناس تقول: حرية تدمير..!! ناس تقول: حرية تهجير، تغيير..

تعمير..!! لا أحد يفهم هذه الحمى، هذه الفلونزا الجامحة، البنت الصغيرة ترتعد، تفقد مع كل قطرة دمع حزمة مشرقة من رونق وجهها، تتقدم منها المرأة المسنة، تمسك يدها، البنت ترتعد، المرأة المسنة تقول للبنت الصغيرة:
- أسكتي لماذا تبكين.

البنت تكاد تتخلع روحها عن جسدها، لا تتكلم، المرأة المسنة تقول للبنت الصغيرة:
- ما هذا الدم على ثوبك.
البنت تبكي، تقول لها المرأة المسنة:
- من فعل بك هذا.

تتوقف البنت الصغيرة عن البكاء، تدخلها المنزل، تشرىها الماء، البنت تسكت، تكرر المرأة المسنة نفس السؤال، البنت تجاوب هذه المرة:

- هو طرحني في غرفة على الأرض في المعسكر ونام فوقي.
المرأة المسنة تقول للبنت الصغيرة:
- تعرفينه.

البنت تتردد، المرأة المسنة تصرخ فيها:
- تعرفينه.

البنت الصغيرة تتشجع:
- هو..هو..هو.

المرأة المسنة تقول:
- هو من يا بنت!

البنّت تتحت عينيها في عيني المرأة المسنّة، بصوت مذبوح تقول:
- أبّنك.

المرأة المسنّة تتدارك ما عمل ابنها بنّت الجيران، تاخذ البنّت الصغيرة إلى الحمّام، تغسل الدم العالق بثوبها، تعطّيها حلوى و(الف دينار)، البنّت الصغيرة تتردد، المرأة المسنّة تقول للبنّت الصغيرة:

- لا تقولي لأهلك، سيذبحونك بالسكين.

البنّت الصغيرة تهز رأسها، تخرج البنّت الصغيرة، بيدها (الف دينار)، تهرع إلى بائع المرطبات.

جوقة صبيان يمرقون، يدفع كل صبي إطار مركبة كبيرة، إطارات تتدحرج رتلاً، من الأمام يخال أنها تتدحرج فرحاً، إطارات تحتفل بأعياد النور، الصبيان أصغر قامة من الإطارات، رتلاً.. رتلاً.. فرادى.. فرادى، تتدحرج إطارات ظلّت راقدة في مذاخر الجيش.

اصوات طلقات تنطلق من منازل فرحانة، مركبات تهرب باتجاه وسط البلاد، ناس تقول: سوف نرى مذابح علنية في الشوارع والأزقة..!! ناس تقول: لا توجد مذابح، رجال الحاكم هربوا من البلدة مع ذويهم..!! مركبات تأتي من المعسكر حاملة أجهزة كهربائية حديثة، (ناس لا تستحي - تصيح امرأة - تسرق بلدها وهي فرحانة)، أنا بقيت واقفاً على الشارع الوحيد للبلدة، أراقب ما يحصل، قلت المشهد يستحق الوقوف من أجله، لم أذهب إلى المعسكر كما ذهب الناس، رأيت أسلحة مرمية في الشوارع، ذخائر حيّة متنوعة، علب كاملة، رصاصات متناثرة، رصاص بنادق، رصاص تنوير، رصاص

مسدسات، لم أسمح لنفسني مس شيء لا يعود لي، ليس لي سلاح، ليس لدي مدية، كيف أدافع مثلما دافع جدي عن حرمة شرفه، لا شيء أمتلك كي أدافع به عن كرامتي، لو تعرض لي عارض طارئ، كلام تدارسته جيداً، لم أخرج بنتيجة تقنعي، تركت الأمر جانباً، قلت جدي ترك مهنته، ساترك مهنتي أيضاً، تركت مهنة الحمالة بعد عمر لا يستهان به، يوبيل فضي، أو ذهبي، لم أحتفل بسنوات الخدمة، لا أبحث عن أمجاد زائفة، أنا أبحث عن لقمة عيش، مع رغبتني أن أغدو مثل جدي مشهوراً.

* * *

وجدت بيع الأشياء النسائية فيه منافع ومكاسب، تعلمت الجراءة، تعلمت الكلام، تعلمت تركيز عيني في عيني أنثى بلا رجفة قلب، بلا رعشة جسد، وجدت النساء كائنات عادية، مخلوقات ضعيفة، يجهلها الرجال، ليس كل الرجال طبعاً، تعاملهن سهل، إقناعهن أسهل، يحبين المدح، التناقش، يشعرن بقيمتن حين يقفن أمام الفحول، الفحل يخاف المرأة، المرأة لا تخاف الفحل، جراءة الفحل قليلة، جراءة فأر أمام قط، جراءة المرأة أمام الفحل، جراءة قط أمام فأر، كفتان لا تتعادلان، فقط الفراش يجمع الجراتان، يقسمها إلى كفتين متعادلتين، يجمع الفحل والمرأة معاً، ينسيان العالم، ينسيان كل شيء، يغدوان حيوانين في لحظة سفاذ، صرت أمتلك بصيص جراءة، جراءة تكفيني، صرت لا أتورع من قرص هذه ودفع تلك، تلتصق واحدة

بي، تتحایل، تجعل نفسها لا تدري، تقرب ردفها من فخذي، ردي في
المرأة ناعمة، ملتبهة، ساخنة، تكهرب جسدي، كائني يريد أن
يصرخ، لو يملك كائني لساناً فصيحاً، لصاح من فرط التوتر،
عصبي جداً، لا يركن لنوم كلما أقف بين الفجريات، يقف، راية
في لحظة خفقان، يهتز، يرتعش، ترتجف عروقي، العيون منحوتة
في، لا أعرف هل راقب ما يجري من غليان تحت بطني، عيونهن
تقول: أنت مفضوح يا حمّال..!! كل شيء يصرخ بفضيحتك يا
حمّال، أقول مع نفسي، صرت أشعر بسائل يندلق من الكائن،
خلته بيكي على حظه التعيس، يذرف دموع الحرمان، تعلم لغة
البكاء، بيكي، يخلد للنوم، أشعر بلذة نادرة، شجعتني اللذة
على مناقشتهن، على مكاتفتهن، يتدافعن، يلتصقن بي، تعلمت
اللعبة، صرت أقف في مساحات تؤهلهن أن يقتربن ليلتصقن بي،
لصاق الأنثى بالفحل سعادة بشرية لا تنتهي، الفحل لا يعيش بلا
أنثى تلتصق به، الفحل سمكة، الأنثى ماء، وجدت نفسي منجذباً
إليها، أنجذب إلى البنت الصغيرة، كائني نائم، بكى ونام،
تخلص من دموع التوتر، ذبل في منامه، صرت أنحت عيني فيها،
البنت الصغيرة التي بكت يوم البرق والرعد والمطر، تحدق بذهول
في، تفتح فمها الحلو، تنظر إلي، افتح أنا فمي، أنظر إليها،
تبادل النظرات، فتح الفمّين، لعبة حياة، أمل، عالم في لحظة
تكوين، تعلمت فن إختراق العالم الممتع، الواسع، المخيف، النساء
الشابات غير مجربات، يشعرن بخجل بادئ ذي بدء، يتكيفن
بيسر، حين تصف جمالهن، يفرحن، يرغبن إلقاء أنفسهن في

حضنك، مختصر مفيد، تعلمت كيف أفك مغاليق قلوبهن، كيف أقتربت منهن كي يقرصنني، يريتن على ظهري، زاد الطين بله، تجرأت واحدة منهن، امرأة تمتلك جرأة نادرة، امرأة في منتصف الأربعين، تقديري أنا، امرأة لا تتجاوز حدود منتصف الأربعين، راحت تمد يدها إلى أسفل بطني، من غير استحياء تداعب كائني الثمين، المتوتر دائماً، بعدما تداعبه، تشعر ان كائني نام، قذف دمه ونام، تسحب يدها، تنظر إلي، تفتح فمها، تعرف ماذا حصل، خبيرة، مجربة، قالت مرة في اذني، قالت بهمس ناعم، ناعس:

- يا له من ولد يستحق التدليل.

أنا فهمت الكلمة هكذا، ربما هي قالت:

- يا له من ولد يستحق التدليك.

لا فرق بين التدليك والتدليل، لا يهمني ما قالت، في البدء لم أفهم مقصدها، خلت القضية محض مصادفة، تحايلت في البدء، أسقطت حاجة إلى الأرض، انحنت، البنات مشغولات، بتقليب وتجريب الحاجيات، واحدة تلبس الشال، واحدة تنظر إلى نفسها في المرأة، تمشط، واحدة تشد خصرها بحزام، واحدة تلبس الحلي الكاذب، واحدة تجرب أنواع العطور، أنفها لا يستقر على عطر معين، كل واحدة منشغلة مع نفسها، المرأة التي انحنت، فجأة شعرت بيدها تمسك الكائن، خشيت ان أتحرك، صرت في موقف محرج، قلت أي حركة مني فضيحة، ظلّت تعصر الكائن، يدها بلا رحمة تعجن أو تعصر، لا فرق بين العصر والعجن، العجن

عصر واسترخاء، كذلك العصر، كدت اصرخ لعصراتها القاسية، قذف كائني دموعه من فرط العصر، خلد للسكون، قامت المرأة من إحنائها، نحتت نظرها في..قالت:

- يستحق التدليل.

أو قالت:

- يستحق التدليك.

مرة قالت:

- تعال في الليل.

أنا لم أذهب، في الليل لا أخرج، في الليل (حظر تجوال)، البلدة غير آمنة، المجرمون يحومون في الليل، يأخذون من يجدوه في الليل. المرأة قالت لي مرة:

- لم لم تجيء، أنتظرتك كثيراً.

تميل رأسها، تكرر دعوتها لي بالخروج ليلاً، والمجيء إلى حي الفجر.قالت مرة:

- دلني على بيتك.

لم أسلم مشيئتي لها، دافعت بصمت عن نفسي، كنت أبغي البنت الصغيرة، هي مبتغاي، قطرات ماء زلال في قيظ صيف شاوي.

واحدة أخرى، امرأة شابة، امرأة لها صلة بالمرأة التي عصرت كائني، دائماً يتها مسن، يمشين معاً، فعلت ما فعلت المرأة التي عصرت كائني، أسقطت مشطاً من يدها، أنحنت، صارت أسفل العربية، ضربة مباغته، شيء لاسع، شعرت برجفة تقفزني، يد

ناعمة (سطر) كائني الواقف، البنات ضحكن، تراقصت أجسادهن اللدنة، ووضعن أيديهن على ثغورهن، ضحكن، حاولن بأيديهن أن يكتمن جرس ضحكاتهن، بأيديهن الناعمة، منعن ضحكاتهن أن تتطاير إلى منازلهن، منازلهن صفيحية، تمتد على طول سياج مدرسة البلدة الوحيدة، عيونهن واسعات، كحيلات، سود، تلامعت من فرط ضحكاتهن، أيديهن تركت ثغورهن، صفوف أسنان بييض، أسنان لا تحتاج إلى فرش ومعاجين لتغدو متلامعة، أسنان تبدو أنها لم تطحن السكريات، أسنان دقيقة تلمع، كلما تتفرج ثغورهن، صف أسنان بييض فوق صف أسنان بييض، صارت أيديهن تمسح دموع البهجة، دموع دفعتها الضحكة المتغاممة، تتبجس بروية، تترقرق في مآقي واسعة، مثل قطرات ندى، كلما يضحكن، تندفع دموع ليس فيها آثار أحزان، ونغمات أشجان.

دافعت عن حرمة مملكتي البريئة، لم أسمح لتلك الواحدة الثانية، صديقة المرأة التي عصرت، أدمعت كائني، لم اسمح لها أن تعصر، خشيت أن يفادر الكائن (رشاقة) سمعته، يصبح خارج واقعيته، سردت لك يا كاتب، كيف رفض كائني، (الولد المدلل)، على حد زعم تلك المرأة التي عصرت، أذرفت دموعه، رفض التجوال في (مملكة) الدلالة، يوم نادتني، يوم أرادت أن ترافقني إلى غرفتي البائسة، يوم غادرها القطار، ضحى كائني بزبونة من أجل (شخصيته) المستقيمة، سمعته النادرة، في زمن الحمى الجماعية، حمى في كل شيء، زكام عصيب حل بالبلاد، أسكر العباد، فقط

تلك المرأة عصرته، أبكته، غثيان أصابني، وجدت نفسي تريد تدلق احشائي، لا أعرف كيف تحملت تقلبات أغواري، عندما عدت استحممت، صرت في حالة نشاط، قررت أن أدافع عنه حين يتكرر التحرش، استجاب كائني لقراري، رفض التجوال العشوائية في أزقة الخراب، خلد لعمل غير مكلف، كلما تشدد به الحمى، يقذف دموع لا قيمة لها، دموع سيستبدلها بدموع أخرى.

استشرى مرض ريت الكائن بينهن، كلما أرفض تقليل سعر حاجة تود واحدة شراءها، تلقي جواً محموماً بفعاليتها، تمد يدها إلي، تربت الكائن المستقيم، الفتيات، النساء يشاركنها فعلتها، أخجل، أتعرق أحياناً، أحاول ان لا أصرخ، بينما كوكبة إناث يشعلن الجو ضحكاً، وحدها البنت الصغيرة تراقب الحدث، تراقب (من كذب) حلوة هذه العبارة (من كذب) اكتبها أرجوك، أكتبها بين قوسين، أكتبها كما أقولها أنا، لا كما أسمع، عن كذب..لا..لا..أرجوك لا تضع، عن كذب بين قوسين، لا أريدك أن تخلط بين ما أحكيه أنا، وبين ما يحكيه الناس، أنا أريد أسطورتني، الفتاة (من كذب) تراقب الموقف، في عينيها بريق سؤال غريب، تنظر إلي مأسوفة، أجد في عينيها رغبة صادقة، رغبة طفولية، بريئة تولد، بريئة تتحجر، تريد أن تترجل من عينيها لمناصرتي، خجل كبير يمنع تلك الرغبة المتأهبة، ربما هي رغبة الحب الذي لا يريد أن ينتشر، حب خجول مجبول بالصمت، بالخوف، بالوله، في عينيها دفاع مستميت عني، أقرأ نشيد الرغبة، تشد من طاقتي، تزيدني تحدياً، أستأنس بها، من أجلها فقط، من أجلها أصمد، كل شيء بيكي، بيكي طويلاً،

العيون تبكي حين الثغور تضحك، ضحك وبكاء، بكاء وضحك،
يمتزجان، يتناصران، ترقص الأجساد، ترقص السماء، كل شيء
يرقص، المنازل ترقص، العالم يرقص، كل شيء يبكي، يبكي
ويبكي (هوووووب).. وقوف، لوحة منحوتة تغدو الحياة، العالم
يتوقف عن الضحك، يتوقف عن الرقص، يتوقف عن البكاء،
(هوووووب).. وقوف، نداء ساحر، سرّي، أوقف كل شيء، لا
(هوووووب.. طمس) (وقوف.. لا طمس)، لا(طمس) كما تروي طرفة
شائمة، الطرفة تروي (رجل إستعان به سائق سيارة حمولة، أوقفه
السائق وراء سيارته، أراد السائق منه أن يقف وراءه، يؤشر له، وراء
المركبة حفرة عميقة، الرجل الواقف وراء المركبة الطويلة، ظلّ
يؤشر لسائق المركبة الطويل.. أر.. جمع.. أر.. جمع.. السائق ظلّ
يرجع السيارة، بناء على نداء الرجل الواقف خلف السيارة الطويلة،
يرجعها على إيقاعات متوازنة، إر.. جمع.. إر.. جمع.. إر.. جمع.. كلما أشار
الرجل، (هوووووب..) وقوف، السائق أوقف السيارة، (طمس) كلمة
حجرته، السيارة دخلت إلى الحفرة العميقة.

كل شيء حين يذرف دمه، يستسلم لسعادة نادرة، كل العالم
حين يتخلص من دمعه، يتحد، كتلة متراسة، متماسكة،
متعاونة، يغدو العالم بعدما يتخلص من دمعه، دموع العالم ينابيع
كونية، لا تنتهي، غيوم غادرة، مرعبة تغطي العالم، تمطر، تحقن
الينابيع بدموع جديدة، الغيوم حين تنتهي، دموع العالم تتوقف، ناس
تربط الدموع بالحزن، ناس تربطه بالضحك، ناس تربطه بالأثنين
معاً، لا خلود للراحة إلا بعدما يقذف كل كائن دمعه، الأشجار

تبكي، تقذف في الصباحات دموعها، قطرات شفيفة، متلامعة، صافية كالزجاج، يسمونها (الندى)، الأرض تبكي، تقذف دموعها عبر جداول تمشي إلى ثغور ضامئة، السماء تبكي حين تحجبها الغيوم، فلتبكي كل الكائنات، كائنات الفرح، كائنات العوالم السريّة، أفراح، أعياد هو الوجود، ضحك وبكاء هو معدن البشرية، طالما الدموع تتجدد، ترعرش الكيانات المحتبسة، تهز عروشها النابضة بالحنين، الرغبات، تجدد قوّة النشاط فيها، تدفعها لعالم سيبكي من جديد، سيبكي، يبكي، يبكي، يخلد لراحة ضمير، بعد بكاء لذيد، ليبيكي كائني أقول هذا، أنا أسير لعبة ماكرة، ضحية حمى، ضحية هذيان شامل، يفرض سطوته، حمى.. حمى.. حمى، الفتيات يفرحن، دموعهن (خلص)، ضحكهن انتهى، اجسادهن صارت رغبة مشتتة، فراش مفروش لحصان المسرات، أين هو هذا الحصان الجامح، حصان الحرمان واللوعة، الحصان خامل، طعامه حصار، حروب، يلوك بأضراس من رمل من رصاص، الحصان غير راغب بصولة، حصان عاف الحروب، الصهيل، صار حصان للبكاء، بكاء صامت، نشيج غير مقبول، حصان خائف من الحروب.

* * *

أتدارس الأمر في الليل، النوم لا يأتي، النوم غادر أرض الحمى، الهذيان، النوم للكسالى هكذا قال الحاكم الذي فر تاركاً الناس لقمة سائغة لفكوك الطفيان.. قال:

- لا تناموا.. العدو يتربص بنا.. لا تناموا.. أمتكم تنتظركم.. لا تناموا.. النوم لأهل القبور.. لا تناموا.. نوم أبدي في أنتظاركم.
الحاكم كلما يتفلسف برؤوسنا، يغرد، لسانه طويل، لسانه حين يهذي لا طيب يوقف هذياناته، أهذي، الليل لا يتوقف، يمشي بتناقل أحياناً، طوراً يمشي سريعاً، أنتظر الأوامر الحسيّة، أنتظر جواب الكائن المسكين، - سأدافع عن.. لن أدافع عن.. أقول هذا، أقول أيضاً، ليفعلن الباقيات ما يفعلن، هي الدموع لا تخلص في هذه البلدة، لا تخلص في هذه البلاد، أقول ذلك مع نفسي، أنا أنظر إلى عيني البنت الصغيرة، واقفة تلتهمني، ناعمة، ذات شعر متهدل على الكتفين، عيان سوداوان، فم مستدق، قامة تشجع على العناق، رمانتان في لحظة تكوين، تبرزان من صدر نابض، بكاء مستمر، بكاء يخثر حمّاي، البكاء يوفر لي عملاً مثمراً، مختصر نافع، كائن/كائني..أتقن لعبة الرزق واللذة في عالم يتذبح على حفنات رمال.

* * *

بعد ثلاثة أشهر، النظرات نضجت، نظراتنا، نظرات البنت الصغيرة، بنت البرق، الرعد، المطر، صارت نظراتها تفهم نظراتي، نظراتي فهمت نظراتها، التقت النظرات وسط الضحك، الدموع، تقاهمتا، تعانقتا، تمازجتا، كائن/ كائني أطاع، تأقلم على راهن الوضع.

في يوم لن أنساه، يوم نامت عندي رغبة الخروج، بقيت أسير
غرفتي، شيء عنيد يحجبني، يمنعني من الخروج، متمدد على
سريري، ناحت عيني في سقف غرفتي، نظرات البنت الصغيرة
ملتصقة بسقف غرفتي، أحاول فك ألغازها، تماري، تظهر، نظرات
مفسولة بدموع اللوعة، (طاب..طاب..طاب) توقفت النظرات/نظراتي،
من مطاردة نظرات البنت الصغيرة الملتصقة بسقف غرفتي، نقرات
سريعة، غاضبة، مرتبكة، (طاب..طاب..طاب)، ثلاثة (طابات)،
تبعتها (طابات) ثلاثة، وقفت، مشيت، من ياترى يطرق، قلت
لنفسي، الوقت ليس وقت طرق، لم يطرق بابي أحد، بابي حرم من
أيدي الناس، بابي في مكان لا يليق بالناس أن يمشون فيه، مزابل
متراكمة حول غرفتي، الناس يقذفون مزابلهم قرب غرفتي، قطط
تتكاثر، كلاب سائبة، فئران، جردان، جيوش ذباب، أفواج
زنايير، جحافل بعوض، لا أنف يستحمل الرائحة، طرقت يتواصل،
فتحت الباب، باب غرفتي، الوقت - أتذكره جيداً - ما بعد الثانية
ظهراً، من شهر أيلول، بعد مجيء الأغراب بخمسة أشهر تحديداً،
فتحت الباب، وجدتها، البنت الصغيرة، خافضة الرأس تبكي،
بكاء لم تبكيه في مساجلات البيع والغزل أمام منازل الفجر،
مسكتها، سحبتها.. قلت لها:

- لم تبكين.. هل هناك في السماء برق ورعد..

قالت لي.. متوترة:

- لا تذكرني بالرعد أرجوك.

الخوف بدأ يعتمل بداخلي، من بذرة صغيرة بدأت..قلت لها:

- أنه مجرد (قرقرات) معدة السماء.

قالت لا مبالية:

- البرق قتل أمي وأبي.

قلت مصطنعاً:

- آه.. أنا آسف.

قالت بحزم:

- أنا في مصيبة.

بتعجب أجبتها:

- م... صد... ي... بـة.

قالت:

- غداً نغادر البلدة.

قلت مرتبكاً:

- كككيف ذذلك.

قالت:

- قرر كبير قومنا ترك (جلبلاء).

لساني تجمد كلياً، ظلّت واقفة، البنت ذات الجسد الملتهب..

قلت:

- ولكن يا (.....) ..

أجابت على الفور:

- (منار).. أسمى (منار).

قلت:

- أنت تمزحين يا (منار) ..

قالت:

- أنا جادة فيما أقول، لن أذهب معهم.

أجبتها بعد تشجيعها:

- اسمعي.. أنت تبقين هنا.

أجابت واثقة:

- سأبقى.

كي أدفع أبعد نفسي عن الشبهات، قررت أن أوقف عربتي أمام بيوت الفجر، أرمق بطرف النظر ما يجري من تحركات مكوكية، ومشادات غير طبيعية، غير صامته هي بيوت الفجر، ناس تعلموا البراءة، شربوا ماء العفوية من مصادرها النقية، الرحيل.. الرحيل، مساكنهم العالم بأسره، يمشون.. كيفما يرغبوا يسكنون، البيوت تهتز، بيوت الفجر، ترقص، تصرخ، ناس تتحرك، تخرج، تعود، نظرات النساء توقفت عن مطاردة الكائن/ كائني، لا ضحك.. لا دموع، توقف الضحك، توقفت الدموع، بفعل فقدان البنت الصغيرة، تأخروا اسبوعاً عن رحيلهم، أنظر بعين متيقظة، بقلب هلوع، كل لحظة أسحب مرآة زينة لأرى وجهي، فرائصي ترتعد، كلما يصوت (دلال) المدينة شارخاً صمت الأزقة، صخب السوق بصوته الجهوري:

- طفلة عجزية، خرجت من بيت عمها في ظهيرة يوم الخميس،

لم تعد، طفلة صغيرة تسمى (منار) من يعرف عنها شيئاً له هدية

مزجاجة يا أهالي (جلبلاء) الكرام..!!

* * *

مثل فلذة كبد ، مثل شجرة مثمرة ، بذلت ما بوسعي كي
أرعاها ، وجدتها فرحة بما خصها الحظ من نهاية سعيدة ، سعيدة
البنات الصغيرة ، سعيدة لي ، سعادة تناصفتها ، تندفع بوداعة ،
تكبر ، مع كل خطوة على الأرض ، ينمو جسدها خطوة نحو
الأعلى ، نحو الرغبة ، نحو الثغر / ثغري ، تريد ان تمد فمها مثل
زرافة ، تريد أن تلتصق بلمي ، مثلما هي فرحة ، تنهض في من
مشاعر ودودة ، دافئة ، وجدتها - من خلال نظراتها - تشعر أيضاً ،
أنها بحاجة إلى رغبات تستفز جسدها ، بنت تسكنها رغبة
صارخة ، رغبة صريحة ، تنمو أمامي ، أريدها تنمو ، أراقب نموها
المدهش ، ببراءة ، حماس ، تتململ بين أحضاني كلما يتغلغل برد
الليل إلى عروقه ، تضحك ، ضحك جهل مرابعها ، وقفت هي بين
نساء يضحكن ، وقفت تنظر ، وقفت تتعلم فن الضحك ، النساء ،
البنات من حولها يضحكن ، يبكين ، هي تقف تراقب
ضحكاتهن ، ترغب أن تبكي ، في عينيها بواذر بكاء ، لا تريد
تضحك مثلهن ، تندفع نحوي ، فراشي يكفيني ، فراش على سرير
بائس ، يجمع كائنين يريدان الحياة ، ترقص ، جسدها الناعم ،
الدافئ ، يحاول أختراق الحواجز ، يريد إختراق هذا السر الرهيب ،
سر جسد دافئ ، يستغيث ، تشعر ببراكين أنفاسي ، تشرب الحزن
المتواري ، تعب الأنفاس الرطبة ، يلتحم وجهينا بفرح ، تكركر
(كركركركركر) ، ركرات تكتمها ، البنات واعية ، لا
تريد أن يشاركني السمع كائناً آخر ، تريدني وحدي أسمع
كركراتها ، كلما أقبّلها تكركر ، تكركر ، تغفو ، حين

أعتصرها، تغفو، تشعر بلذة العصر.

ليل يمضي، ليل يأتي، يوم يرحل، آخر يزحف، هذيان البلدة يتناسل، العالم مزكوم، كل العالم، السماء لا تبكي، السماء تراقب أفراح البلد المنهوب، تراقب أفراح السلب، النهب، تراقب النحر العلني، لا تمطر، السماء منشغلة بإستقبال الوافدين إليها، يتوافدون جملة، لا بالمفرد، كواكب ناس تموت معاً، في كل رقعة، في كل مكان، السماء لا تريد أن تستقبل أرواح الموتى مبللين، تريدهم يابسين، تريدهم لابسين نيران الموت.

يوم يمشي، بصعوبة يمشي، يوم آخر يتبعه، أسبوع ينقضي، أسبوع يولد، شهر يموت، شهر.. ثم شهر.. شهر على شهر يصير سنة، تنقضي سنة، تبدأ دورة الأيام الثقيلة، يوم.. يوم.

ذات يوم، بعد أربعة أشهر من لجوعها الغرامي، قلت لها:
- نتزوج.

فرحت كثيراً، لم ترتبك، لم تتفاعل، صامتة، راغبة، تتحت عينيها في، عيناى تريدان مغادرة كهفيهما، خشية توالدت مع سؤالي، وقفت البنت، تراقب نمو خجلي، صمتها دليل عافية، جواز قبول، دفنت رأسها المشعر بين صدري:
- (مي خالف).

صوت هامس ذبح الشك في قلبي، لا مهر.. لا حفل زفاف.. لا أوراق روتينية تكلف، تثقل كاهل كل شاب يرغب الزواج، أين تمهر كتاب مهر، الدوائر تتحجج بفقدان سجلاتها، دوائر الجنسية، دوائر المحاكم، دوائر الشرطة المحلية، المختار (طاش)،

هرب مع من هرب، ناس قالت: ستحدث مذبحه بشرية في البلدة..!!
ناس قالت: لا تحدث..!! ناس تقول: ستحدث..!! ناس هربت، ناس
جدد أتت، تمشي في السوق، وجوه جديدة تغزو، وجوه لا تستحي،
تعمل بجد، تلتهم، تضاعف سعر الحاجة، تدس الفاسد بين
الحسن، تشتري كيلو غرام، من الطماطم، تعود فرحان، في
البيت تكتشف حالة مذهلة، أنت رأيت بأمر عينيك كيف وضع
البقال ثمرات صاحية، ناضجة، غير عطنة، اختار امام عينيك
طماطم من الدرجة الممتازة، خيار لامع، فلفل أخضر مغري،
فواكه تصرخ برونقها، البقال استقبلك بترحاب حار، ببسمة
عريضة، رشق وجهك بسيل إبتسامات أثلجت صدرك، (تفضل
أستاذ)، لكل من يتقدم منه، يقول: أستاذ..!! صار الحمّال
استاذاً، صار البقال استاذاً، صار السائق استاذاً، السافل،
الساقط، المنحرف، اللص، المهرب، كلهم صاروا أساتذة، ينقطع
سيل الترحاب بعدما يستلم منك قيمة الطماطم، قيمة الفواكه،
قيمة ماباعك، برتقال خائس، تفاح مدوّد، طماطم (ممرودة)
باذنجان (أم البزر) بصل ذو رائحة عفنة، تفرح وانت تسلّمه الفلوس.
في البيت تلغنه، تقرر معاتبته، تتحمس للفكرة، يرتد غضبك،
تستلين أعصابك، تبارحك حمى الصدمة، تقول مع نفسك
(سيلطش) رأسي بأوزانه، بالمناسبة أوزان البقالين عبارة عن قطع
حجر، وطوابيق فخارية، وصامولات كبيرة، لا أوزان حقيقية عند
بقالتي بلدتنا، تقول مع نفسك: سيسحب سكيناً، ويدلق أحشائي
علناً..!! تقول مع نفسك: سيمسحني بالأرض بصلية رشاش يسحبه

من تحت الطاولة..!! كل واحد لديه سلاح، فقط أنت، أنت الوحيد في بلدة لا سلاح لك، هذا ما قلته لنفسى، دائماً أقول هذا مع نفسى، البقالون يدلقون أحشاء من يقف بوجههم، يدلقونها مثل (شربة ماء)، انا لا سلاح لي، من سرق قطعة سلاح صار شجاعاً، لا يخاف من أحد، الكل نهب، لا..لا..ليس الكل، أولاد الحرام فقط سرقوا أسلحة الجيش، سرقوا كل شيء، أنت رأيت ما سرقوا، لا بد أنك وقفت مثلي، راقبت الناس تسرق، أنت كاتب، الكاتب لا يسرق الأسلحة، الكاتب يسرق الأفكار الجديدة، يسرق أساليب غير دارجة، يسرق عناوين لافتة، يسرق جمل جميلة تتدرج من ألسنة الناس بصورة عفوية، يغلفها بحيلة ويدسها في كتاباته، كُتاب يعملون في صفحات تعتنى بشؤون (البراعم الأدبية)، تأتيهم الرسائل مثل المطر، أكداس تلو أكداس، يقرأون تلك الرسائل، البراعم لا يهتمهم سواء نشرت كتاباتهم أم لم تنشر، المهم يريدون رؤية أسماءهم، رؤيتها فقط في ركن (ردود عاجلة) يفرحهم سطر أو سطرين لمحرر الصفحة الثقافية، يتباهون فيما بينهم، محرر الصفحة كتب لهم (لديك مستقبل زاهر، واصل القراءة والكتابة، إتحفنا بجديديك) كلمات منمقة، كلمات تسعد أصحاب التجديد، البراعم فرحون، كُتاب الصفحات الثقافية، إستولوا على الكنوز الآتية في صندوق بريد لا يتوقف، وجدوا أفكار هائلة، وجدوا أساليب، وجدوا عناوين، يكتبونها لأنفسهم، تلك هي سرقات الكُتاب، الكُتاب لديهم أسلحة فتاكة، سلاحهم المدمر هو القلم، البقالون مطففون، يحتالون

على الناس، يخسرون في الميزان، يبخسونهم أثمان الأشياء، يحتال عليك بقال، تقرر أن تستبدل بقالك، تقرر أن لا تشتري من البقال الذي غشك، (ذلك أضعف الإيمان)، ستكتفي بصب لعناتك عليه سرّاً لا جهراً.

الناس تمتلك أسلحة ترمي ليل نهار، أسلحتهم ألسنتهم، تحت ظل الغرباء، غرباء العالم الراقي، العالم الشره، العالم الزاحف لتغيير الأوضاع، أوضاع الشرق الأدنى، أوضاع الشرق الأقصى، أوضاع الشرق السابت، العالم تقدم، صار فوق القمر، الشرق لم يتقدم، ما زال يبحث، ما زال يجادل حول الخيط الأبيض والخيط الأسود، رجل قال لذلك (الملا)، ليس (الملا) الذي باغته الولد بمسدسه، أنا أقصد (الملا) الذي تم تسليمه رقاب الناس بتزكية، قال له: كيف أعرف النهار من الليل..!! (الملا) أجابه أمام خلق كبير: خذ خيطان، خيط أبيض، خيط أسود، مدهما، ستعرف الوقت، ظهور الخيط الأبيض هو ظهور النهار، عدم ظهوره يعني أنك ما زلت في الليل..!! أجابه ولد كثير المزاح: مولانا..لماذا يأخذ خيطان، خيط واحد أبيض يكفي للتجربة..!! صاح ولد آخر: (الملا) يريدنا أن نشتري بكرات الخيوط من الخيَّاطين..!!

تلك هي معضلتنا أيها الكاتب، معضلتنا أننا إبتلينا بألسنة تتحدث، ألسنة تتفعل، ألسنة لا تتصاع لأحكام الدماغ.

حتماً ستقرر تبديل البقال الذي غشك، تفرغ هذياناتك وحمى الصدمة عليه، سرّاً لا جهراً، ستتثره إلى الليل، إلى النجوم التي تراقب (من كذب)، بادئ ذي بدء لا تلغنه، هو وضع لك ما هو

حسن، ونظيف، بأم عينيك رأيت يده تتخب ما هو أفرحك، وأثلج صدرك، رأيت، راقبت أنامله الرشيقة تتلاعب بأكوام الفواكه. في البيت، ذاكرتك تستفيق، في الليل مثلاً، أو في اليوم اللاحق، ستلغنه، تقرر تبديل البقال الذي غشك، تبديل كل يوم بقالاً، كلهم أولاد الوقت، أولاد الحرام، غشاشون، مطفون في الكيل، لهم نار جهنم.

(ملاً) الجامع الوحيد قال ذلك، (الملاً) الذي غادر (جلباء)، تركها من غير (إمام) تصغي لخطبه الناس، قال لهم: لهم نار جهنم، سيخسرون آخرتهم، ستكوى جباههم وجنوبهم بنيران جهنم..!!

رجل جريء هو (الملاً) الجديد، (ملاً) جاء بعد مفادرة مولانا الذي دافع الله عنه وصد عن رأسه طلقة المسدس للولد المثلث، ناس قالت: تم تصيبه بتزكية..!! ناس قالت: بسبب عدم إنداب أحدهم ممن أكمل الشريعة الحنيفة ليغدو (ملاً) الصلوات الجامعة، دفع الناس لتصيب شاب له لحية..!! (الملاً) الجديد، إبتدأ مشروعه الإيمان بالبقالين، هاجمهم في أول صلاة جامعة، قال عنهم: حرامية، ملعونين في الدنيا والآخرة..!! البقالون أرسلوا ولداً مفخخاً، نسف نفسه أمام (الملاً) الجديد، ناس قالت: الولد (خوش ولد قشمره)، البقالون قالوا له: خذ هذه الفواكه إلى (الملاً)..!! هم يعرفون (الملاً) الجديد ابن رجل ميسور، لا يأخذ رشاوي، قالوا للولد الذي إنفجر: قل لـ (ملاً) أن يعطيه للفقراء والمساكين والمحتاجين والمتضررين والمهجرين والأرامل والأيتام..!! الولد توهم

حين رأى شاب ملتحي، تقدم منه قبل أن ينفلق، نجا (الملاً)، ناس قالت: الولد لم يصل في حياته فأخطأ الملاً..!! ناس قالت: حزام ناسف..!! ناس قالت: فواكه مفخخة، تم تفجير الولد من بعيد..!! تعجبت الناس، تناقشوا كثيراً، صار (الملاً) حديث الساعة، حديث الجلسات الليلية، إنتهت الأمور على إتفاق تام، أولياء الله الصالحين محفوظون بعناية الله، رعايته، لكن المصيبة تفاقمت، (الملاً) الجديد توقف عن تقريع البقالين، أوقف حملته الخطابية، أكتب هذا يا كاتب في سيرة أسطورتني، لا تفعل ما يفعل بعض الكتّاب، يكتمون الأسرار، يلفقون الحكايات، خذ مثلاً القصاب يتعامل بسكينته مع اللحم بجدية، لا يرحم ذبيحته، حين يغش الناس، حين يضع اللحم القديم، يخلطه مع اللحم الجديد، يغدو خائن مهنته، الفلاح كذلك، لا يتهاون مع الأرض، مع الماء، مع محاصيله، يعزق الأرض بقوة، برغبة، يدفع ماعون مسحاته إلى أبعد نقطة من سطح الأرض، حين يغش الناس، حين يخلط الرديء بالحسن، يخون مهنته، خذ البقال، خذ الجندي في الحرب، الجندي يتدرب، ينزف عرق، يخسر أيام حياته، في الحرب، يقع في مجابهات، الجندي الذي يقاتل لا يخون مهنته، الجندي الذي يهرب يخون مهنته، الكاتب أيضاً يتوجب عليه سلوك طريق الشجاعة، إذا لم يقل الحقيقة فهو خائن من الدرجة العالية، هو ناقل أخبار، العالم كله ينتظر الصدق، يريد أخبار موثوقة، إذا ما راوغ كاتب، سوف الأمور، تفاضى عن حكاية ما يجري، هو محتمل يحتال على الناس، لعنة الناس ستداهمه في مماته، كتاباته

ستغدو مثل الفواكه الفاسدة، أنت تلقي بكل فاكهة فاسدة إذا
دسسه لك البقال بين الفواكه الصحيحة، أكتب ما أقوله لك،
يا كاتب يا ولد، أنت كما قال لي صاحبي العاقل، تبحث عن
التجديد، عن التحديث، عن الفلتات الزمنية المقصية، أصرارك
يقول لي أنت ستفلس في مهمتك الخطرة، وهذا يتوقف على
إسطورتني، لو تتقلها بما أحكيها لك، لك الأيام يا ولد، أكتب
وغادر حياتك، قل ما شئت، قل ما يثور فيك، قل ما هو لا يلائم
أمزجة النقاد، قل وأمشي، النقاد أدباء فوق العادة، تعطلت
ملكاتهم الإبداعية، فقرروا اللجوء إلى أساليب التدمير العقلاني
لكل نص غير فاعل، الناقد الفاشل هو من يزكي، يجامل
أصدقاءه، قل وغادر، إن لم تقل، سيقنتك الهذيان، ستعيش طويلاً
بين الناس، فقط لو نقلت الحقيقة، الناس ستنتقل أسطورتك لناس
ستأتي بعدهم..!!

* * *

أنا والبنت الصغيرة، قررنا أن نتزوج بلا أوراق تثبت زواجنا،
جلسنا انا و(منار) تشهدنا على أنفسنا، رفعنا أكفنا إلى السماء،
أشهدنا السماء على زواجنا، قلنا نريد أن نعمار الأرض، لا أن
نخربها، التعمير مطلب لا يعاقب عليه القانون، قلنا سيتكفلنا
الله، الله يحب المتوكلين عليه، (ملاً) الجامع قال ذلك، قال قبل
ان يغادر البلدة، قال: الله سيكفل أعمال البر، سيرزق من يخافه،
سيفتح له باب الفردوس..!! (الملاً) قال كل شيء، قبل أن يتفاجئ

بولد يقف بدربه، يمد مسدسه إلى راسه، الله سيبارك لنا هذه الحادثة الحياتية، نحن أبرياء، بالفطرة تعلمنا أصول الحياة، بالفطرة سنقضئها معاً، من شجرتين مقطوعتين إلتقينا بالفطرة، إلتقينا نريد أن نحبي تينك الشجرتين المقطوعتين، صرنا زوجين متفاهمين، خفت أن أخرجها، قلت الوشاة سيقولون للفجر ما رأوه يوم المطر، سيقولون للحكومة، قلت مع نفسي، نسوة الفجر لا بد أنهن رصدن ما كان يجري من نظرات فوق العادة بيني وبين البنت الصغيرة.

* * *

مرت سبعة ايام، الفجر رحلوا، قالوا أولاد حرام خطفوا البنت.ناس سمعت منهم هذا الكلام، رحلوا بعدما تقاوم الوضع العام، صار الخطف في النهار أمام انظار الناس، قلت لها: لا أحب تمتمات رجل الدين..!! قالت: أنا أيضاً لا أحب المثول بين يديه، سيفضحنا في خطبته القادمة، سيرجعوني إلى الفجر..!! صارت (منار) زوجتي، أخفت وجهها بحجاب، لبست ملابس جديدة، خفت عليها، بدأت أبيع حاجياتي قرب غرفتي، غرفتي ألحقت بها حمّاماً صغيراً ومرحاضاً، ورحت أجلب لها الطعام كل وقت، أجلب لها الماء النقي من أنابيب مكسورة، يجري الماء التنظيف منها، قال لي صاحب كشك بيع الأطعمة السريعة: لديك ضيوف هذه الأيام..!! خفت أن يكتشف زوجي من البنت المخطوفة على حد زعم ذويها، قررت من لحظتها شراء الطعام من عدة أكشاك،

سألني ثانية: قلت طعامك هذه الأيام..!! قلت: نذرت نذراً للفقراء
والمساكين، إنتهى نذري..!! ناس تجد منافذاً للفضول، أي شيء
تعمله، يدهمك شخص بأسئلة فارغة، ناس لا شغل لها، تتابع
القادم، الرائح، عيونهم منحوته فيك، أنت تمشي، تراقب بعيون
حاسدة، عيون غيورة، ما تتسوق، تريد أن تعرف ماذا جلبت، ماذا
تأكل.

البتت كبرت راضية مسرورة، تسعدني كل ليلة، تدخل إلى
روحي، تسعني بدفتها، بكركراتها الرشيقية، (كركركر)،
بقبلاتها، تلتصق بي، تنام وهي فرحانة.

مرت أيامنا حلوة، مرت الأسابيع، مرت الأشهر، احتفلنا بمرور
عام على خطبتنا الحداثية، ذات يوم - بعد مرور سنة ونصف على
ليلة زواجنا - صارت (منار) أمّاً لطفلة، ولدت بعد ليلة ليلاء
أسميناها (عشتار)، أنا لم أختر اسمها، هي أسمتها (عشتار)،
قالت: على اسم أمي، (عشتار) ..!! وافقت على ما اختارت من اسم
مناسب، اسم جميل يلائم اسمينا، قلت..!! أنا قلت: شجرة العائلة
بدأت بنفض غبار الفوضى..!! أنا قلت ذلك، رغبة متواجدة في،
رغبة إعادة صناعة الأساطير لعشيرتي، جدي صنع أسطوره، أنا
أيضاً أريد أسطورة مناسبة لي، أسطورة تحاith الوضع الإنساني
الراهن، تحاith العالم المخبول، الحياة بلا أساطير تغدو محض
حياة، الأساطير تدفع الحياة نحو التحرر، نحو السعادة، (منار)
قالت: سنحيا شجرتينا بحبنا..!! قالت ذلك، طبعت قبلة على
ثغري، ثغري إستقبل القبلة بمطر قبلات، قلت مع نفسي.. مع

نفسي قلت ذلك: لا تموت الأشجار حين نروها بثقافة صادقة..!!
قلت ذلك مع نفسي، الدموع الصادقة، الثقافة الصادقة، الحب
الصادق، التعامل الصادق، الحديث الصادق، تلك هي فلسفة
الأساطير الخالدة، الأساطير تريد تضحيات فوق العادة، تريد
الصدق والعفوية، الأساطير تنبذ المبالغات، والتهويل الخارق لحدود
العقل البشري، فرحتنا بـ(عشتار) لم تدم، فرحة ولدت في الليل،
فرحة كبيرة عمرها ليلتين، في الصباح، صباح اليوم الثالث من
ولادة (عشتار) طرقت الباب، (دمدمدم) طرقت عنيّف، طرقت البنت
الصغيرة يوم لجوئها الحداثي، طرقت خفيف، طرقات الصباح
طرقات عنيفة، ارتبكت أجسادنا، احتضنت (منار) البنت
(عشتار)، تكورت في زاوية الغرفة، خرجت لمن يطرق الطرق
العنيّف، شرطي ملتحي الوجه يقف، بيده رشاشته، يده على
الزناد، متحمس الوجه، خفت لحظتها، جسدي ارتعش، طفر إلى
مخي، حكاية جدي، جدي أمتلك مدية عالج به طالب زوجته، أنا
لا أملك مدية لأدافع عن زوجتي، ظلّ الشرطي ينحت بصره في،
يريد أن يستجمع كلامه، يريد ان يجابه هيكلاً عملاقاً خرج من
قمقمه، خرج من كهوف القرون الحجرية، تحرك فمه، وصلني
صوت تلمضاته، هجست بظنون تناحرت، خلت أن واشياً وشى بي،
واشياً رأى ما يجري في غرفتي، نقل الوشاية للحاكم الجديد،
سياًخذني هذا الشرطي الصغير للسجن، سيحرمني من (منار)،
ربما جاء ليأخذ (منار) منّي، هذيان توالد، حمى تغلي، خويف
يتفاقم، أنا لا املك مدية كما ملك جدي واحدة، بماذا أدافع عن

مملكتي، وقف الشرطي أمامي، عيناها جارحتان، لا إنسانيتان، الشرطي حين طرقت الباب، تراجع خطوات عن الباب، وقف على مبعدة أمتار، حسناً فعل ذلك، لولم يفعل ذلك، ربما اكتشف كل شيء، لم ير من في الداخل، ذلك ما أثلج صدري، وقف ينتظرنني، مشيت إليه، نقل رشاشته من يمينه ليساره، خلته تهيأ للرمي، كل شيء ممكن، ناس خرجت لإستقبال ضيوف في الليل، تلقت رصاصات في الرؤوس، أتقدم وعيني على رشاشته، عينه على هيكل عملاق يتقدم إليه، لم يلق ترحيبه، لم أرغب في تحيته، جدي كسب شرطة زمانه بماله، أنا لم أملك ما يكفي لرشوتهم..
قال بغضب:

- أمهلك ثلاثة أيام لترك هذا المكان..!!

* * *

البنـت عـشـتار

(منار) أسمتها، من فرحي وافقت، لم أقترح أو يخطر ببالي اسماً أراه يلائم أسمى، كما هو شائع بين الشباب، حين يكون أنفسهم بأسماء آباء لبنين أو بنات قبل زواجهم.. قالت:
- زارتنى خالتي (شبعاد) ليلة المخاض، همست في أذني أسمها.
قلت لها:

- أسم متناسق جميل من ثغر عذب سلسبيل.
تلوت (منار) من ألم المخاض، تمددت جنبها، بكيت لتأوهاتها، خارج الغرفة، الظلام شاحب، الليل هادئ، يضحك القمر بما يخزن من نور، القمر الطالع يرشق بنوره المنتصر كتائب الظلام المتقهقر.

قبل عشاءنا، لم تشعر (منار) بألم المخاض، تعشينا ثمرة بطيخ ورغيفين فقط جلبتهما من فرن فتح جديداً، فرن خبز أعلن صاحبه عبر قطع أقمشة علقها على جدران المنازل، وعلى أعمدة كهربائية منزوعة السلاك:

- اسيتم بعون الله توزيع الخبز على الناس مجاناً.
فخ قديم، كل صاحب فرن، كل صاحب مطعم، في اليوم

الأول لا يتقاضى الفلوس مقابل ما يقدم لناس التي تزحف كالجراد، تزحف لتحصل على شيء من غير مقابل، الكل يعاني من جوع طال عمره، حرمان على ما يبدو لا نهاية له.

صاحب المخبز يجاهد لعمل الخبز بصورة مرغوبة، أقراص فوق العادة، ممتازة الشوي، يسيل لعاب الواحد حين يلقي نظرة على أقراص خبز تخرج من فم تتورم ملتهب، خبز يعصر عصافير البطن، يعملون في اليوم الأول، وربما يمتد العمل لأيام أخرى، يعملون أقراص خبز ممتازة، فخ يا كاتب، فخ متوارث، فخ لجذب الزبائن، يربطون الواحد معهم، سيجبرونك على شراء الخبز بصورة دائمة، بعدما بالتدريج المريح، نعم بالتدريج المريح، يهبط مستوى جودة أقراص الخبز، يقل الوزن، الدقيق من ممتاز، من دقيق أبيض، يسمّى طحين نمرة (صفر)، يتحول إلى طحين أسمر، رديء لا يصلح للأستهلاك البشري، دقيق (الحصة التموينية)، ناس تقول: خبزه عافية..!! ناس تقول: سنشتري منه، خبزه كبير وناضج..!! فخ منصوب لكسب الزبائن، تمر الأيام، الخبز يصغر في المخبز الجديد، الطعام يقل في المطعم الجديد، طالما شماعة الحصار قائمة، شماعة الهذيان البشري، شماعة الملف الأمني المتدهور، شماعة البطالة، شماعة رفع أسعار المنتجات النفطية، شماعة إلغاء العمل ب (البطاقة التموينية)، كل شيء يتكئ على شماعة مقنعة.

ذهبت إلى المخبز الجديد، قلت أحصل على أقراص خبز ناضج، أجلبها إلى (منار)، تركتها بين بين، حالتها الصحية في وضع قلق،

ذهبت باكراً، وقفت مع المحتشدين، صاحب المخبز ظلّ ينظر إلينا، يدخل، يخرج، يلقي نظرة، يدخل، رجل قلق النظرات، له لحية غير مهذبة، لحية عشوائية، تختلف عن لحايا المتمسكين بحل الله والسنة الشريفة، لحيته، تشبه لحية المساجين، يتمنطق حزام جلد، على خاصرته النحيفة من جهتها اليمنى، حقيبة جلدية فيها هاتف جوال، معتداً بنفسه، كل لحظة، يحرك الحزام المخصوص لخاصرته، يحضن حقيبة الهاتف الجوال، يعصرها بقبضة عصبية، يثبتها، يعمل مثل رجال الأمن الذين تواروا عن الأنظار، أولئك الرجال الذين يتجولون ببذلاتهم الزيتونية، كانوا يحركون مسدساتهم في السوق، كل عشر خطوات تمتد أيديهم لتحرك الجراب الحاضنة لمسدساتهم الأمنية، المتأهبة دوماً لرد الاعتبار للسلطة الغافية، مسدسات متهياً لردع من تسول له نفسه تعكير الوضع العام، في الأزقة يتسكعون، يبحثون عن تجمعات شبابية، كل تجمع في ذهن (رجل أمن) محاولة إنقلاب، يقفون في زوايا، يتظاهرون بقراءة صحيفة البلاد الرسمية، في أذهانهم قلم الوشاية لا يخطئ الأسماء، تدون أقلامهم التلصصية أسماء التجمعات في كل مكان، في الليل تطرح أذهانهم تلك الأسماء على طاولة التعذيب، قبل أن تتطلق مركبات سرية لنقل تلك الأسماء إلى غرف نرف الدم والألم، يتباهون بين الناس ببذلاتهم البراقة، بمسدساتهم الثقيلة، يحركون عجيزاتهم بحركة شهوانية، عجيزات تتحرك راقصة، ردف يصعد.. ردف ينزل، ردفان مترادفان، يترادفان على الرقص، حركة مثيرة، غايتها تحريك

المسدس النازل على مؤخراتهم، ناس تقول: رجال الأمن يتدربون كثيراً على هز الأرداف، واجب حيوي وسلطوي لإرهاب الناس..!! ناس تقول ذلك كلما يخطر (رجل أمن) ببدلته الزيتونية المكويّة، بشعره المزيّت، يمشي، ردفاه يترادفان، المسدس الأمني يصعد ينزل، الغلاء يصعد، الفقر يصعد، الهمة تنزل، الأخلاق تنزل، النذالة تصعد، الشرف ينزل، عالم يصعد، عالم ينزل.

الرجل صاحب الفرن، لم يحرك عجزته، يمد يده اليمنى، يمدّها بين لحظة وأخرى، يحرك حقيبة الهاتف الجوّال بيده، واحد قال: يتباهى أبوردف البقرة..!! قال ذلك، أنزل رأسه كي لا يوشي به واحد آخر، يقف، مرعبة هي عيناه، يده اليسرى يفتل شاربه، شاربه قصير، شاربه، لحيته من عمر واحد، يلقي نظرة، يغسل وجوهنا، يدخل، صوت التورين يلهب حماسنا للحصول على اقراص خبز مجانية، يخرج مرة أخرى، خروج، دخول، دخول، خروج، التوران يرسلان رائحة خبز شهى، أسناننا (تجقق) تطحن الرائحة الزاكمة، (جققجقق) الرجل صاحب الفرن الجديد، يهز رأسه، لا يكلف نفسه الكلام، يده اليمنى مشغولة بتعديل الحزام، حقيبة هاتفه الجوّال، يده اليسرى مشغولة بقياس طول شاربه، المحتشدون تذمروا من طول الوقوف، بعضهم قال: لن نغادر حتى لو وقفنا ليوم كامل..!! بعضهم صمت، انا قلت سأقف، اريد خبزاً حتى بفلوس، فتح صاحب الفرن الباب، خرج عاملان يحملان (طنجرتان) فيهما خبز حار، أولاد صغار هجموا على الطنجرتين، سقط البعض على البعض، صراخ، صياح، الأغنياء

هجموا قبل أن يقوم صاحب الفرن بتوزيعه (العادل) كما صرّح لنا
كلّما خرج ليلقي نظرة علينا، أولاد الأغنياء منعوا أولاد الفقراء من
الحصول على الخبز الحار، أنا مديت يدي من بين الحشد
المتراكم، بعضهم فوق بعض، فرحت (منار) حين رجعت معي خبز
حار، جلسنا وتعشينا عشاءنا البسيط، خبز وبطيخ، بطيخ أصفر،
شكله ناضج، جوفه مثل صابونة، لكي نستسيغ طعمه، رشينا
على البطيخ حفنات سكر، بعدما تعشينا أستلقينا، أستلقت
(منار)، أستلقت جنبها، منتصف الليل، ليلة الثامن من آب، بعد
عام وأربعة أشهر من دخول الأعراب..قالت:

- بدأ يلح.

تلقت بلهفة من فمها الفجري الخبر السعيد..قلت:

- سأخبر القابلة.

توجهت صوب الزقاق الذي يلي متاريس العساكر الشائكة،
بعد تفتيش دقيق، نقاش حاد حرروني، خرج طفل صغير لحظة
طرقت الباب..قلت والفرح يرعشني:

- أريد أمك، أمك أريدها.

قال ضاحكاً:

- أمي متزوجة يا حمّال.. (هاهاهاهاها).

قلت له:

- يا ملعون أين أمك.

قال:

- ذهبت إلى دور التجار.

عدت وكلي قلق.. قالت (منار):

- كن فقط جنبي.

تمددت جنبها ، مثلما عاهدتها بدأت أحرر صوتي بشيء من الخفوت ، من نافذة غرفتنا ، عبر قطعة الخام الساترة شيء ومض ، ساد السكون ، توقفت الكلاب عن النباح ، خرست الديوك عن الصياح ، تناهى لسمعي صوت غريب ، قمت ، اندفعت خارجاً ، رأيت طيراً غريباً ، طير أبيض يقف على حائط بيت متهدم ، يطل بعنق طويل أبيض كالثالج ، من عينيه تتدلق حزم ضوئية تتلون ، ظلّ يرمقني ، يهز رأسه ، طير لم أره من قبل ، على ما أتذكر ، أو هكذا رأيته ، طير يمتلك أربعة أجنحة ، رأسه على هيئة بشر ، عدت ، أخبرت (منار).. قالت:

- ربما طير سعد ، أنه فأل خير يا (نوار).

عباءة خادرة سقطت علينا ، شعرنا بموجات نسيم دافئ ولاذع يكتسحنا ، لم نعد نعرف كيف النوم سرقنا ، صرخة أنهضتنا ، وجدنا طفلة هادئة تمرح بيننا ، ليس من أثر لدماء ولا بقايا أحشاء ، لم يسدنا ذعر أو إندهاش ، فرحة غمرتنا ، ألبسناها ما أعدت (منار) من أقمطة ليوم الميلاد..قالت:

- لا أريد أن يعرف بشري ما الذي جرى.

الفرح يثقف الفقير ، الفرحة يجعله كبيراً ، يعرف كيف يتكلم ، لا يتجاوز حجمه ، قلت لها:

- عشت وحيداً ، لولاك لمضيت إلى قبري وحيداً أيضاً.

قالت وهي ترمقني بنظرات مغناجة:

- يا زوجي.. أنا لي حظوظ مؤجلة، يسمونها (بخت) كتمت الأمر
مع نفسي، خشيت أفضاءها، حافظت عليها في خزائن صدري.
قلت والفرح أسكرني:

- لا أريد من الدنيا سواك ومولودنا الجديد.
تأوهت (منار)، تحررت تهيئة من ثغرها العذب الذي تبلل،
رشق وجهي بأنفاس حارقة يوم البرق، الرعد، المطر.. قالت:
- وأنا كذلك يا (نوار).

طفلة بدت عجيبة من لحظة ولادتها، تصغي بسكون تام.
في خارج الغرفة، الليل يمشي بشيء من الوداعة، رغم سكون
المناخ.

قبل الفجر بقليل صدحت مكبرات الصوت لمئذنة الجامع
الكبير، تسبيح يتناثر إلى أحشاء فجر جديد يتهاض.. قالت منار:
- لديك عمل.

قلت وأنا أشد على يديها:

- لن أدعك وحدك.

سحبت كفها اليمين من بين كفي، مسكت معصم يدي
اليسرى، تلاقت عيوننا، بعدها ثغرنا، وغشانا نوم أثير..!!

* * *

خلال اليومين قبل مغادرتنا تلك الغرفة، لم تبك الطفلة، كانت
تفتح عينين صافيتين، أسراب عصافير تهبط على قضبان النافذة،
تهبط، تشدو، (عشتار) باسمه تتحت عينيها الوديعتين على ما يجري

أمامها ، شيء ما بدأ يشغلني بخصوص ما يحدث ، حليب مدرار ينبع من ثديي (منار) ، طفلة لا تكف عن البسمة ، عصافير نست عالمها ، حر توقف ، جوع غادر ، فرح يكبر ، عالم يتغير ، عند الساعة الثامنة من يوم الوعد فاجأتني امرأة دميمة ، سميينة..قالت :
- ليس الأمر بيدي ، متهور ، جلب لي مشاكل مع الناس .

قلت بأستغراب :

- من تعنين يا أمت الله..

قالت :

- ولدي الشرطي الذي جاء يهددك .

قلت :

- آه.. قولي له أن يهيئ لنفسه كفن ، سينحرونه كما تتحرر

الشاة .

صاحت :

- ليس الأمر بيدي يا أبا (عشتار) .

تجمد لساني ، توقفت عيناى على لحظة ذهول.. (أردفت) :

- لا تلومني.. أنا أتألم لكما .

لم يعنيني كلامها ، حط ذهني على كلمة (عشتار) من نثر

اسمها وكيف..قلت :

- لن ألوكم يا عمّة ، هو متهور لا يشبع من جني قاذورات الدنيا .

من نثر اسم طفلتنا ، لا بد أنها تلصصت علينا ، لا بد أنها أصغت

لكل شيء ، شيء طبيعي في بلدتنا ، نساء يقفن وراء الستائر ،

يلقن أذانهن إلى الجيران ، يلتقطن حواراتهن ، لا بد أنها المرأة

قلت لها :

- لنحتفظ بالسريا(منار) .

قالت:

- ألم أقل لك لدي (بخت) كما قالت لي خالتي (شبعاد).

قلت لها :

- ليكن حارسنا وواقينا من آفة هذا الزمن المريض..!!

* * *

(عشتار) بدأت تمشي، لم تكلفنا عناية مركزة، لم تكلفنا
علاجات متواصلة، صارت رقيقة كل طير يهبط قريبا، العصافير
تشدو من حولها، تتحت عينيها في جمال الكون من حولها،
الكون الدائر، الكون اللاهث صوب المزالق أكثر مما هو لاهث
صوب النور.

جاءنا شاب، طلب منا إخلاء الغرفة، غادرناها على مضض،
يوم باع الرجل الذي نادانا، وأسكننا فيها مولدته العاطلة، من
جديد أرسينا مرساة حياتنا، جذفنا بأذرع الحب قارب الفرح،
وجدنا الرحيل سعادة، أن تمشي متنقلاً تشعر أنك السيد المطلق
لهذه الأرض، كأنك ملك تسكن كل يوم في قصر منيف، أنك
الفقير المنفي من الفردوس، فقير يبحث عن ظل يأويه، أشياءنا
بسيطة، لا تثقل كاهلنا حين ننتقل من مأوى لمأوى، لا يهمننا لذعة
جوع، ولا برد الشتاء، أو حر الصيف، صرنا نرى قوافل الأغراب
تتوافد، مركباتهم الشبحية تتجول أينما نتواجد، صارت البلدة

مهملة، أعدنا لها الروح، قبل أن تداهمنا قوة محتلة، نزل شاب ملثم، تكلم بعبارات مخنوقة، عرفت ماذا قذف بوجهي قبل أن يرجع، يركب في مركبة (غازية)، قال: غداً سنأخذك إلى - غونتانا مو - إذا وجدناك هنا..!! رحنا نتجول، بيت بلا مأوى، عائلة متنتلة، غرفتي الوحيدة خلقتها ملكي الوحيد، هي كل ما تبقى لي من حطام الدنيا، غرفة مهملة، بعدما تجاوزت الناس على كل شبر أرض، وجدت غرفة منسية، دخلتها، قمت بتعميرها، سكنت فيها لسنوات قبل أن ألتقي (منار) تلك الغرفة، جاءني الشرطي الذي يحمل رشاشة، أجبرني على إخلاءها، قال لي هي ملك جده المهجر، يريدنا، لا محيص، وجدت الرحيل أضعف الإيمان، تصور يا كاتب، بعد سنوات يأتي شاب بسلاح رشاش، يهددني، حالة أستشرت مع دخول الغريباء إلى البلاد، جاءت زمر تهدد الناس، تهدد بيوت تدعي أنها تعود لأجدادهم، الحاكم الذي فر من قصره الرئاسي، أخذها عنوة، وزعها على موالين لسلطته، كلما نجد مأوى ياؤينا، يجبروننا على الرحيل.

* * *

ذات يوم رأينا من بعيد نقاط تتحرك، خلناها بداية لرحيل جديد، قلت مع نفسي، أرتال غريباء جاءت تطردنا، لم نكد نسكن غرفة منسية سوى خمس ليالٍ، غرفة مهملة، غرفة على شارع البلدة الوحيد قرب السوق، بنتها البلدية، بعدما صار الشباب يتبولون في الحديقة العامة، يتغوطون في الليل ويتبولون، نقل واشي

الكلام للحاكم، زار الحاكم الحديقة العامة، يتبعه زمرته المسلحة، وجد المنتزه مزرعة للغائط، رائحة مقرفة للبول المتخثر، قرر الحاكم بناء غرفة لدورة مياه صحية، فرصة جديدة لجمع المال، سرعان ما تركتها دائرة البلدية، بعدما تم إنتزاع بابها وزجاج نافذتها في الليل، تفاجأت بوجود عبوة ناسفة تنتظر ضغطة زر، تم ترك الغرفة، مأوى الكلاب في الليل، ملاذاً لشباب تتدفق في مثنائاتهم ما يحسسون من علب مشروبات غريبة صارت ترص على إفريز الشوارع مع بداية دخول الأغراب إلى بلادنا، لاح الموكب الزاحف، رهط صبيان يقودون حماراً مستسلماً، صاحت فيهم (منار):

- دعوا الحمار يا صغار.

رأيت الحمار يستصرخني بعينين غامضتين.. قلت لهم:

- أتركوه لنا يا أولاد.

قال ولد صغير:

- رأيناه ينزل من السماء يا عم.

قال آخر:

- أنه يكذب، رأيته يخرج من شق الأرض.

قلت لهم:

- سأخذ هذا الحمار منكم.

- لن نتركه.. (قال أحدهم).

- سنبيعه يا حمال.. (أجاب آخر).

قلت لهم:

- حسناً خذوا، هذا كل ما لدي.

تلقف أحدهم ما أبرزت من أوراق نقدية، اندفع راكضاً، في أثره هرول الآخرون، فرح الواقد الجديد إلى تركيبة عائلتنا، ظلّ يحك رأسه بي، فرحت (عشتار)، فرحت (منار)، صار لنا زميلاً، صاحب عون ومعروف.

بعد خمسة شهور، أمرت الشرطة تحويل تلك الغرفة إلى نقطة تفتيش، جراء تفشي ظواهر مفسدة بين الناس، ناس تمرر العبوات الناسفة مقابل المال، ناس تخطف أطفال مقابل دفع فدية، من جديد رحنا نبحت عن خرية أخرى، لنطوي ورقة أخرى من سجلات زمان التغيير..!!

* * *

الزميل.. حمار

من مهجع لمهجع، من خرية إلى خرية تمضي سفينتنا، سفينة التماسك والوثام، سفينة الفرخ في زمن ملفوم بالتحديات، زمن شائك بتداخل المفاهيم، تيارات سياسية تتوالد، لشهر أو لشهرين، تتوالد تلك التيارات السياسية، تغدو أمساخ متناحرة، كل تيار ينقسم إلى تيارات، إلى أمساخ هجينة، كل تيار منقسم من تيار (أم)، يتشظى إلى فروع، إلى تشعبات شائكة، تعمل على مص دماء الناس، كل واحد يريد فرض نفسه (رجل ضرورة)، صاحب العقل المدبر والمفكر والريّان، القائد لسفينة صغيرة تمشي بين كواسج لا ترحم في زمن خائس جداً، العالم يتحد، العالم يتجزأ، دول كبيرة تتحد تحسباً لمستقبل غامض، إستجابة لضرورات المستقبل المخيف، تهديد ينمو من رعاغ تريد تدمير كل شيء، تريد حياة تافهة لأنهم تافهون مذ ولدوا، دول صغيرة تتفكك، كل سياسي يطمع أن يغدو رئيساً ولو لأيام.

نحن نمشي.. لا نبالي بما يجري من تراشق كلام، خصومات تتبع خصومات، ربابنة يفادرون البلاد، ربابنة جدد يقودون السفن المتعثرة.

(عشتار) تنمو، لم تعد المهن تجدي نفعاً، صار الناس ينقلون حاجياتهم بمركباتهم، كل واحد صار لديه مركبة، في الغد القريب لم يكن يملك شروى نقير، صار يقود مركبة حديثة، ناس تقول (طلعت الخيسة)..!! لا بد أنك تعرف أيها الكاتب، ياكاتب أسطورتى، ما معنى كلمة (خيسة)، الناس تعني بتلك الكلمة السرقات، يوم السلب والنهب، يوم (الفرهود الوطني).
امرأة قالت لجارتها:

- ليت كل أربع سنوات يتم تغيير الحكومة.

المرأة الجارة تجاوب:

- لا..لا عيني لا، ماعدنا شغل وعمل، كل أربع سنوات نذهب لننتخب (حرامية).
المرأة الأولى تضرب على وجه المرأة الثانية..تصرخ فيها:

- (ولج سخام) لا..لا..حتى(نفرهد) المعسكرات والدوائر الحكومية.

المرأة الثانية تضحك، تهز جسدها قبل رأسها، تقول للمرأة الأولى:

- ومن يقول الأعراب بينون معسكرات جديدة لنا.

صار النقود فلذة أكباد البشر، من سرق، من باع أسلحة، صار يملك مركبة جميلة، شاع البخل، انتشرت ظاهرة السرقات العلنية، لم ينفع قانون بتر الأيدي، ولا كلام الملالي، راح الجوع بلا هوادة أو هوان يعصف ويقصف بالجميع، لا شغل في البلاد، كل شيء محجوز لعصابات تعمل في وضح النهار، الشباب في

الشوارع، الدوائر مفلولة، الرواتب تسرق في الطرق، صرنا من جديد بلا مأوى، وجدنا أنفسنا في مركب الحرية، نتجول من جديد، لا سيطرات تفتيش، لا من يطلب هويتنا، لا من يوقفنا.. يقول لنا:

- من أين تأتون..إلى أين تروحون..!!

* * *

لا يأكل الزميل (حمار) حين ينفد مخزون طعامنا، لا ينام حين ننام، ربما يئسه من الحياة لعدم وجود رفيقة تؤنسه، ليسقيها رحيق العواطف، وجدته على درجة عالية من الوعي، لم ينهق إلا بمواقيت، مع شروق الشمس يوقفنا، عند منتصف النهار يطلق بوق الغداء، عند انتصاف الليل يخبر العالم بمقدم يوم جديد، (حمار) ذو طباع نادرة، ليست مبالغة ما أحكيه، هكذا عايشته وعابشني، رفض أمام شهود عيان تلويث شرفه يوم أدنوا بعض الصبيان منه (حمارة)، تمتم في أذنها، جعلها تهرب، لا يأكل من نبات أحد حتى أوان جوعه، كسرة خبز وحفنة شعير كفاف يومه، لا يشرب من ماء (سيان)، يفهم ما أقوله له، تعلمت بوقت قصير ماذا يريد من خلال نظراته، وصمته الوديع.

قالت لي (منار) ذات يوم:

- لا تسلم أية فتاة سفور من نظراته.

تمتت بخوف:

- ويحك..لا ترفعي صوتك يا(منار)، سيسرقونه منّا.

قالت لي:

- ما معنى هذا الكلام.

قلت لها:

- يمكن أن يفخخوه ضد الأعراب.

قالت لي:

- لم يتصرف كإنسان..؟؟

قلت لها:

- أخشى أنه كذلك.

قالت لي:

- ماذا تقصد بـ (كذلك) .

همست في اذنها:

- ربما هو أحد (المطلوبين الكبار) المرسومين على ورق لعب

القمار، تجسد حماراً كي ينجو من مخالب الأعراب.

همست هي أيضاً في أذني:

- لنراقبه..ربما هو واحد من ضمن قائمة المطلوبين إلى (لا عدالة)

الغزاة..!!

* * *

الزميل (حمار) ظلّ كلما يرى فتاة يبتسم، ترتجف عروقه، تمر فتاة فوق العادة، ملابسها خفيفة، شعرها يسبح بفوضوية، فتاة متحررة مع تحرير البلاد، تمر، تراقص جسدها، تهز رأسها، تريد جعل شعرها أجنحة تسبح في ريح معتدل، الشباب يطلقون زمّارات

مركباتهم، الفتاة تمشي على (وحدة ونص)، الزميل (حمار) يراقب الفتاة المشية بدلال مصطنع، يبتسم، في عينيه فرح كبير، عاشق للحرية، عاشق للتغيير، عاشق لكل ما يبهج النظر، هو الزميل (حمار)، أنظر إليه، خطآن من دموع شفافة ينهمران من موقيه، لا يخفى عليه نظراتنا، أنا و(منار)، يعلم بمراقبتنا له، تأكدت من هذا الموضوع، وجدته يهز رأسه، يغمزني على رجرجات الأرداف المتحررة، والبطون الطالعة لجيل فتيات ظهري عقب انهيار البلد، أسمال شفافة تدلق ألوان الجسد، أسمال غير معروفة من قبل، بطون تبرز علانية، أرداف راحت تقلد عارضات الأزياء، بعدما رفع كل بيت صحن كبير قالوا عنها: يجلب الدنيا إلى البيت..!! لقد سقط النقاب ورفع الحجاب، راحت الأمور تسوء، الصفات تتعثر على إيقاعات الحياة المتلاحقة.

لا أعرف كيف علم الأغراب بما يفعله الزميل (حمار) من أعاجيب تخالف جنسه، داهمتنا قوة ذات ليلة، وقفوا حولنا، وجدنا أنفسنا في كمين مسلح، رشاشاتهم تتجه إلينا، هبطت عيوننا من السماء الساكنة، نسينا كم من النجوم حسبنا، نجوم تلمع، نلاحقها، نضعها في جيب الخيال من فرط فرقمات أحشائنا، والتميل الضارب سيقاننا، بعدما مشينا ثلثي نهار بحثاً عن ملاذ آمن، وجدنا مساحة عشب يابس، خائرون جلسنا، الجوع يهدنا، أخرجت (منار) حفنة تمر يابس، قرصي خبز مجفف، توقفت أيدينا عن رفع التمر، توقفت أسناننا من الطحن، توقفت عيوننا من حساب النجوم.

همست (منار):

- ألم أقل لك أنه ليس بحمار عادي.

همست في أذنها:

- دعينا نعرف سبباً لقدومهم في هذا الوقت.

العزیز (حمار) يطمأنني بإيماءاته، أسكن خوفي عليه، بل أراحني بلا ريب، نرتجف، لا نلوي على شيء، سوى التخلص من الورطة القادمة، أبتسم أحدهم، أشار برأسه دلّ ذلك على لا عدوانيتهم، عادة مفتعلة سرعان ما تجلب الحقيقة إن جاءت النتائج المرجوة تخالف ما وضعوا في بالهم، تذكرت قول مكتوب على جدار داخل مراحيض في أحد المساجد:

- الا تصدقوا أبتسامة الغازي، وراءها دعوة لترك دينك..!!

أخرج أحدهم علب طعام مكبوسة، أدلق ما فيها أمام الزميل (حمار)، رفض الحمار بإباء وكبرياء وشموخ تلويث جسده، رغم يقيني بجوعه، ظلّ ينحت عينيه في، يقرأ ما في عيني من أجوبة، شعر بأن كرامته الحيوانية في خطر، قال لي (ملثم) قصير القامة بصوت مفتعل:

- قل له أن يأكل.

قلت:

- لا يأكل الزميل (حمار) طعاماً أجنبياً.

نقل كلامي إلى العسكري الذي ظلّ ناحتاً زرقة عينيه في

عيني.. قال:

- هل تبيعه.

- جئنا كي نوجه له بعض الأسئلة.

قلت له:

- ومن قال أنه ينطق.

أجاب واثقاً:

- لدينا معلومات كاملة عنه.

نشر العسكري حفنة صور أخرجها من حافظة أوراق يدوية،
وجوه بشرية متباينة، نسائية ورجالية، تكلم بلهجته قبل أن يترجم
(الملثم) ..ما قاله:

- هل رأيت هذه الوجوه.

ظلّ الزميل (حمار) صامداً يحدق في، كأنه ينتظر مني إشارة..

واصل (الملثم) ..كلامه:

- أنت معهم أن لم تهز رأسك.

استدار ووجه ركلة خلفية قاضية، سقط (الملثم) مهشم الأنف،
تلوى زاعقاً، أراد أن يخرج مسدسه من جرابه، أوقفه العسكري
الغربي صارخاً، للموا الصور من على الأرض، أومئوا لي خارجين
بينما ظلّ (الملثم) ماسكاً أنفه بمنديل دامي، يتفرسني متوعداً، لا
أعرف كيف رصد الزميل (حمار) تهديداته، تقدم منه، عالجه من
الخلف برفسة ألقته على بطنه هذه المرة، ندت من الجنود الغزاة
ضحكة موحدة طويلة، ضحكة لا تشبه ضحكاتنا (ها..ها.....
ها..ها.....) أخرج أحدهم كاميرا صغيرة من جيبه، راح يصوره
راشقاً المكان بدفقات ضياء تتفلق.. وهو يصيح:

- كود.. كود..أرب..انو..!!

نظرات غامضة نحو الفتيات الخارجات من جلدهن، فتيات آخر زمن، فتيات العالم المحتل، العالم الفاقد رشده، العالم الفرحان، العالم السكران، فتيات يشاهدن ما يجري من على فضائيات العالم، يرغبن أن يغدون مثلهن، يتحررن، كلما تمشي واحد متحررة، واحد لابسة بنطلون ضيق، لابسة نصف قميص، بطنها يلمع، سرتها بارزة، الزميل (حمار) يحدق، يبتسم، ربما يقول: (هي.. هي.. هي.. هي.. هي.. هي)، ربما يستهزأ، يستهزأ بلغته الحمارية، تلك ميزة نادرة، بوأته مرتبة مرموقة في ذاكرة ناس بلدتنا (جلبلاء)، ميزة ليس بوسعي تفسيرها في هذه اللحظة..!!

* * *

مرة لمح طفلاً - على شارع بلدتنا الرئيسي - يرمي أمه بالحجر، يقف الصبي، يقعي، يتناول حجارة، يلقيها على أمه، أمه غير آبهة بما يفعل، أمه تمشي، الولد يقف، يقعي، يحمل حجارة، يرميها، أمه تمشي، أمه رفضت شراء بندقية ميكانيكية ترمي كرات مطاطية صغيرة، يعرضها صاحب محل تجاري، بضاعة مستوردة جديدة غزت أسواقنا، ألهمت حماس الصبيان، تقدم حماري من الطفل، شاهد عيان أقسم أن حماري تتمم معه ببراءة حمارية غاية في الأدب، توقف الطفل عن بكائه، مسح دموعه بكم دشداشته ركض نحو أمه، شجاعاً نشيطاً مبتسماً، قدم اعتذاره من أمه الواقفة، قبل كفيها، سار معها يداً بيد.. لا حجارة باليد..!!

* * *

لم يستمر نقاشنا طويلاً، وجدنا الزميل (حمار) يمشي جنبه حمارة و(كرتها)، لمحت رجلاً يسرع ورائهم، من فوق البنائيات الخاصة بوحداث الأعراب، لمحت كاميرات ممتدة، تؤرخ الحدث (من كذب) يريدون تصوير ما سيجري، بين حمار وحمارة، تقدم الرجل وعانق الحيوانين اللذين يتبعان الزميل (حمار).. صحت:

- هلم يا رجل خبرنا ماذا يحصل.

صاح الرجل وهو يتقدم:

- لولا حمارك لماتت حمارتي كمدأ.

قالت (منار):

- توقعنا (دولة السيد الرئيس) يزور (جلبلاء).

هز الرجل يديه، قال متهكماً:

- يا رئيس يا بطيخ، ما زلت في غيكم القديم يا ناس.

تقدم منأ، حكى لنا ما جرى، فقدت حمارته إبنتها، ظلّ ينهق، يجوب المتاهات، سمع الزميل (حمار) صوتها الحزين، فهم مبتغيها، تركنا من غير إعلام، رافقها في رحلتها البحثية، بعد يومين وجدوه في بيت قصّاب يبغى ذبحه وبيعه بسبب مقدم (عيد الأضحى)، بسبب ارتفاع اللحم في الأسواق، حالة شاعت، لوّثت أبدان الناس بفقدان الغيرة، وأنحدار الصفات الإنسانية النبيلة.

وقفنا نشهد ذلك الود الحيواني السمع، فطرة الوجود التي تفجرت، قبل أن تتدلع نيران الضغائن والأطماع وتشرذم البشرية إلى أخوة أعداء، تحاور توافق بين حيوانين منسجمين، راضيان بما خصهما الخالق من صفات، لا يعيران ما يجري من حولهما من

هذيان وحمى، حوار صامت، ممتع بين حيوانين كتبت الحياة عليهما الشقاء، إيماءات صريحة تعبر عن وجود مساحات حب صامدة لم تلوثها العولمة البشرية، ولا التكنولوجيا، والتقنيات الحديثة لترويض الشعوب وحيواناتها.

يمكنك أيها الكاتب، يمكنك أن تجد في العالم المحتل حالات نادرة وعفوية، تحافظ على الفطرة، خاطئ من يتصور أن العالم المحتل تفقد فيها الموازين كلّها، موازين الأخلاق تتشطر، تبقى الكفتان متعادلتان، كفة البقاء يساوي كفة السقوط، قل لي يا كاتب، ألم يعلّموا الفئران اللعب بالكرة، والكلاب مسابقات الجري، كل أعاجيب الزمان، الفيلة علّموها اللعب بكرة القدم، القرود، النمور، الأسود تعمل العجائب في ممالك السيرك، كلاب تصيد، تجلب الصيد لسادتها.

تحاول الحمامة العطوفة أن تبقى، تحاول أن تهب نفسها للزميل (حمار) راضية مرضية، ربما ظلّت تتوسل:
- (أنا لك..أنا لك..هيا خذ راحتك) .

لابد أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث بين الحيوانين، حيوانات العالم المحتل تكتسب أخلاقها من المحيط، تعرف بغرائزها ما الذي يجري، تشم رائحة الخطر، الزميل (حمار) حافظ على شهامته، رافضاً تلوّث نفسه رغم حلالية الغريزة، وشرعية استباحتها بين الحيوانات خارج الكواليس، أو على الهواء الطلق، رفض مقايضة أعماله بأي مكافئة مجزية حتى لو قبضة شعير، حسناً فعل.

أسلفت لك كيف كاميرات الأعراب تربصت متأهبة من فوق
أسطح البنايات الأمنية، تمد أعناقها لتقتصص ما توقعت من مشاهد
حيوانية، رغبوا تخليد مشاهد غرامية توقعوها، ما بين الزميل (حمار)
والحمارة المرافقة له، أخذ الرجل حمارته، ظلّ الصغير يتلفت صوب
الزميل (حمار) يتعثر بمشيته حتى توارى عن الأنظار..!!

* * *

غدت حياتنا جميلة رغم حظر التجوال المتواصل، والمعرقلات
المتزايدة في حركة السير، رغم الجوع المتنامي، والمصير المجهول
ليس لنا فحسب، بل للعالم المشغول بأسره من أجل قضيتنا، صار
القتل لعبة يومية، أطفال يقتلون كباراً، أطفال يمشون، في
أنطقتهم مسدسات (غوبلزية) صار الزميل (حمار) من غير تشبيه
طبعاً كلبنا الحارس المطيع الأمين، قارئ مستقبل من نوع الفهيم،
المقرر، لي دليلي الحاسم على ما أقول..!!

* * *

مرة..نمنا في العراء، ليلة تموزية غزت فيها أسراب بعوض مزقت
أعصاب الناس بسبب انقطاع الكهرباء لأيام ثلاثة، احتمينا داخل
(ناموسية) فوق العربة، في الصباح اكتشفنا أنفسنا داخل القاعة
المهجورة، كيف أنهضنا، كيف تركنا منامنا، ظلّت الفكرة
تشغل ذهني لوقت طويل، لقد أتى الزميل (حمار) فعلاً ممتازاً قام
بنقلنا بطريقته الخفية دون أن يوقظنا من النوم، كوننا شككنا
في قضية نهوضنا من النوم ودخولنا القاعة، عرفنا أن ما حدث أمراً

جللاً، شاع الخبر في المدينة أن رهط ذئاب تحوم حول البلدة، ناس أقسموا أنهم رأوا ذئاب ضارية تقترب من البلدة، تريد مدهامة الناس جرأ الجوع، ناس قالت: طائرات أباشي هبطت في الجبال، أنزلت قطعان من ذئاب جائعة في كل محيط بلدة..!! الناس واصلوا نقل الخبر، وجدوه خبراً معقولاً، بلاد ليس فيها سوى ذئاب بشرية، من أين جاءت الذئاب الحيوانية، تلك الذئاب هاجمت بضراوة البلدة في منتصف الليل، أنتظرت قبل الهجوم إختفاء القمر، قتلت عدداً من الحيوانات السائبة، كل الكلاب المتواجدة في الأزقة، في الصباح وجدنا آثار أقدام ذئاب مطبوعة على مكان نومنا، ليس ذلك فحسب، بل قام الزميل (حمار) بإسناد باب القاعة بجسده، ربما ناضل نضالاً حمارياً، ظلت الذئاب تجتهد، تتاضل من جانبها نضالاً ذئبياً، صمد الزميل (حمار) وفرت الذئاب، أو تخلت عن فكرة النصر على شيء عنيد، صامد يحجب أو يعارض دخولها إلى قاعة مظلمة، قاعة تقذف إلى الليل شخير بشري مغري، قدمت له في ذلك الصباح قطعة حلوى، هز رأسه، رفض أن يأكلها، أشار نحو (عشتار) رفضت هي الأخرى بدورها أن تأكلها، تدخلت (منار) وحسمت القضية بعد أن قسّمت قطعة الحلوى إلى نصفين متساويين، رضيا بالحل العادل..العادل جداً، التوافقي، الشراكة، بين إنسانة من العالم المحتل، وحيوان يسكن ذات العالم.

أكتب هذا أيضاً أيها الكاتب..!!

* * *

مرة.. رغبتنا أن نمشي في سوق البلدة، صدحت مكبرات صوتية، أصوات تتادي بالخروج إلى الشارع، تدعو الناس أن يتركوا أعمالهم، أن يغلقوا محالهم، توقف الزميل (حمار)، رفض أن يمشي، عرفت أنه أتخذ قراراً حاسماً، لا بد من موافقتنا على ما قرر، بدأت زمر الصبيان تركض بإتجاه أصوات المكبرات، الحمار واقف، أحاول إقناعه بالسير، للخروج من الزحمة التي بدأت، الناس تتراكض، بدأت الناس بغلق محلاتهم، إستدار الزميل (حمار)، بدأ يدفعني مع الناس، الزميل (حمار) حين يتخذ قراره علينا أن نطيعه، بين راغب وغير راغب، وقفت أنظر إليه، فجأة إستفاقت البلدة لسيل رشقات بنادق، علت هتافات، بدأت البنادق تطلق من كل جهة، صارت البلدة في يوم حرب، بدأت جموع الناس تركض، تتدافع، رجل تعثر بخرسانة كونكريتية، سقط، قام، وضع يده على رأسه، هرول، أطفال يتراكضون، نساء يلهثن، أنا والزميل (حمار) لا نتحرك، هو رفض أن يتحرك، أحاول سحبه، يحاول أن يدفعني لأركض مع الراكضين بإتجاه رأس السوق، وقفنا لساعة كاملة، ساد الهدوء في البلدة، مركبات الشرطة بدأت تزعق، الناس تناثروا، بدأ الزميل (حمار) يمشي، أنظر إليه، في عينيه عتاب صريح، يستوضحه ببطء سيره، وصلنا مأوانا، (منار) أستقبلتنا..قالت:

- لما تأخرت.

قلت لها:

- حضرة الزميل رفض السير.

قالت:

- خشيت عليكما من الذي حدث.

أجبتها:

- لا نعرف ما الذي حدث.

قالت لي:

- سمعت من النساء، (ثورة) ضد الحكومة.

أجبت مستغرباً:

- تقولين ثورة.

قالت لي:

- نساء يقلن، الناس هجمت على بناية البلدة، تريد أن تستولي

على سلطة البلدة.

قلت مستغرباً:

- مهابيل.

قالت:

- كيف.

قلت:

- يبدو أنهم نسوا أن الغزاة في الجوار.

قالت:

- لا أعرف.

قلت لها:

- غداً سيفرلون المنازل، سيزجون الشباب في زنازين التعذيب.

شاعت الأخبار، أرهأط من الناس، تريد أن تغير السلطة

الحاكمة في البلدة، حشدت صبيان، نساء تستروا في مكان أمين، الناس الأغبياء، الفقراء، المساكين تناضل وتضحي، تأتي ناس تجلس على الكراسي من غير نضح عرق جبينها، تلك هي فلسفة الثورات التحررية في أصقاع العالم المحتل، بدأت العمليات الصغرى، العملية الأولية، شرارة اللعبة، رشقوا الشرطة بالحجارة، الصبيان بدؤوا بشرارة الثورة، لا بد هناك من خطط للثورة، وضع في الحسبان الصبيان، كل صبي في جيوبه كميات كبيرة من الحجر، تقدمن النسوة، أقتحن بناية السلطة الإدارية، يتصايحن، يندفعن، الشرطة باغتوا الثوريون الجدد بسيل من الرصاصات الحية، أمطروا المتظاهرين برصاصات لم تخطئ، قتلوا كثيراً من الصبيان، وقليلاً من النساء، ناس قالت: الشرطة حصلت على معلومات حول الموضوع، وتهيأت على أكمل وجه للحالة المتوقعة..!! ناس قالت: ناس معروفين ذهبوا إلى الغزاة، وحصلوا منهم الأذن بعمل مسيرة سلمية، من باب الديمقراطية، وحرية الرأي، احترام رأي المعارضة..!! إستجابة لصريخ أفواه السادة المسؤولين في نداءاتهم المتكررة، للم شمل الناس الخائفين على مستقبلهم المعيشي، مسيرة هدفها تحريك السلطة الحاكمة لتوفير الماء الصالح للحياة، والكهرباء، يطالبون فيها صحة ما تنفوه بها الفضائيات والصحف حول إلغاء العمل بنظام (الحصة التموينية)، الغزاة سمحوا لهم بالمسيرة، لكن (المسيريون) خططوا لفعل كبير وخطير، وضعوا رشاشات جاهزة لقذف حممها في لحظة حاسمة، وضعوها تحت عباءات نساء متحمسات أكثر من تحمس الرجال،

خابت هجمتهم، فروا من حيث أتوا بعدما أخبر الغزاة شرطة
ورجال حماية البلدة، أخبروهم بما سيجري في الخفاء، علموهم ما
عليهم التحضير له، توقعوا غدر المحتشدين في المسيرة السلمية،
الأغرب لا يثقون بأحد، هم غرباء، البلدة لم تصالحتهم لما دخلوها
من غير مقاومة، ناس قالت: لا بد من وجود وشاة مندسين بين
المتظاهرين..!! تم فرض حظر التجوال، تحول الليل إلى جحيم
متوقع، مركبات تمرق متسارعة، بنادق تطلق رصاصاتها، لا أحد
يدرري ماذا يجري تحت جنح ظلام دامس، في الصباح تناقلت بعض
الألسن، أخبار ما جرى في الليل، جاؤوا مسلحين كالجراد، لا
أحد يدري من أين جاؤوا، ناس قالت: الغرباء أو الأعراب كما
يحلوا للبعض وصفهم لم يسمحوا للرجال المسلحين الزاحفين
لدخول البلدة، خافوا من تحول القضية إلى تصفية حسابات
مؤجلة..!! المسلحون تركوا مركباتهم في بوابة البلدة المنيعة،
تسللوا ومشوا كثيراً، أجتازوا النهر من أماكن مؤهلة للعبور،
داهموا بيوت المعارضة، بيوت رجال الحاكم القديم، ناس تقول:
لديهم أسماء كل من آذاهم..!! حان موعد رد الدين، ناس منعت في
السابق تمرير مواد غذائية وصفائح البترول للعبور عبر السيطرات
التفتيشية لرجال السلطة المنقرضة، بعضهم فر مع التحرير،
بعضهم قال: أين نروح فليكن ما يكن حتى لو ذبحونا..!!
المسلحون نقلوا شبابهم ورجالهم إلى مكان مجهول، ساد الرعب في
البلدة، لا أحد يخرج خشية اعتقاله، قلت لـ(منار):
- الزميل أراذني أن أثور معهم.

رمقني الزميل بنظرة غاضبة، هز رأسه علامة النفي.

قالت (منار):

- ماذا فعل.

قلت لها:

- دفعني مع المندفعين.

ثانية نحت الزميل (حمار) عينيه في، تقدمت منه وعانقته، سحب نفسه، مشى أمتار واقعى زعلاناً، تقدمنا منه، أنا و (منار)، أقعت (منار) أمامه، ندم على فعله، قام، وقف بيننا، عاد، نام بالقرب منا، لم تفعل (منار) سوى قبلة سريعة طبعتها على غرته، مختصر مفيد، حمار فوق العادة، ليس له شبيه في تصرفاته، ناهيك في الليالي الصافية، يقعي أمامنا، يرفع عينيه، بفراسة يتأمل الفضاء، ليس ذلك فقط، فهو مغرم بمتابعة الكواكب السيّارة، أنبل ما رصدته فيه أنه يستدير كلما يمر الأغرَاب يعطيهم ظهره، يحرر ريحاً مصحوباً بفرقة من دبره، أليس من حقي أن أخاف عليه، حمار نادر في زمن تكاثر فيه الحمير الناهقة من على منابر الزيف والدجل، لم تعد الحمير نافعة، لم تعد مركبة مؤهلة للخدمة، بعدما صار لكل إنسان (منيفيست).

* * *

تم بواسطة الزميل (حمار) إلقاء القبض على ذلك الرجل الذي سرق (كرة) الحمامة، رجل بلا ضمير، يسوق الحمير إلى منزله، ينحرها ليبيع لحمها للناس والمطاعم، شاع الخبر في البلدة،

(صاحب المطعم الشهير يذبح الحمير) بدأت أحشاء ناس تتقيأ ما أكلت من كباب طيب، كباب رخيص وطيب، إندفعت جموع بشرية، تهذي، تعصر بطونها بإتجاه مشفى البلدة، لم يجد مدير المشفى سوى مادة غسل البطون الباقية في صيدلية المشفى، وجد الجموع البشرية تتكاثر، أفرغ العبوات في خزانات المياه على سطح المشفى، دخل المصابون بداء التقيء و(لعبان النفس) إلى الردهات، ليس هناك أسرة طبعاً، كل شيء سرق من قبل أبناء البلدة الحرامية، أولاد الكلاب التي سمحت لأبناها أن تسرق ممتلكات بلدها، طرح الأجساد الهاذية على الأرض، طرح قسماً منها في الغرف، طرح قسماً منها في الممرات، راح يدلق إلى الأفواه المغفورة جرعات من سائل غير مستساغ، بدأت الأحشاء تتفاعل طردياً مع السائل الأخضر، بدأت تدلق سوائل صفراء، قامت قيامة رائحة كريهة، كل مصاب ظل يتقيء مخاطاً أصفراً مصحوباً بدم شاحب، تحولت الردهات الست والممرات الخمسة، والغرف العشر إلى قيح متفاعل من سائل مخاطي راح يمشي كماء المجاري، بأتجاه الباب الرئيسي، وقف المحتشدون أمام الباب، يحاولون إقناع رجال الشرطة للدخول، إنتهوا لسائل أصفر يزحف، يزحف كسيل ماء جارف، بدأت رائحته غريبة، بدأت أفواه أخرى (تقوع) (أوييييع..أوييييييع..قوييييع..قوييييع) هرب رجال الشرطة، ناس قالت: رموا أسلحتهم وهربوا..!! ناس قالت: لا أنهم نسوها كونهم لا يحملونها أثناء التفتيش..!! بدأت الجموع تتلوى، أرجلهم نابته، سقطوا قبل أن يجرفهم السائل المخاطي الزاحف من

أفواه أربعمئة فم لأجساد أكلت كباب طيب من لحم الحمير، كباب مطعم رجل بلا ضمير، نحر كل الحمير السائبة، حمير العالم المحتل، كان الكباب رخيصاً الأمر الذي شجع الناس على أكله.

* * *

واصلنا نحن أصحاب العربات نقل المقيثين إلى المشفى، ندفع ونقيئ، تلك الحادثة، يعرفها الناس، لا تتفوه بها، مجرد تلميحة واحدة لها، تبدأ الأحشاء بالتقلب والتقيء، الأمر الذي دعا رجال البلدية حرق المشفى، وبناء مشفى جديد في مكان آخر، تحول مكان المشفى القديم، إلى مقبرة حديثة، أهالي البلدة رفضوا دفن موتاهم فيها، من باب عدم طهارة المكان.

القيء الذي سال من المشفى، زحف بعيداً، جاءت قوات المطافئ، إستعملت خراطيم المياه القوية، أختلط السائل الأصفر بالمياه، جاءت (بلدوزرات) عملت سواتر ترابية مستعجلة أمام سيل أصفر زحف بإتجاه البلدة، المشفى في مكان عالي، البلدة تحتها، توقف السيل، فتحوا مجرى أمامه، فتحوه بإتجاه نهر (دلبلاء)، الذي جف ماءه ما أن لامس جرفيه السائل المخاطي المقيث، تم سوق الرجل صانع الكباب من لحم الحمير إلى السجن، ناس قالت: تم تهريبه إلى الخارج بعدما دفع دفاتر دولارات..!! ناس قالت: الأغنياء لا سجون لهم، أطلقوا سراحه، لأن الحكومة مشغولة بالإرهاب ولا عليها بالكباب..!! الناس زحفت ليلاً، نسفت بيته

الكبير، دوي هائل زلزل البلدة، في الصباح تناقلت الألسن الخبر: بيت ذابح الحمير نسف..!! وتم حرق مطعمه أيضاً، بعد ليلتين من نسف بيته، تسلل رغم حظر التجوال نقر من الشباب، كسروا الأقفال، وضعوا ديناميت (شكري) في المطعم، برق ومض، خطف أبصار من رآه، لم يحدث مثله دوي، ناس تقول: الشباب دفعوا للحراس في السوق وعملوا عملتهم (البيضة)..!! بدا الكلام مقنعاً، إذ ليس بوسع شاب مهما أمتلك من جرأة، حرق مطعماً يحاذي بناية الشرطة في صدر البلدة، حدث ذلك أيها الكاتب، بعد يومين من إطلاق النار في سماء البلدة، يوم فرحنا بعودة الزميل (حمار) ترافقه حمارة و(كرتها)، على عكس ما تصورت (منار) مجيء (دولة الرئيس الجديد) لزيارة مدينتنا التعميسة (جلبلاء).

* * *

دائماً أتحدث معه، يمنحني كامل وداعته، طلبت منه أن لا يبرز مفاتن عقله إلا باحتراس، أو يأتي بخارق عمل يجذب انتباه الناس، واثقاً يسمعي، يهز رأسه، موقن من قدراته العقلية، إمكانياته في النجاة أو ان المواقف المحرجة، مختصر مفيد، حمار واثق جداً من مستقبله، رغم ضبابية مستقبل العالم المحتل..!!

* * *

عشية ليلة الرحيل النهائي من خرائب بلدتنا (جلبلاء)، لم نرغب بالنوم، ليلة الرحيل تتابنا الهواجس، هي علامات فارقة، تغزونا لتسكننا، نشعر بهواجس الرحيل، نتحسس ببوادر تدفعنا أن نفتح

عيوننا، نطرح أجسادنا على فراشنا البسيط، تتجذب أحاسيسنا إلى ما يجري في السماء من تبدلات في حركة المجرات الكونية، سماء العالم المحتل لا تشبه سماء العالم المتحرر، سماءنا تبكي، بكاء بلا دموع، كابية هي سماءنا، نجومها لا تلمع، نجوم العالم المحتل لا تشبه نجوم العالم المتحرر، نجومنا لا تشع بوضوح، كل شيء حزين، نتأمل الفضاء المزجج بمصاييح كالحبة، جرّاء توافد موجات دخان قيل أنها حرائق وصلت، من منابع آبار النفط بعد سلسلة تفجيرات، أوقفت الصادرات النفطية تماماً، ناس قالت: الأمريكان تدفع شباب متعاونين معهم لحرق تلك الآبار، لأنها تضرب عصفورين بحجر، الحجر الأول رفع المنتجات النفطية ليساوي سعرها أسعار السوق في البورصات العالمية، الحجر الثاني، كي تجلب شركاتها من أوروبا وأمريكا لتعمل على إعمارها بعد إخمادها مقابل فلوسنا..!! ناس أضافت حجر آخر: الأمريكان لا يريدون البدء بتعمير البلاد في الوقت الحالي، كي يبقوا أطول فترة ممكنة، بقاءهم كما زعموا يتعلق بمسألة الإرهاب، السلام يعني عليهم المغادرة..!! ناس قالت: ناس لا يملكون نفط، لا يملكون غاز، لا يملكون كهرباء، أحدثوا ثقباً في أنابيب البترول ليأخذوا (جلكانات بترول) كي (يمشوا) بها أمورهم المعيشية..!! اقوال كثيرة تتناقلها الألسن يا ترى من أين يجلبونها.

شيء لا يعنيني، تعلمت من الحياة أن أسمع وأمشي، لا أضيف شيئاً على ما أسمع من عبارات، كلام من أفواه الناس، ساد الفضاء جواً خانقاً، بدأنا نشعر بطعم النفوط المحروقة تزكم

مع الفجر نهضنا، أجسادنا مرتاحة رغم قلة النوم، صلّيت لله، الذي وهبني (منار) وهبني (عشتار) وهبني الزميل (حمار) نجاني من هطول الصواريخ القارية، الصواريخ التي عبرت المحيطات والقارات لجلب (النور) إلى بلاد فقدت نورها، صلّيت للذي وقّاني شرور الأشرار، جعلني من أهل التواضع، لا يطمع في شيء فائض عن احتياجاته، حمدته لأنه لم يجعلني من أهل الجشع، أهل الخطف، وجدت الدوليين مملوئين بالماء الحلو، ماء جلبته من مقطورة طويلة لمنظمة (إنسانية) تقوم بتوزيع الماء المعقم على الناس، ماء صالفي، نقي لا أدري من أين يأتون به، المنظمة تقوم بتوزيع الماء على المناطق المنكوبة بعدما توقف زحف الماء إليهم جرّاء العبوات الناسفة، والحفر المتواصل لبناء بيوتات متجاوزة، وجدت (عشتار) فرحة، (منار) تترنم بصوت غجري عذب، شيء ما يسكننا، ودود وملهم، للمنا متاعنا، بدأنا نشد الرحال، صوب (الشمااa

إلتفتنا، بدت البلدة متكاسلة، تتصاعد ألسنة الدخان من أماكن
عدة، ألقينا نظرة الوداع الأخير، وارينا سنواتنا الثقيلة بحفنة
دموع، دموع العالم المحتل، الدموع التي لا تنتهي، بدأنا من جديد
نفتح ورقة أخرى، ورقة جديدة من كتاب الرحيل..!!

* * *

أنا.. نوار

آه..كدت أن أنسى نفسي، من أنا..!! ياترى أنا من..!! لا أحد يناديني بأسمي، يقولون عني: الحمّال..!! يقولون: الولد العملاق..!! فيما بعد صار البعض يناديني، (بعل الفجريّة)، الأغلبية الغالبة لا تعرف أسمي الحقيقي، أنت تريد أن تعرف كل شيء عني، لا بد من معرفة أسمي، جدّي لم يعرف أسمه أحد، يقولون عنه: حمّال (جلبلاء)..!! يقولون عنه: الحمّال المعجزة..!! فقط لك أبوح أسمه، أسمه الحقيقي في زمانه (كسّار)، ناس نادته (جسّار)، الباشوات الأتراك، حين تعلموا مكاسير لغتانا، نادوه (ميسور ركبة) قصدوا (مكسور الرقبة)، لا أحد يعرف في البلدة سوى حكايات بعضها مصطنعة، حكايات خارقة عنه، أيها المتابع حكايتي بصبر، القابض بيد مرتجفة على كومة جمر، في زمن يتغير حسب المزاج والرغبة، زمن لا يستقر، زمن يومض، ينطفئ كالبرق. أرجوك أيها الكاتب المتابع لإسطورتني، قد وقّيت لك بما حكيت عن (منار) و(عشتار) والزميل (حمار)، حسناً.. عليك أن تذهب معي إلى زمن بعيد، زمن يتذكره الناس، أهالي بلدة (جلبلاء) هم أهل المحن الكبيرة، ناس الكوارث، فيضانات

حصدت أرواح جميلة منهم، أوبئة قوّضت نفوسهم، أقوام غازية مروا بهم، نهبوا خيراتهم، سرقوا بناتهم، حروب سحقت الكثير من أجدادهم، بلدة أرّخت أزمنتها بالكوارث، تلك هي التواريخ المعروفة لكل مرحلة مهمة من مراحل المدن التي لا تنتصر، لكنها لا تزول.

في بلادنا الكوارث هي نقاط حاسمة، تعكس مثل المرايا ما هو نقي، وما هو مزيف وقميء، لا بد أنك قد سمعت ولو شيئاً هامشياً عن تلك الأزمنة العصبية، أزمنة بلادنا البائسة، فتاريخنا يعرف بالكوارث، الناس حين تتحدث عن زمان بعيد، بعيد جداً: تقول زمن كذا وزمن كذا..!! زمن الفيضان، زمن المجاعة، القحط، الملاريا، الجراد، الموت الجماعي، الهجرة الجماعية، غزو الفرس، غزو آل عثمان، غزو الروس، زمن (الأنكريز) يقصدون (الإنكليز).. ووووو..ألخ.

لكن أكثر دقة في تحديد الزمن، كي تتمكن منح نفسك، فرصة مقنعة لمواصلة، لمتابعة ما أحكي لك، كي لا يتعثر قلمك في تدوين أسطورتني الشخصية، تذكر إن أساطير الغرب بنيت على التهويلات غير المقنعة، بنيت على خرافات، (هرقل) محطم السلاسل، (كيوييد) صاحب السهم العاطفي، (سيزيف) حامل آلام العالم، أساطيرهم تحكي بلا قيود أخلاقية عن العالم السفلي، والعالم الفوقي، لا أحد يذكر أساطيرنا، فقط (كلكامش وأنكيدو) قاهرا (خمبابا) حارس غابة الأرز، لا أحد يكتب أساطير ملوكنا الكبار، ملوكنا، البابليون، الآشوريون،

الكلدانيون، الساموريون، ملوك لهم حكايات فوق مستوى الخيال، من المسؤول عن عدم تخليدهم في أساطير روائية، لا بد أنك تلقي باللوم على الكتاب، لا بد وضعت نصب عينيك الكتاب الذين لم يقرؤوا أو لم يفهموا تاريخنا العريق، عليهم ستلقي اللعنة، لا تنسى للحكام دور بارز في تهيش وتقويض لمعان تاريخنا التليد، لم يمنحوا الكتاب فرص ملائمة لكتابة ما هو مفيد ونافع ومثير للذائقة الغربية.

* * *

أريد أن نبدأ من منفذ آخر، منفذ الواقعية غير المهندمة، الواقعية الأسطورية، أريدها واقعية أسطورية، أنا أريدك أن تبني أسطورتني على الصدق، وحده الصدق يمهد المسافات الأمانة المنيرة لمن ضلّ دربه، أو يبغى المغامرة بحثاً عن مجوهرات غامضة ولو في أمكنة من سراب، الصدق مفتاح التغيير، مفتاح لا يصدأ، حسناً ركّز علي الآن، نحن في صيف العام (١٩٥٠)، تصور نفسك، أنا مجرد كومة لحم في (قمّاط)، ناس تقول: جائحة غربية لفت مدينتنا (جلبلاء)..!! هناك من يثبت بالدليل القاطع، أن تلك الجائحة السوداء، كما يحلو للبعض وصفه، عصفت بالبلاد من شمالها لجنوبها، من شرقها لغربها، من فقيرها لغنيها، نفق كل رضيع هبط في ذلك العام المشؤوم، قبل أن تكتشف جدّتي لأمي الدواء المخلّص، قيل أنها كانت من مصادفات القدر، لكنها أصرّت أنها تمتلك ميزة تخليص الرضع من أوجاعهم، كرامة

توارثتها أمماً عن جدّة، لم تتورع من التصريح بخصوص طرقها في معالجة الأمور، مختصر مفيد، فلسفتها العلاجية تكمن في معرفة غريبة، توجزها في سطر واحد، (القدارة توقف زحف القذارة)، (المرض جراثيم تطردها جراثيم مضادة)، هكذا كانت تردد أقوالها على كل امرأة تلوذ مترددة بها، لك أن تصدق أو تفند ما أرويّه، حكايات شائعة في مدينة تجترح رقعة أرض عشوائية منسية، مدينة تحتفظ بخصوصيات نادرة، ناسها بسطاء، ظرفاء، ضعفاء الحال، تلمهم خصال العفوية، البساطة، التندر، قبل أن يزحف من القرى القصية فلاحون أحدثوا خروقات تربية في الطباع، جاؤوا هاريين من الجوع، بعدما قامت الأقوام الغازية بحجب الأنهر لصالح مصالحها، أو محاولة (شوفينية) لترويض وترهيب الناس، ولفك الأواصر، وتضعيف البشر، كي يتواجدوا من غير مقاومة منهم، تركوا أراضيهم، زحفوا إلى البلدات القريبة، عملوا بيوتات من صفائح، جلبوا ممتلكاتهم الحيوانية، باعوها، صاروا أغنياء البلدة، وقريهم الحاكم فصاروا خلصاء.

* * *

جدّتي لا تتردد من وصف أي شيء يطرأ بذهنها، كلما تهرع إليها امرأة مكتوية بعلّة رضيع أو رضيعة، كثيراً ما سردت لأمي أشياء لا معقولة، وصفات فوق العادة لكل علّة، على ما أظن حاولت أن تدرّس أمي، كانت تعيد الخلطات العقارية والأعشاب الغريبة في محاولات تعليمية لمهنة أضحت مربحة في زمن المجاعة

الكبرى، أرادت أن تورثها مهنة تدر ربحاً وفيراً، توصف إدرار الأطفال لعلاج (التراخوما)، بول الإناث ممزوجاً بزيت الخروع للرشح، لا تتردد من اللجوء إلى براز الحاملات كي تخنق دماغها تستعمر الأجساد، كانت تخزن كميات كبيرة من أدوية عملها في البيت، مساحيق لحشرات جافة، كالسلاحف، السرطانات النهرية، القنافذ، عظام الطيور، بيوض (حيّة أم سليمان)، خلطات من أعشاب، نباتات، أزهار برية، ليس بوسعي أن أذهب أكثر من ذلك كوني أجهل من أين تعلمت كل ذلك الطب الشعبي الذي وفر لها سمعة نادرة ومالاً لا يقطع، زد على ذلك أنها لا تتاجر بالعقاقير من أجل كسب المال الكثير، ترضى بالبيض واللبن والسكر والحنطة بدلاً من المال من قبل نسوة يأتين من القرى التي ظلت تكافح وتقاوم رغبة الهجرة المتنامية، أمي لجأت إليها بعدما تدهورت صحتي، فشلت تجاربها في إسعاف، مضيت على حد قولها أجف، أنقيئ ما أشرب من حليب مع إسعالٍ شديد لا زمني، عملت أمي ما بوسعها كي تحتفظ بأخر ورقة، من أوراق عائلة يائسة دفنت الرضيع تلو الرضيع بسبب فقر الحال، قالت أمي: لولا أمي لنفقت كما نفق أخوتك..!! تقول أنها ظلت تدلق في فمي حليب الحمير ممزوجاً بمسحوق الثوم، استعدت كامل صحتي، بل غدوت ما أنا عليه من جسدي ممتلئ عافية وقوة، ذلك العلاج صار شعلة الشفاء لجيل كامل، تناقلتها الألسن من أمي، راحت تنتشر وتورخ الزمن الذي صار زمناً تعيساً، إلتهم آلاف الرضع، زمن حليب الحمير، لا تستغرب أيها العزيز، أكتب كل هذا، أكتبه على

لساني، أنت فقط ناقل أمانة، الحكاية أمانة ثقيلة، لا تحرف ولا
تغير كلمة واحدة مما أقول، أكتب.. لا تخف، لا أحد يحاسبك
على ما تكتب، الحكومة مشغولة بمعالجة الأسلحة المشهورة
عليها، لا تهتم بالأقلام المشهورة عليها، الأسلحة تقتلها، الأقلام لا
تقتل، الأسلحة ترمي رصاص قاتل، الأقلام ترمي رصاص غير
قاتل، أكتب، لا تخف، إن لم تكتب، أنك خنت الحكاية.
لا أخفيك سراً، إن قلت لك أنني أحمل في بدني قوة هائلة، قوة
توهلني أن أمشي كثيراً، أنوء تحت أحمال ثقيلة، أكل بلا شع،
أتحمل الجوع أيضاً، ترعرعت على يسر الحال، من بيت لبيت،
أمي تنتقل للعمل كخادمة، دائماً تطرد بسبب أبنها، أعني (أنا)
كثير الأكل، أيام كثيرة نبقى في حدائق البلدية، قبل أن نتفاجئ
برجال أمن يطردوننا، يشبعونها، يشبعون مسامع أمي تقريباً،
يخالونها، يخالون أمي امرأة سوء، امرأة تنام في الحدائق مع
السكران.

ماتت أمي، كنت في العاشرة من عمري، أخذتني عجوز
صديقة لجدتي التي ماتت قبل موت أمي بسنة ونصف السنة، قيل
إنها أنقذتها من داء استشرى تحت سرتها، امرأة لا تنام الليل، ليس
بوسعها المشي في السوق، امرأة مشغولة بتهدئة ذلك المكان الأثير
أسفل سرتها بأناملها، شيء لا يسر الأنثى بطبيعة الحال، عيون
البعول قنّاصة، تبحث عن منافذ الشهوة بعدما ماتت الرغبات،
نامت الشهوات جزاء العولة، نعم يا كاتب العولة جعلت من الرجال
مخانيث، النساء (نمرات ضاريات جائعات خفيفات)، ظلت جدتي

تفعل مملكتها المحرمة ببول الشباب مخلوطاً بمساحيق تهيئها من دق عظام تلتقطها من القمامات، تأتي بالبول، تقوم بغليه على النار، تخلطه بالمسحوق، تضيف أشياء أخرى، أشياء لا تعلن عن أسماءها، (سر المهنة)، يقولون جدتي أو ان العمل، تتمم بكلمات غريبة ومبهمة، تتممات ظلّت (أسرارها الكبرى)، لم تبج بها لأحد، تلك هي أسرار مهنتها، خشت أن تتفشى أسرارها، ستجد من ينافسها في العمل، رفضت إعطاء التتممات حتى لإبنتها الوحيدة، أعني أمي، جدتي تقوم بغسل مملكة تلك المرأة، التي صارت فيما بعد لردح من الزمن مثل أم رؤوم لي، ثلاثة اغتسالات في اليوم، شفيت تلك المرأة وصارت خير أنيسة وصاحبة لها، يقيناً ستسأل من أين تأتي جدتي ببول المراهقين على أدق التعبير، جدتي لأمي فرغ لها، صار ذراعها اليمين الأمين، يذعن لرغبتها، طالما المال في البال، ذهب إلى (مخبري) له صلة سلام بينهما، (مخبري) جاء غريباً إلى البلدة، بحث عن مسكن، ساعده الجد، حصل على بيت مناسب، طلب منه قارورة (بول) كل مساء لمدة سبعة أيام، لم يستغرب المخبري، لم يسأل، كونه طلب شاع في ذلك الوقت، بسبب تفشي مرض (التراخوما) لدى أطفال البلدة، وجدوا (البول) الذي وصفته جدتي، خير علاج لمرض وجد عيون أطفال العالم الثالث، العالم المحتل، أفضل مستعمرة سكن، راح (المخبري) يطلب من كل عليل إداره بغية الكشف والتحليل، في البدء واجه اعتراضات روتينية طبعاً، إذ ليس من المعقول أن يدفع كل زبون مبلغاً من المال مقابل شيء لا يريده، خارج حساباته

المرضية ، (المختبري) أشعرهم بعدم أخذ ثمن مقابل ذلك.
كل مساء يعود جدي حاملاً قارورة (بول) مراهق لجدتي، على
أية حال، تلك العجوز جعلتني ولداً لها، بعد رحيل أمي من بعد موت
جدي، جدتي، طبيبة المدينة الأعجوبة، سردت لي حكايات
كثيرة عن جدي العاشر، أقصد (كسار) أو (جسار) أكتبها
كما يحلو لك، أو بالأحرى أكتب الأثنين معاً، نعم معاً أكتبها،
جدي الذي شغل المدينة في زمنه، أقصد (جلبلاء)، الرجل الذي
أسس أول عربية يجرها بغل، صار ذو نفوذ لدى الرجال المهمين،
صار الحاكم بعدما قتل بمديته الحاكم الدكتاتور، قبل أن
يفدوا فقيراً مسكيناً، مرآه يجلب الأسي لدى محبيه، ناس تقول:
تعلّم من الأغنياء لعب القمار واحتساء الخمر واللعب مع نساءهم..!!
يوم أفلس أنكروه، صار مدمناً يجوب الشوارع قبل أن يموت على
قارعة الطريق، ظلّ أيام مطروحاً، لا يقترب منه أحد، حتى
الكلاب الجائعة، والقطط المتوحشة، رفضت ان تقترب منه،
خشوا من كونه نائم، قبل أن تتبخر جيفة جسده، تقدم رجال
البليدة، دفنوه في قبردارس ضاع عنه الشاهدة، كلام يردده
الناس عن النهاية التي لا تسر، سيرة رجل صار مضرب الأمثال،
ومادة للمصنقات رائجة للرسامين والحمالين لوقت طويل.

صرت في الثاني عشر من عمري يوم ماتت العجوز، لم أقض
سوى أسبوعين في الدار بعدما تيقنت أن البيت صار ملكاً لي،
أناس كثيرون برزوا من العدم، صاروا أحفاداً لتلك العجوز التي
أخذتني ولداً لها، كلهم خرجوا من عالم النسيان طمعاً بالإرث

المتواضع، بيت طين، طردوني، وجدت مهنة جدّي العاشر خير
منقذ من غلواء الزمان..!!

* * *

سمّوني (نوّار) لسببٍ قد أقنعهم لحظتها، سمعت مرة أن أسم
كل مولود منحوت في ذاكرة أهله قبل مجيئه، أسم قد يفرض
نفسه في وقت متأخر، تجد أن الناس تكنى أنفسهم بأسماء
سرعان ما تتبدل تلك الأسماء عند ولادة مولود لهم.

(نوّار) أسم غير مألوف في مدينة لا تعرف من الحياة سوى
الأكل العادي، النكاح الروتيني، النوم المتوارث، الثرثرة،
الجدال، الخصومات التي لا تنتهي، هذا في زمن قبل التغيير، قيل -
الناس تردد هذا - أنني نورّت بيت أبي وأمي بعد تضحياتٍ جسام،
قيل - الرجال يقولون - أبي هو الذي سمّاني، قيل - النساء يقلن -
أمّي هي من طرحت أسمي على طاولة السعادة، ثمت من يذهب -
كلام متفق عليه بين الرجال والنساء كحلٍ وسطي مرضي
للطرفين - جدّتي أعجوبة وقتها، قامت بتسميتي، سارت أيّامي على
وتيرة لا تتغير، العمل في النهار، المنام في فندق البلدة الوحيد،
حدث هذا بعد موت أبي وأمّي وموت الجدّة، التي نشرت أسطورتها
إلى أصقاع كثيرة، بأعاجيبها الفريدة في معالجات الحالات
العرضية والمرضية النادرة..!!

* * *

أبي شقّ لنفسه إسطورة في ذاكرة التاريخ، أقصد تاريخ (جليلاء) تقول إسطورته، عندما شبّ عن الطوق، عندما صار في الثانية عشر من عمره، سرق أمي من بيت أهلها، أبي رغب في كسب ودّها، أمي رفضت محاولته، صدته لمرات قبل أن تجد نفسها بين أحضانه في مكان غريب.

أمّي تسرد حكاية زواجها للنساء، تتباهى بينهن، هكذا قالت لي تلك العجوز التي صارت بمثابة أمّي لفترة من الزمن، تلك العجوز التي عالجتها جدّتي، أنقذتها من الحكّة المستشرية تحت سرّتها، قالت لي ما قالت أمّي أمامها، ذات صباح خرجت إلى النهر، خرجت تحمل دلوها لتجلب الماء، جلست على حافة النهر، زلق قدمها، صرخت، نادت، لم يسمعها أحد، أمّي مصيبة جيلها، كانت تعرف السباحة كما يعرفها الشباب، ظلّت تصارع الموج، موج عرمرم جارف يتبعه موج، إنتبهت لولد يمتطي صهوة حصان، لم تلمح ملامحه في البدء، ظلّ الفارس يمشي مع الموج الدافع للبننت الصغيرة، صارا خارج حدود القرية، هبط من حصانه، نزل ودخل الماء، رفع البننت الصغيرة، لحظتها عرفته، الولد العملاق، الولد الذي يجيء كل يوم، يركب على ظهر الحصان، يجيء ويقف على حافة النهر، يقف في الضفة المقابلة للضفة التي تجلس عليها، ينظر إليها نظرات غريبة، خشت تنظر إليه مثلما هو ينظر إليها، هو طويل..طويل جداً، كما تقول أمي للنساء، رفعها الولد الطويل، أخرجها من النهر، مددها، جفف ثوبها، جلب من فوق حصانه شكوة اللبن، أدلق في جوفها لبن طازج، أمّي ظلّت تردد

أنها ما ذاقت مثل ذلك اللبن قط، نساء أجبنها: ربما عطشك، أو خوفك زرعاً مذاقه في ذاكرتك..!! نساء قلن لها: لبن الحبيب زبيب..!! رفعها ووضعها على حصانه، أمي فقدت حواسها تماماً، مغشية عليها تماماً، لا تعرف ما الذي يجري لها، لم تطرح كلاماً، راح والدي يخترق البراري والجبال، حل الغروب عليهما، وجدا منزل يكاد أن يبين، تقدما من البيت الوحيد، نزل أبي من الحصان، في تلك اللحظة وجدت البنت الصغيرة فرصة نادرة - بعدما أستردت وعيها - أن تهرب، انتظرت الموقف الملائم، تقول أمي للنساء: فكرت مع نفسي، وجدت الغروب يتخثر، أنا أركب على الحصان، اللجام بيدي، الولد العملاق صار قرب البيت الطيني، خلت البيت بيته، هو طوال المسافة لم يتكلم، فقط كان ينظر إلي، خشيت أن يفعل بي ما يفعل البعل بإنشائه، صار بيني وبينه مسافة حجرتين، حجران ملقيان من يد شاب يافع، قلت أهرب سوف لن يلحق بي، ها..ها..وأطلقت..!! نساء قلن لها: ألم تخش من مخابئ الليل..!! نساء قلن: كيف عرفت طريق العودة..!! أمي ظلت تتباهى بأسطورتها: ساقني حصانه، في طريق خلته طريق مجيئنا، وجدت الشكوة مليئة باللبن، أشرب وأقود الحصان، مشيت كثيراً، وجدت كوخ صغير في حقل كبير، قلت الكوخ ليس فيه أحد، الفلاحون يغادرون الحقول قبل الغروب، اتجهت إلى الكوخ، نزلت وربطت الحصان، وجدت ثمار الطماطم والخيار في صناديق خشبية، عرفت إنهم غادروا، وفي الفجر سيأتون لنقل محاصيلهم إلى الأسواق، لا أعرف أين أنا، مكان غريب، حقل مترامي أخضر

اللون، أسمع عواء كلاب، أكاد ألمح نيران بعيدة تتراقص، وجدت الكوخ خير مأوى لي، قرب الكوخ جدول ماء يمشي، شرب الحصان وإرتوى، شربت وغسلت يدي ووجهي، بحثت في الخرج، وجدت خمس أقراص خبز شعير، كيس من خام أبيض فيه حفنة تمر، وجدت مدية، سحبت الخرج، أنزلته إلى داخل الكوخ، خشيت أن أنام فيه، قذفت بكيس الخام الذي فيه تمر إلى سطح الكوخ، رميت ثلاثة أقراص خبز إلى السطح، بعدما وضعت قرصين منه أمام الحصان، تسلقت الكوخ، تمددت متسلحاً بالمدية، بقيت الليل كله أفكر، بأمي، أبي، كيف حالها، حال أمي، كيف هو حاله، حال أبي، ستموت من الحزن هذه الليلة، أمي ستموت، سيموت من الحزن هذه الليلة، أبي سيموت، أمي وأبي سيحزان علي كثيراً، جاء من مكان بعيد، أمي تحب أبي، أبي يحبها كثيراً، يتعاونان معاً، أمي وأبي يعرفان أمور طبيبة، يعالجان حالات خطيرة، يعملان أدوية من الأعشاب، العظام، الحشرات، غادرا قرى كثيرة، طردونا من القرى، ناس قالت: يعملون السحر..!! سيحزان علي كثيراً، أمي تحبني، أبي يحبني، دمعت عيناوي، غادرني النوم، الليل لا يريد أن ينتهي بسلام، ظلّ يطول ويطول، عواءات الكلاب تشعرنني بالأمان، أسمعها، أتخيل أنني في البيت، منتصف الليل سمعت حركة غير طبيعية، قبضت على المدية، تهيأت لمفاجأة متوقعة، حمحم الحصان نتر الحبل الذي في رقبتة، دوى عويل ابن أوى، تراشقت من حولي عواءات، قلت لا بد من ذئاب أو بنات أوى في الجوار، جاءت لتلتهم الحصان المسكين، رأيت اشباحاً تتحرك، أشباح لا أعرف أ..لذئاب

أم لبنات آوى، ظلّ الحصان يقاوم، يرفض بقوائمه الأربعة، تمكن بعد مقاومة ضارية، خلع العود المربوط به، فر الحصان وهو يصهل، سمعت صوت أقدامه، سمعت صوت صهيله لمسافات نائية، إنسحبت الأشباح من حولي، كدت أفقد صوابي، بقيت فاتحة عيني، ألعن الولد الطويل الذي سرقني، لعنته فقط في تلك اللحظة، لم ألعنه فيما بعد، لعنته فوق الكوخ الطيني في تلك الليلة، لففت نفسي بالخرج، بقت المدينة رهن الطعن بين يدي، خشيت أن تشم رائحتي بنات آوى، أو ذئاب جائعة، لا أعرف كيف جاء الفجر، أفقت من أصوات بشرية قريبة، فتحت عيني، رأيتهم يقتربون، بعول، نساء، بنات، أولاد، معهم رهط حمير، وقعت في حيرة من أمري، ليس لدي فرصة لإخفاء نفسي، بقيت متمددة على ظهري، تقدمت الجموع، رأوني، شعرت برأس صبي يمتد متطاولاً نحوي.. صاح:

- بنية ياأبا.

تقدمت الجموع وصعد (بعل)، سحبني..قال:

- من أين قدمت يا بنت.

بكيث، حملني (البعل)، وضعني على حصيرة، جلب أحدهم ماء وأسقاني، تقدمت امرأة.. قالت:

- بنتي من أنت، من أين جئت.

شجعتني ان أتكلم، قلت كاذباً:

- ضيَّعت طريقي.

- من أي قرية جئت.

- من قرية بعيدة.

- هل تعرفين الطريق.

قلت:

- أعرف الطريق.

رأيت الوجوه تتسائل في حيرة..قال (البعل) الذي سحبني من فوق

الكوخ الطيني:

- يا امرأة خذي البنث إلى البيت لتعرف أهلها وسبب هروبها،

لا بد وراءها مصيبة.

تشجعت.. قلت:

- أعرف طريقي إلى البيت، مشيت قبل الغروب من هنا، قلت

أنام فوق الكوخ، ليست لدي أية مصيبة.

سمعت (بعلاً) آخر يقول:

- قلت لكم شيء غير عادي يحصل في الحقل.

أجابه بعل قصير القامة هازئاً رأسه:

- الذئاب ظلّت تحوم في الحقل، سمعت عواءاتها .

قلت لهم:

- الذئاب أخذت حصاني.

قال (البعل) الذي أنزلني من فوق الكوخ:

- لولا أنهم وجدوا حصانك لتعشوا بك.

أنهضتني المرأة.. قالت:

- هيّا رافقيني إلى البيت قبل أن نجد أهلك.

قلت لها:

- أعرف طريق البيت، أريد أن أذهب يا ناس.

مسكتني المرأة من معصمي، مضيت برفقتها على مضض،
وصلنا بيتها، أدخلتني غرفة، وجدت بناتها جالسات، ثلاث بنات
يكبرني، إستقبلني بترحاب، وجدت نفسي في بيت آمن، قلبي
يكاد يتفطر على أمي، يتفطر على أبي، لم أبح بسرّي لهن،
أصررت على ما قلت لـ (لبعول) في الحقل.. قلت لهن:
- فقدت طريقي.

وجدت نفسي أكذب عليهن، خشيت أن أقول لهن سرقتني ولد
عملاق، (قلت في نفسي)، ماذا سيقولون عني لو قلت لهم سرقتني
ولد عملاق، سيظنون بي الظنون، سيطرّدوني من بيتهم، سيقولون
بنت صغيرة وفاسدة، وجدتهم يعتنون بي، جلبت المرأة لي ثوباً
جميلاً، ألبستني الثوب..قالت:
- كبرت يا بنت بهذا الثوب.
وقالت أيضاً:

- ليس لدي ولد كبير لزوجتك إليه.

أفرحت نفسي معهن، بقيت يومين، في اليوم الثالث، جاء الولد
الصغير الذي تسلّق الكوخ ورآني، جاء يركض، قال وهو يلهث:
- أخوك جاء يبحث عنك.

فرحت، كدت أقبله، ليس أخي، فقط رغبت تركهم، قمت
من بين البنات الثلاث، هربت إلى الخارج..قلت لهم:
- أستقبل أخي الذي ظلّ يبحث عني منذ يومين.

تجمدت أوصالي، تبخرت الفرحة من ذهني، الفرحة المصطنعة،
وجدت الولد العملاق يقف أمامي، ماذا أقول، وقفت أمامه، ولد

عملاق طويل، تقدمت منه المرأة، حيثه، رد تحيتها.. قال الولد
الطويل:

- بحثت في كل مكان عنها.

تقدم مني وأمسكني من معصمي، وضعني على حصان جديد،
سلم على المرأة وبناتها الثلاث، مضى بي من جديد، لم يعاتبني،
ظلّ يبتسم بوجهي، وصلنا جدول ماء، أنزلني من فوق الحصان،
سحبني إلى حافة الجدول، أجلسني قربه، في تلك اللحظة وجدت
نفسي أحبه، قلت هو يحبني، كل يوم يأتي إلى حافة النهر، يقف
لينظر إلي نظرات غريبة..قال:

- لم فعلت ذلك.

خجلت أردّه، بقيت أنظر إلى الماء الماشي..قال:

- ماذا لو فتكت بك الذئاب.

بقيت لا أعرف ماذا أقول.. قال:

- أين هو الحصان.

تشجعت، قلت:

- صار قريانا لمن تتظر إليها.

مدّ كفه اليمين، رفع ذقني، صارت عيناى في عينيه، كدت
أن أفقد حواسي، كدت أن أفقد أنفاسي، كدت أن أقع بين
أحضانها، خشيت أن يفعل شيئاً معي، بقى ينظر إلي..قال:

- أحب النظر إليك.

تبدّلت مشاعري، وجدته ولداً مؤدباً جداً رغم طوله..قلت
متعجباً:

- تحب النظر إلي..!!

قال:

أحب النظر إليك كل يوم.

قلت:

- لم تحب النظر إلي.

قال:

- كلما أراك فوق النهر، راحة تامة تغمر قلبي.

أحمرّ وجهي، أطرقت بعيني إلى الماء ثانية..قال:

- هيّا.

لم أتكلم، رحت أنظر إلى عينيه، كرر كلامه:

- هيّا.

قلت:

- ماذا.

قال:

- لنرجع إلى البيت.

لم أصدق ما قال، عيناه في عيني، عيناه جميلتان، تقولان ما في

قلبه من غير لاف ولا دوران، قمت، رفعتني على الحصان، لم يصعد

معي، ظلّ يمشي جنبي، شعرت بغم مفاجئ، حين تذكرت هروبي

بحصانه، (قلت مع نفسي)، ولد مؤدب، لم هربت يا بنت، هو لم

يفعل شيئاً معك، فقط يحب النظر إليك فوق النهر.

قطعنا مسافة طويلة، لم أشعر بالزمن الذي أسفرقته الرحلة،

ظلّ يمشي أمامي، أنا على الحصان، هو يمشي على قدميه، (قلت

مع نفسي) ولد يستحق أنظر إليه ، طالما أخرجني من النهر، طالما
أرجعني إلى البيت، لم يفعل معي شيئاً.

وصلنا عند الأصيل، أستقبلتنا أمي باكية، لم أجد أبي في
البيت، خرج يبحث عني، رافقني الولد العملاق..قال لأمي:
- كفي بكاءك، بنتك ردت إليك.

لم تصدق أمي، مسحت دموعها، قامت واحتضنتني، بكينا
معاً، ظلّ الولد واقفاً ينظر إلينا، إنتبهت أمي لوقوفه..قالت له:
- أجلس يا سيد.

جلس الولد..قالت أمي:

- وجدنا دلو الماء على حافة النهر. قلنا لا بد سيل النهر جرفها.
قلت:

- زلقتا قدماي، أنقذني السيد.

شكرته على فعلته..قال الولد:

- علي المغادرة، أشغالي كثيرة.

غادرنا الولد، بقيت أفكر فيه، حكيت القصة لأمي..قالت:

- ابن حلال يحبك.

قالت أيضاً:

- ليته يطلبك زوجة.

كلام أمي أثلج صدري، قربني إليه أكثر، أبي حين عاد من

رحلة البحث، وجدني أمامه..قال:

- رافقت النهر حتى مسافات طويلة، قلت ضاعبت إبتنا الوحيدة.

قلت لأبي:

- بنتك لا تضيع، بنتك محظوظة.

عاد الولد من جديد يقف على النهر، مزهواً بطوله، مزهواً فوق حصانه، حصان جديد، الحصان القديم أخذته - بسبب هروبي - ذئاب أو بنات آوى، (قلت مع نفسي) : يبدو أنه ابن غني. كل يوم يقف، ينظر إلي، يعرف أوقات وجودي على حافة النهر، يأتي، يقف، ينظر، أطيل غسل الصحون، أطيل غسل الملابس، أقول مادام يحب النظر إلي، لأجعله يشبع من النظر إلي.

بعد مضي عام تقريباً من قصتنا، جاءنا يخطبني، أنا فرحت، أمي فرحت، أبي شاركنا الفرح بعدما سردت لأمي حكايتنا يوم زلنا قدماي في النهر، تزوجنا، غادرنا القرية التي جمعتنا، أنا احبّه، هو يحبني، مشكلتنا الكبيرة، كلما نرزق بطفل يموت، ندفن الطفل تلو الطفل، نتنظر الطفل القادم، يأتي ليموت، تذكرت أمي العارفة بشؤون الطب، لجأت إليها، تمكنت بخبرتها الطبيّة، ودرايته بأسرار الجائحات المبيدة، أنقذت لنا طفلنا الوحيد.. (نوّار)..!!

* * *

أبي لم يعر هروب البنت الصغيرة اهتماماً، قال لنفسه: أين تروح. وقف أمام باب البيت الطيني الوحيد، طرق الباب مرات، دفع الباب، وجد رجلاً نائماً، رجل يحتضر، نسي قصة البنت، وجد من يستحق العناية، تقدم من الرجل المحتضر، جلس قرب رأسه، وجده يهذي، حاول يعرف من هو، من هي عائلته، وجد طاسة ماء

أمامه، رشق وجهه رشقات إستفزته، إنتبه إليه، وجده مقيّد المعصمين، مقيد القدمين، مد يده إلى جنبه، تذكر، مديته ظلّت في الخرج على ظهر الحصان، فك قيد الرجل بأسنانه، إستعاد الرجل بعض ذاكرته، نظر إلى ولد طويل يقف أمامه، بدأ الرجل يخاف، طمأنه، استرد الرجل وعيه، قال لأبي ما جرى له، هو لم يذق الطعام من يومين، جلبته زمرة شباب، اقتحموا منزله، قادوه إلى هذا المكان الغريب، لم يحكي الولد العملاق حكايته للرجل، قال للرجل أنه في مشوار خاص بين قريتين، سمع هذيانات قريبة، هذيانات تخرج من كوة بيت طيني منفرد، تقدم، إقتحم الغرفة، أبي سرد لأمي حكايته:

- بعدما لذت بالفرار، وجدت صوتاً هاذياً من داخل الغرفة، طرقت الباب، انتبهت لقفل كبير يقفل الباب من الخارج، وجدت القفل مفتوحاً، يبدو أنهم نسوا غلقه، وجدت رجلاً فاقد الأحساس، مقيداً، في البدء لم أنتبه للقيد في قدميه ومعصميه، بحثت عن المديّة، تذكرت أنني نسيتها في الخرج على ظهر الحصان، استعنت بأسناني، وجدته رجل حسن الوجه، طيب اللسان، عارف بأمور الدنيا وشؤون الناس، مختطف من قبل ناس غريباء، زمرة شباب كما قال لي، داهموا بيته، كمموا فمه، عصبوا عينيه، وضعوه على حصان، قادوه إلى مكان بعيد، فتحوا عينيه وجد نفسه في غرفة طينية، في بيت مهجور، قصّ علي حكايته..قال:

- بني أنا أحمل إثمأ كبيرا، أحببت بنت شيخ عشيرتنا، لاحقتها

أينما تذهب، حكّت لأبيها ملاحقاتي لها، طلبني أمامه، خشيت من عقوبة تنتظرني، وقفت أمامه في الديوان، هو شيخ كبير صاحب نفوذ معروف، أنا ابن راعي أغنامه، وقفت أرتجف، رجال كثيرون يجلسون في ديوان كبير، ينحتون نظرات مخيفة في وجهي، أبي واقف محني رأسه، واقف عند باب الديوان، الرجال بعضهم يداورون خرزات مسبحاتهم بأصابع خشنة، بعضهم يفتل شاريه، صاح الشيخ بوجهي:

- ولك جرو ابن الكلب، ليش تنظر إلى سيدتك.

ماذا أقول، قال عني (جرو) قال عن أبي الواقف بخشوع ودموع في الباب، باب الديوان (كلب)، وقفت أرتجف، شخت على نفسي، أقولها بصراحة، شخت على نفسي، شعرت بالبول ينزل على سروالي، البول لم يره أحد، شعرت بقوة أن البول يدفعني أن أكن شجاعاً، قلت:

- يا شيخ، يا طويل العمر، نحن نحرسكم، أبي يحرس أغنامك، أنا أحرس بيتك.

رمقني الحضور بنظرات غريبة، رأيت رؤوسهم تهتز، أحمر وجه الشيخ، قال رجل كبير السن:

- ولد له شأن.

أجاب رجل آخر:

- من علمك هذا الكلام يا كلب.

الشيخ قال عن أبي (كلب)، قال عني (جرو)، هذا الرجل قلب كلام الشيخ، قال عني (كلب)، تشجعت..قلت:

- الشيخ طويل العمر سمّاني (جرو) انت كسرت كلام الشيخ
طويل العمر وسميتني (كلب).

ضحك الجميع، ضحك الشيخ معهم، ضحك والدي مع الجميع،
تشجعت، قلت أيضاً، قلت بعد أن توقفوا من الضحك، قلت لهم:
- أنا لم يعلمني الكلام أحد، أنا أعرف نفسي، أنا أحرس بيت
سيدي طويل العمر كما يحرس أبي أغنام بيت طويل العمر.
نحج الشيخ..قال:

- لم تحرس سيدتك يا كلب.

قلت:

- واجب الكلاب حراسة سادتهم، ليس من حق السيد سؤال
كلبه سبب حراسته له، خلقت الكلاب للحراسة.
بهت الحضور، ساد لغط طويل، وجدت أبي واقفاً يرتجف،
ربما فكر أننا مطرودون من فردوس الحياة، سنعود لحياة التتقل،
والبحت عن صاحب أغنام كي نرعى أغنامه، أشار الشيخ،
سكت الجميع.. قال:
- أنت ولد عاقل، أنت ولد تستحق العناية.

خرجت من محاكمتهم فرحاناً، صار الشيخ يطلبني في
مجلسه، أبي ينظر إلي، أنا أبادله النظر، يمازحني الشيخ، صارت
إبنته تنظر إلي نظرات مختلفة، لا تحكي للشيخ ما أفعله، أقف،
أنظر إليها، يبدو أنها سمعت قصة محاكمتي وإنتصاري في تلك
الليلة، صرت أقترّب منها، سألتني يوماً أن أحمل دلو الماء بدلاً
عنها، شعرت براحة إستثنائية تغمرنني، أنا أمشي وراء كوكبة

فتيات جميلات، أنظر إلى مؤخراتهن، مؤخرات ترتج وتتراقص،
أكوام لحمية تتموج مثل تموجات أمواج البحار المتلاطمة، نشواناً
أعب في جوف كركراتهن الجميلة.

قالت لي يوماً:

لم تحرسن يا ولد.

قلت:

- أخاف عليك.

- تخاف علي من ماذا.

- أخاف عليك من.. من.. من.

قاطعتني:

- من ماذا.

قلت:

- من أولاد العشيرة.

ضحكت، فرحت لضحكتها، قالت لي ذات يوم:

- عيونك فيها شيء مخيف يا ولد.

قلت:

- هو الخوف عليك يا سيدتي.

مضت أيامنا، أنا فرحان بحياتي، أتابع السيدة، الشيخ يقربني
منه، أبي يحرس أغنامه، أمي غير موجودة، ماتت بداء غريب،
بقي والدي من غير زوجة، مضت أيامنا، سنواتنا على تلك الوتيرة،
أنا أعلق بتلك السيدة، هي تراقب تصرفاتي ببراءة، في عينها رغبة
كبيرة، كلام مفهوم، تكاد تقوله، تأتي، تقترب، تتردد، أنا

أتردد أيضاً، كلما أريد تحريرها من سجن الخوف.

في ليلة لن أنساها، وصل ضيوف إلى بيت الشيخ، وصلوا بعد اسبوعين من حادثة قتل جرت في المنطقة، قتل ابن الشيخ شيخي ابن شيخ قبيلة مجاورة، قتله بعد نزاع جرى بينهما، قيل من أجل طير (الحر)، كلاهما رأى الطير، أتفقا على مطاردته، لكن ابن ذلك الشيخ نكث بالعهد المتفق عليه، أخذ الطير بعدما وقع أمامه، سحب ابن شيخي (البرنو) وضع رصاصة في رأسه، رصاصة واحدة دخلت رأس ابن ذلك الشيخ، دخلت و (طشّرت) مخه، جاء الشيخ ومعه شيوخ عشائر طالبين الفصل، شيخي رحّب بهم، قال لهم:

- إبنى أمامكم أفعلوا به مثلما فعل بابنكم.

خرست ألسنتهم، أضاف شيخي:

- المرحوم نكث بالوعد المبرم بينهما، الشهود أكدوا ذلك، لكنني مصر على أن تفعلوا بأبني مثلما فعل بابنكم.

قام شيخي من مكانه، سحب (البرنو) المعلق من على حائط الديوان، وضعه أمام الشيخ الذي قتل ابنه، صاح شيخي:

- اجلبوه.

دلف ابن الشيخ شيخي القاتل، أمثل لكلام أبيه، أمره الشيخ أن يجلس منتصف الديوان أمام الحضور، قال لهم شيخي:

- بهذا (البرنو) قتل إبنك وبه أقتله، (العين بالعين والسن بالسن، والجروح قصاص، والبادئ أظلم).

خجل الشيخ أبو المقتول، قال:

- لا..لا..يا شيخ لن ألوث يدي بقتل إبن رجل صادق.

قال أحد الحضور، يبدو أنه شيخ آخر:
- يا جماعة الخير، (العفو عند المقدرة)، من أخطأ لا يجب أن
نرد خطأه بخطأ مماثل، لكن الفصل واجب، مطلب شرعي،
شيخنا أب المرحوم جاء لتسوية الأمر بسلام، مطلبه غير مكلف،
غير مخالف للشرع والأصول، هو لا يرضى إلاّ بتزويجه إبنتك.
دمدم الحضور، الشيخ شيخي ظلّ متماسكاً، هز رأسه، قال
الشيخ الذي تكلم:

- أنا أطلب من الولد أن يقوم من مكانه ويخرج خارج مجلسنا.
أمر شيخي إبنه، قام وخرج، قال شيخي:
- مطلب يسير، لكن الواجب يتطلب مفاتحة البنت، مع ذلك،
سأهبها له، ليشهد الحضور الكرام على ما أقول، أقرأوا الفاتحة.
وحدي من لم يقرأ الفاتحة، وجدت الأيدي مبسوطة، الأفواه
تتمتم، أمتدت الأكف لتمسح الوجوه، بقيت فاغراً فاه، كما لو
طلقة نافذة أصابنتي، في موقع غير قاتل، سقطت جريحاً، غير
مصدقاً أنا أنزف، بارح الموكب الديوان، خرج الرجال جميعهم،
بعد وجبة عشاء، تم نحر الخراف فيها، نادى الشيخ إبنته، فاتحها
بالأمر، قلبي يكاد ينفطر من كلامه، لم تتكلم البنت، قلت مع
نفسي، كيف تساق هذه الغزالة اليانعة ليركبها شيخ يكاد
ينفق، في تلك الليلة لم أنم، جاء الصباح، رافقت البنت إلى الماء،
وجدت في عينيها دموع الحزن، ووميض الرفض، قلت لها:
- سأدافع عنك يا سيدتي.
نظرت إلي، في عينيها أسئلة كثيرة، قالت:

- كيف.

قلت لها:

- سأقتله أنا.

قالت:

- أبي يحبك، أجعله يبذل كلامه.

قلت لها:

- الشيخ لا يبذل كلامه.

قالت:

ماذا أعمل.

قلت لها:

- تعالي نهرب.

وقفت.. كأن طليقة اخترقت جمجمتها، قالت:

- ماذا..؟

قلت لها:

- أريد تخليصك من هذا العجوز الفاني.

قالت:

- أنت ولد شجاع.

قلت لها:

- سأأخذك إلى مكان بعيد، حين يموت الشيخ العجوز أرجعك.

بعد يومين قالت:

- هل حقاً قلت ذلك أم مزحة.

قلت لها :

- تعلمت من الشيخ أن لا أبدل كلامي.

قالت:

- أين نهرب.

قلت:

- لدي أقارب في مكان بعيد.

على ما يبدو، بدأت الفكرة تشغلها.

قالت لي ذات يوم:

- لم يبق سوى أيام لياخذني الشيخ العجوز.

قلت:

- أنا حاضرياً سيدتي سأنقذك.

قالت:

- هل حقاً تقدر على ذلك.

قلت:

- نعم.

في تلك الليلة، شعرت بيد تجذبني من نومي، فتحت عيني،

وجدت البنت جادة فيما طرحت عليها من فكرة الهرب، قمت،

سحبتي، وصلنا مكان آمن، قالت:

- هياً نهرب إلى أقاربك.

قلت:

- كيف.

قالت:

- أعددت حصاناً وزاداً.

امتثلت لرغبتها، في الطريق خلت نفسي أمزح، شعرت أنني وضعت نفسي في ورطة، قلت لنفسي، ماذا عملت أيها الولد عديم الشرف، مفقود الأخلاق، الشيخ صار بمثابة أبيك، صار يحبك، يقربك، كيف تخون الأمانة، أنت أرتكبت حماقة يا ولد، سيلحق بك، سيجدك أينما تذهب، سيجدك، يقطع رأسك، رأس المسكينة، أنتبهت البننت لي.. قالت:

- أنت متردد.

- كيف عرفت.

- تهز يدك، تتمم مع نفسك.

- كلا..أريد أن أخرجك من الورطة.

مشينا حتى طلع الفجر، حتى غربت الشمس، وصلنا قرية صغيرة، تقدمت من عجوز واقفة، قلت لها:

- حلّ علينا الليل يا أم.

قالت لنا:

- هذا بيتكم يا أولادي.

ضيفتنا العجوز، تعشينا عندها، في الليل فرشت لنا فراشاً واحداً، وجدت الأمر محرّجاً، ليس من المعقول أن نكشف سرّنا، ليس من المعقول رفض الفراش الواحد، نظرت في عيني البننت، نظرت في عيني، وجدت فرصة لمهامستها:
- نامي أنت وأنا سأحرسك.

وجدت في عينيها دموع الندم، دموع الحيرة، دخلت علينا
العجوز، قالت:

- إعدراني فراشي قليل، أنا غريبة من ديار بعيدة، يتقاذفني
مركب الحزن من موج لموج.
قلت لها:

- يكفيني فراش واحد يا أم.

تمددت البنت، تمددت قريبا، عالم ساحر، أن تتمدد قرب
إمرأة هي في منزلة اجتماعية راقية، أنت من طبقات معدومة، هي
كريستال شفاف، أنت من حجر خشن، هي تبث عطر أنفاس
كالرحيق، أنت تشرنتانة أزمنة الفقر والجوع، والنوم في
إسطبلات الخيول والحمير، عالمان متناقضان في كفتي ميزان
قدري، هي.. هي.. أنا.. أنا.. قلبي يشتر، يضرب ضربات عنيفة،
وجهي يفضح قلبي، رعشة تستفز جسدي، أنفاسي بدأت تصوت،
تحشرج إيقاعات نافرة، تخرج بحرارة واضحة، وجدتها ترتجف،
أجفانها ترتعش، بدت كما تبدو العروس ليلة الدخول عليها،
بدوت كما عريس لم يعرف كيف يفتح مملكة العالم المطروحة
أمامه، في غرفة مظلمة، خارج الغرفة عيون تتربص، وأحاسيس
العالم تستحضر المشهد الكوني الكبير، أفراح تتواصل، أفراح
العالم المنسي، العالم النائي، بدأت العجوز تشخر، في الخارج
الكلاب تتبح، بنات آوى في عرس دموي، نامت البنت، وجه
يتألئ في ضوء فانوس كابي، خلد جسدي، فقد الرغبة
المصطلية، رغبة الخوف، المصير الذي رسمناه في لحظة مزاح، لا

أعرف كيف نامت، كيف نمت، منتصف الليل، وجدتها
تعانقني، وجدتها تدس رأسها بين صدري، أردت دفعها، رفضت
ذلك، قالت:

- أنت ولد شجاع، سأرافقك إلى آخر الدنيا.

قلت:

- شيخنا سيلاحقنا حتى آخر الدنيا، هو أبوك، أنت إبنته
الثمينة، أنا بمثابة خائن نعمته.

حل الفجر، قالت لنا العجوز:

- ليس لي أحد، أبقيا ليلة أخرى، طريقكما على ما أظن بعيدة.

وجدنا الفكرة ملائمة لمواصلة السير إلى حلمنا الكبير.

في الظهر، جلسنا حول مائدة الغداء، جرى حديث بيننا،
حديث عن أمور الدنيا، عن الحسب والنسب، عن الظروف التي
أوجدتنا في أمكنة نائية، بعيدة كل البعد عن الأسواق والناس،
سردت العجوز قصة وحدتها، بعدما دعاني الفضول لسؤالها،
قالت:

- لي بنت وحيدة، متزوجة من رجل أخذه (العثمانيون) إلى حرب

بعيدة، أخذه، انقطعت أخباره عتاً، اخذوا شباب كثيرون، بقينا
من غير رجل بيت، زوجي أيضاً أخذه من الحقل، ضاقت بنا
الدنيا، (العثمانيون) الكلاب أخذوا الحلال وغللال الحقول،
أخذوا بنات شابات أيضاً، آه.. لذلك اليوم الأسود، بنتي قررت أن
تبحث عن عمل، ليس لنا أرض نزرعه، الأرض كله لشيوخ كبير،
الناس تشتغل عنده، ذهبت بنتي ترجوه أن يقبلها عاملة في حقله،

وافق الشيخ، جاءتني مرتان فقط، مرتان فقط رأيت ابنتي، جلبت لي الطعام وثوبين، بنتي لم تجئ بعد، من يومها بقيت أنتظر، قلت لا بد أن (العثمانيين) الكلاب أخذوها، هي جميلة، راحت بنتي، بقيت غريبة في هذه الديار، بعدما جئت إليهم بحثاً عنها.
سكتت العجوز، توقف لساني عن الكلام، وجدت البنت واجمة، تنظر غير مصدقة مما تسمع، كففت دموعها، هزّت رأسها.. قالت:

- كلوا يا أولادي.

توقفت أيدينا عن الأكل..قلت:

- هل تعرفين أسم طفلة بنتك.

هزّت رأسها صامتة، كررت سؤالي عليها، قالت:

- نسيت أسمها، ربما عشرين عاماً مر على نسيانها.

رأيت البنت دامعة العينين، مسحت دموعها، قالت العجوز:

- لم تبكين يا بنتي، كلي، أحزاننا لن تنتهي.

قالت البنت بصوت ذبيح:

- أسمها (م.ر.ي.م) طفلة بنتك.

توقفت العجوز عن الأكل، رفعت عينيها، بدت كأنها تتقرب

ذاكرتها..قالت:

- ربما..نعم..نعم..م..ر..ي..م..مريم..مريم.

وجدتها تفرح، قالت العجوز:

- من أين عرفت ذلك يا بنت.

قالت البنت:

- أنا بنت شيخ كبير، الناس تعرف ذلك، ربما سمعت به، هو الشيخ (عارف أبو العرفان) هذا كنيته.

قالت العجوز للبنت:

- هل حقاً أنت إبنة ذاك الذي تحترمه حكومة العثمانيين الكلاب.

قالت البنت:

- هل أسم إبنتك (فاطمة) .

صاحت العجوز:

- أرجو أن يكونا في بيتكم يا بنت شيخ المشايخ.

قالت البنت:

- هي موجودة مـ..و..جـ..و...د..هـ..هي..هي..أنا..أنا..أنا.

اجهشت البنت في البكاء، شدهت فاغر الفم، ما الذي يجري أمامي، ما الذي تتفوه بها البنت التي ورطتني في عملية إختطاف، توقفت البنت عن البكاء، ألقى رأسها في حجر العجوز، ظلّت العجوز مستغرية، دفعت سفرة الطعام جانباً..قلت:

- خبرونا يا نساء، ماذا يجري.

رفعت البنت رأسها..قالت:

- أنا لست إبنة الشيخ، أنا.. (مريم) أنا بنت (فاطمة) ماتت أمي، كنت في الخامسة من عمري، استبقاني الشيخ عنده بمثابة ابنته.

دمعت عينا العجوز، رفعت يديها إلى السماء..قالت:

- لك الحمد يا رب السموات السبع، لك الحمد يا رب الناس،

لك الحمد يا الله.

تعانقتا ، بكّتا ، سردنا قصّة ما جرى بيننا ، ماذا نويّنا..قالت :

- ابقيا عندي ، هي بنتي ، أنت تصير بعلمها .

بقينا عندها ، ماتت العجوز بعد مرور عامين وشهر على لجوئنا الغرامي إليها ، بقينا وحدنا متسترين في قرية تبعد مسافة نهار كامل جرياً على حصان نشيط ، قضينا ثمانية اعوام معاً ، لم نرزق بطفل ، عرفنا أخبار ما جرى وراءنا في بيت الشيخ (عارف أبو العرفان) الشيخ أبو المقتول مات ، أولاده طلبوا إعادة جلسة الفصل ، اتهموا الشيخ (عارف) بتهريب إبنته إلى مكان آمن ، ناس مررت شائعات ، على أنّه زوجها من ضابط (عثماني) ، رافقهم الولد الذكي كما يحلوا لهم وصفي ، منذ تلك الليلة التي انتصرت في محاكمتي ، وصرت الولد المقرب للشيخ ، حدثت خصومات كثيرة بين القبيلتين ، سمعنا أنهم ، أي أولاد الشيخ الذي قتل ابنه ، تمكنوا من نصب كمين للشيخ (عارف) ، قتلوه ، قالوا الشيخ ذهب لتلبية دعوة لباشا (تركي) ، ناس قالت : أولاد الشيخ أبو المقتول دفعوا مبالغ كبيرة من الليرات ، الذهب للأتراك ورتبوا عملية إغتياله يا ولد ، اعلم أن عاقبة كل مكروه مكروه ، من يزرع بذرة ورد يحصد الورود ومن يزرع بذرة شر يحصد الشرور .

جاءت لحظة عقابي الذي طال ، صحيح إننا سررنا ، عشنا أياماً طويلة حلوة ، لكن (مريم) مثلما هربت معي ، هربت مني ، تلك هي صفات البنات العاقات ، ضحيت من أجلها ، عملت من أجلها ، كنت سبباً لوصولها إلى جدّتها ، وجدّتي غير لائقاً بها ، قالت قبل أن ترحل عني :

- أخرجتني من الفردوس، ألقيتني في الجحيم.

قلت لها:

- أنت اخترت الجحيم، أخرجتيني من النعيم.

قالت لي:

- علينا أن نغير مسارنا في الحياة.

قلت:

- ضحينا معاً، أنا من أجلك، أنت من أجلي، كيف بنا ننهي

مسيرة شاقة اخترناها، لم نصل النهاية بعد.

قالت:

- أنا ذاهبة معهم، هم يريدون نساء للعمل، سأمت الجوع،

الكد، العمل المزري في البيوت.

خلته كلام ليل، قلت النهار سيمحيه، عشنا معيشة شاقة،

متسترين من أعين الوشاة، عيون الصدفة، جاءت خيالة، معها

عربات جميلة، معهم فتاة تتكلم مثلنا، طلبت بنات يخدمن في

القصور، يلبسن الحرير، يلبسن الذهب، فتيات أستجبن للنداء

ومضين مع القافلة.

في الصباح أكتشفت (مريم) ذاهبة إلى حيث المجون، بقيت

وحدي، أتجول، أبحث عن حل، عن مكان بعيد، عرفت، والدي

مات مع الشيخ، أصابته رصاصة في ظهره، ظلّ طريح الفراش،

قصة شاعت بين الناس فيما جرى بين القبيلتين.

ذات ظهيرة، وجدت نفسي أمام رجل ظلّ ينحت بصره في، رجل

يبدو على هيئته سكن في ذاكرتي، رجل يبيع الحاجيات داخل

خرج على ظهر حمار، بقيت غير مهتماً بما جرى بيني، وبين الرجل من نظرات، حتى عاد لذهني منظره، قبل أن تأتي إلي زمرة شباب ملثمين بيدهم أسلحة، فقط تذكرته، ذات يوم اشترت منه امرأة صغيرة ملونة ومشط شعر نسائي، اهديتهما للبنت (مريم)، حكاية قديمة، هو من وشى بي، فهو رجل يتنقل بين القرى، داهمته زمرة شباب، كمنوا فمي، قيدوا معصمي، قدمي، ساقوني إلى هذه الغرفة..!!

قلت للرجل:

- لم تركوك هنا.

قال لي:

- سمعت أن أولاد الشيخ (عارف) أعلنوا عن جائزة كبيرة لمن يجديني، أنا والبنت طبعاً، سمعت الشباب يتحدثون حول مصداقية المال الذي أعلنوه، وضعوني هنا، ذهبوا لأستلام المال قبل تسليمي لهم، على ما يبدو(ثمت) أمر هام قد حصل، ربما مازالوا يتساومون على المال..!!

* * *

قال أبي لأمي:

- أخرجت الرجل، قدته معي، أخذته إلى مكان بعيد، سرنا يوماً كاملاً، في قرية حدودية، تركته عند رجال مهمتهم تهريب الناس بين البلدان، أخرج الرجل من جيبه حفنة ليرات..قال:
- هذا كل ما أملك.

- أنت بحاجة إلى المال أكثر منّي.

قال:

- خذ سعر حصان كي تتمكن من العودة.

أشترينا حصانين، واحداً له، واحداً لي.

قبلوا الرجال تهريبه إلى مملكة (إيسان)، عدت ألتمس

طريقي، مشيت اليوم الثاني، مر بي شابان، رأيت في عينيهما

شرر، سلّما علي، رديت سلامهما، سألني أحدهم إن رأيت في

طريقي رجل يلبس كذا وكذا، كذّبت عيهما..قلت لهم:

- أتيت من مكان بعيد، وصلت في التو.

غادراني، وصلت حقلاً، وجدت ناس يعملون، تقدمت، طلبت

ماء، سألت طفلاً صغيراً:

- هل رأيت فتاة صغيرة مرت من هنا.

قال:

- هي في بيتنا.

تقدم يركض أمامي، مشيت سريعاً خلفه، ظنّ الطفل أنني

أخوك، وجدتك، فرحت، قررت أن أعود بك، من أجل شيء مهم

جداً، فقط أريد أن أنظر إليك، عندما تكونين جالسة على

النهر..!!

* * *

سكنت في غرفة تقع في نهاية الممر الوحيد الذي يتوسط صفي

الغرف لفندق البلدة الوحيد، فندق قديم البناء، يقع على رؤوس

مجال الأقمشة ، منتصف سوق البلدة ، في ذلك السوق حدثت كارثة غريبة ، كل الناس القداماء يتذكرون ذلك الحدث ، ناس قالت: العثمانيون جلبوا الفئران للبلدة لتذليل ناسها..!! ناس قالت: رجل غريب الأطوار جاء من مملكة (إيسان) يقود مجموعة حمير ضخمة الجسم ، الحمير على ظهورها صناديق خشبية كبيرة ، سكن في الفندق ، صبي (وقح) تسلل إلى الفندق ، أحدث فتحات في الصناديق ، تسلت فئران بيض ، أتت على سوق الأقمشة..!! كارثة قديمة ، أدت إلى تهديم الفندق ، وتشيد بناية جديدة على أنقاضها ، تلك الفئران ظلت تتكاثر بشكل لافت للنظر ، فئران ساحرة ، تخفي وتظهر ، قبل أن يتم جلب دواء قاتلاً من قبل لجنة أجنبية جاءت تمسح الأراضي لعمل سكة حديد لقطار سيمر في البلدة ، ناس قالت: يهود..!! ناس قالت: (أنكريز) ..!! ناس قالت: يهود و(أنكريز) ..!! تلك اللجنة رأت كيف الفئران تلعب في الهواء الطلق ، كيف تتكاثر وتمزق كل شيء ، جلبوا دواءهم السحري ، قتلوا الفئران ، ناس قالت: أجدادنا هم قتلوا الفئران في حملة شعبية كبيرة..!! ناس قالت: سبب إبادة الفئران يعود لدواء الغريب العجيب..!!

لم أرغب السكن مع نزلاء آخرين يدفعون أقل مما أذفع من أجرة ، عشقت الوحدة ، قلت: الدنيا تريدني وحيداً ، ليس من المعقول أن أخالف أمر دنياي..!! الوحدة راحة ، الوحدة في زمن الفوضى آمن ، الوحدة مطلب العالم الثالث ، الوحدة توفر لصحتي النوم الكافي ، تشط خلايا مخي ، عملي يتطلب الوحدة ، كي

أبدو نشيطاً عند الصباح، أحمل ما لا طاقة لحمّالٍ حمّله، صار لدي (معامل) أقصد (زيائن) كما يحلوا لنا القول، قبل أن تفاجئنا ذات ليلة قوّة أمنيّة، ساقونا إلى غياهب سجن مظلم، خانق، مكثت في ذلك السجن لسنينٍ خمس، للحق أقول جهلت سبب سوقي للسجن، ليس بوسع المسجون أن يسأل لم هو في السجن، المسجون يلقي أمره إلى الخالق، يقبل بما أعدّ له من ولائم يومية، تعليق في الصباح، المساء، تعليق بالقلوب، ربط القدمين بحبل متين، الرأس إلى الأسفل، القدمان إلى الأعلى، ضرب بالهراوات، أسلاك تكهرب تنتهي بقراصات تقرص الأذنين، أفواه تصرخ، أفواه تدلق سوائل صفراء مخلوطة بدماء، رجال بلا رحمة يضربون، يضحك ويضرب، ضحك..ضحك، وضرب، هكذا تمشي الأمور، يتم خلع الأجساد من ملابسها، يخرجون الأعضاء الضامرة، يداعبونها، أعضاء تتوتر، يضحكون، أحدهم لا يستحي، يداعب العضو المتوتر، عضو سجين معلق، يداعبه بقوة، يعصره، يرخيه بكفه، (تف) ييصق كومة بصاق في كفه، يغسل العضو المتوتر ببصاقه، يدلّكه بقوة برغبة، الجسد المعلق يلهث، فجأة تند صرخة كبيرة، صرخة لذة، أحدهم يدلق سائله، ضحك يتعالى، ضحك يقود إلى ضرب جديد، السائل يسيل على الجسد (المدندل)، يسيل هابطاً من العضو إلى منطقة العنق، الضحك، الضرب يمتدان لساعات في الصباح، في المساء يتكرر السيناريو، يعود السجناء أذلاءً، دالّقين ألسنتهم، دماء تلوّث أجساد تتراقص، تسقط، (طراق) حزام جلدي يشرخ لحم الجسد، (شراق) كف

غليظة تصفع السحنات الدامية، (آآآآ) فم يصرخ بعد سقوط
جسد معصوب العينين في حفرة، يقحم السجناء في زنازينهم
الإفرادية، أنين عازف، حشرجات، تأوهات، نشيج، أنين، أجساد
متهاكة تتلوى، تهىئ إراداتها لولائم كونية لا تنتهي، ولائم في
عالم لا يريد أن يتحرر من العذاب، من شريعة الغاب، ولائم عالم
لا يعرف الفرح، فرحهم التعذيب، التغريب، التخريب، التجريب،
التسريب، التهريب، أكل التشريب، خمس سنوات أيها الكاتب،
خمس سنوات ضرب وضحك، خمس سنوات بلا ماء صالح للشرب
البشري، بلا طعام مفيد، بلا طعام غني بالفيتامينات التي نسمع
أنها تفيد الجسم، تكسبه مناعة ضد الأمراض، أجساد العالم
الثالث لا تحتاج إلى مواد غذائية غنية بالفيتامينات، أجساد العالم
الثالث، العالم المحتل، أجسادهم عنيدة، تعيش على طعام البؤس
والحرمان، أجسادهم صخرية، الفيتامينات تبعث الصحة والعافية
في الأجساد، تجعلها رخوة، مائعة لا تناسب الطبيعة في العالم
الثالث، الأجساد الرخوة لا تتحمل أحزان العالم الثالث، عذاب
يتواصل، موت يتواصل، ضحك يتواصل، بكاء مستمر.

* * *

جاءنا عفو مفاجئ من لدن الحاكم الجديد الذي تقلد مقاليد
الحكم، ناس قالت: خان ولي نعمته..!! ناس قالت: عندما يستلم
يتيم مقاليد الأمور في بلاد ما، على ناسها أن تهىئ قبورها
بأيديها..!! إبتهجنا بسبب العفو الصادر، غير مباليين من يحكمنا،

سواء (شعيط أو معيط) حالنا هو..هو..الحاكم في العالم الثالث لا يجروا وراءه عرية الأمل، لهم نظرات ثقابة، لهم أرواح شيطانية، تعمل للصالح الخاص، لا تعمل للناس، حاكم العالم الثالث، لا يثق بأحد، يدرك جيداً العالم الثالث عالم الثورات والفتن، عالم الانقلابات العسكرية، عالم السلب والنهب، عالم الحروب والمجاعة، عالم الأوبئة الكارثية، مختصر مفيد العالم الثالث مديون على طول الخط.

خرجنا من دون أن نعلم، نسأل سبب سجننا، ناس قالت: الطغاة يبدؤون فترات حكمهم بزج الناس إلى السجون، ثم يتم إطلاق سراحهم في مهرجانات فرح ومواكب إستعراضية، يعرضون ذلك في شاشات التلفزة، هي شيطنة الطغاة الترويضية للرعية، تخويف، ترهيب، تفريح..!!

شاعت بين الناس أسرار متفاوتة، كلام تناثر من فم لأذن، قيل أن غرياء سكنوا الفندق الوحيد للبلدة (جلبلاء)، ذلك الفندق الذي سكنه الغريب القادم من (إيسان) الغريب الذي جلب الفئران البييض، الغرياء الجدد، جاؤوا بهيئة عمّال، كسبة، غرياء كثروا في السوق، يعملون بهمة، بنشاط، شيء عادي بالنسبة لنا، البلدة تفرش أجنحتها على قرى كثيرة، تبين فيما بعد أنهم - على حد زعم مروّجي السر- معارضين لسياسة البلد الجديدة، يعملون لصالح أحزاب لها صلات ببلاد (إيسان)، تجاهد بشتى الوسائل لقلب الأمور واستلام دفة الحكم من الحاكم الجديد، شيء ليس بذى أهمية بالنسبة لي، أنا حمّال ابن حمّال ابن حمّال ابن حمّال

إلى أبد الأبددين، الرعاية حكموا، الأيتام حكموا، أولاد الزنا حكموا، العقلاء حكموا، النساء حكمن، فقط الحمّالون لم يظهر فيهم حاكم واحد عبر التاريخ، جدّي وجدّه الناس في زمانه مؤهلاً لحكم البلاد، لكن سيرته إنتهت عند حكم بلدة، أنا حمّال، لا أجيد لغة كونية غير لغة الأوزان، وطرق التعامل معها، لم أتهن كثيراً بحريتي، منذ صرت خارج أسوار السجن، لفتّ البلاد رياح حرب خاسرة، أقول خاسرة، أكتبها كما أقولها، خاسرة..خاسرة..خاسرة...الخ...السيرة، وفق نظرتي لها، كل من سبقني الذهاب إلى آتونها لا يعود إلاّ بعوق أو محمولاً إلى مثواه الأخير، ناس فرحت بالحرب، ناس تنتظر الحروب، ناس العالم الثالث لا تخاف من الحروب، الناس تندفع صوب الجبهات، تغني، فرحانة بالحرب، جلود الناس مدبوغة على الصعاب، والمشقات، الحروب تخلّص ناس العالم الثالث من السأم، من الهذيان، من الملل الدائم، تجد في الحروب منافع شخصية، تجد فرص ذهبية للسلب والنهب، الجيش يدخل المدن، يخرب، يمشي، الناس تزحف لنقل الموجودات إلى منازلهم، أفراح العالم الثالث تنتهي حين تقف الحروب، تبدأ مرحلة شاقّة عندهم مرحلة الهذيان، والتغيير.

حرب كبيرة بدأت، ساقونا إلى غمارها، أسعفتني قوّتي الحمارية، عقلي البليد أن يختاروني (جندي شغل) (بغل) لا يمل أو يكل، بعدما أخرست المدافع، راقبت وجوه صغيرة، وجوه بريئة تأتي، تأتي لأيام، تختفي، بلد يتدحرج، ناس تتشتت، أيام تمضي، أشهر تتقضي، ثقيل هو الزمن في العالم الثالث، تحولت

الحرب من جبهة القتال، تحولت إلى ضرب المدن، ناس تمشي في الشوارع فرحانة، تهزج، ترقص، ناس تمضي إلى المقابر حزنانة، تدفن، تلمم، أفراح، أحزان، أحزان، أفراح، تلك هي فلسفة الحياة في العالم الثالث.

* * *

توقفت الحرب الطويلة، توقفت فجأة، خرجت الناس سكرانة، رقصت على جثث أبناءها، رقصت على ويلاتها، أفراح دامت لأيام، عادت الأمور من جديد تبحث عن مجاريها، الحياة هي الحياة، الجوع ما زال يرقد في كل بيت، السأم نهض من غفوته العملاقة، الغرب هو الغرب، الشمال هو الشمال، الجنوب هو الجنوب، الشرق ما زال نائماً في حضارة الخراب، القمر ما زال يخرج في الليل، الشمس ظلت تشرق من الشرق، الحاكم فرحان، سالماً غانماً خرج من الكارثة، صحته قوية، رغبته ضارية لمواصلة تغيير الحضارة.

في العالم الثالث حين تنتهي الحروب، تعمل خطط خماسية للبدء بترتيب الأمور، التقشف واجب وطني، الترشيح الإستهلاكي عقيدة ثورية لمواجهة التحديات الغربية المستمرة، كما يصرح الحاكم في العالم الثالث، توقيف الإستيراد الخارجي، يوفر عملة صعبة لميزانية البلد، الكماليات هدر لأموال البلد، تحديد النسل يضمن عيش أفضل للعائلة، اللون الواحد للناس يساوي بين الطبقات، الكفاح، الجهاد، النضال هو دين الناس في العالم الثالث، أنا غير مهتم بما يعلن عبر الشاشات، من فرص عمل، حياة أمثل، أنا أبحث عن عمل يدفع عني غائلة الجوع، وجدت نفسي من جديد أبحث عن مهنة،

ليس للحمال من مسعى سوى اللجوء إلى عالمه، عالم الأسواق،
الزيائن، شاعت البطالة مع خرس المدافع، تم تسريح آلاف الجنود،
تم تقليص الدوائر الحكومية من باب الفائضين، وجدت لا محيص
من العربية..العربية في بلدي (جلبلاء) .. (سيد) المنقذين..!!

* * *

علمتني الحياة..

أنّ العزلة فردوس البشر المفقود، ليس كل عزلة طبعاً، فقط العزلة في ظل الأحكام العرفية، في بلدان (العسكريتاريا)، إعتزل تتجو، تسلم..!! تلك هي فلسفتي الدائمة، رغم أن الطبيعة البشرية، طبيعة إجتماعية، البشري يعشق الوحدة ويعشق التعاون أيضاً، اليد الواحدة لا تصفق، لكن اليد الواحدة في ظل الطفأة تواصل نشاطها الأبدي، العمل في السر، تواصل اليد زراعة الحياة في بوتقات مخفية، لا بد أوان زراعتها في بستان الحياة حتماً سيأتي، الطفأة أعمارهم قصيرة، لكنها ثقيلة، زوالهم يعطيك فرص نادرة لإخراج ما زرعت في سباتك، تعلمت أن لا ألث خلف الرزق الكثير، قانع بما يأتي، لا أنظر لأحد، لا أحسد أحداً، (القناعة كنز لا يفنى)، كلام يردده يأسون لترضية نفوسهم العاجزة، والعاطلة عن الإتيان بالمزيد مما هو نافع، عرفت إنّ ما هو لي..لي، ما ليس لي ليس (ثمت) قوّة تدفعها إلى سلّتي، فلسفة تعلمتها من وحدتي، من النظر إلى الصحف، أدقق حروفها، أحاول تهجئة الكلمات، زملائي يمزحون كلّما أمسك أو أرفع قصاصة ورق مرمية على الأرض، سمّوني (الفيلفوس)، لم أبالي بما يقولون، شعرت دائماً أنني مجرد كادح سينجح أينما يتواجد، تعلمت من

عزّلتي، الحياة أفراح دائمة، ضحك رغم قوة الحزن، أتسع مساحة الفجعة في الحياة، الفرح قليل، لكنه مفيد، لا حياة تستمر بدون جرعات ضحك، الضحك وقود المأساة، أن تضحك لبرهة، يذهب الضحك، ليس من أثر يتركه الضحك، بيد أنه جرف من غير شعور منك ترسبات أحزانك، البكاء نقيض غير متكافئ للضحك، علقم، له جذر ضارب في الذات، في الوجدان، الحزن يهد سدود الذات، ينجرف السيل المتراكم، يبقى وقع الحزن مرسوماً في النظرات، في نبرة الصوت، في الخلجات، في الحركات، في التصرفات، قد تشك في هذا الأمر، تحر عنه في وجوه الناس، أستغل وجودك الزمني في وقت إستثنائي، أستغل وجودك المكاني في بلدة (جلبلاء)، هي بلدة تاريخ، بلدة كوارث، بلدة أقوام لا تتفق، أنت فقير، أستغل فقرك لتتعلم فلسفة الوجود، وحده الفقير رواية متكاملة الفصول، لكن من يقرأ الفقير، لا أحد يتمكن من تفكيك الفقير ليصطدم بركام هائل من الأحداث الأسطورية، وحده الإنسان الحالم، الفقير فقط من يجيد درب الأحلام، وحده يعرف كيف يحلم، الحلم هو فردوس الفقراء، وحده الحلم يسعده، ينسيه ما يجري من غليان في مسيرته، الفقير عنصر مهم في الوجود، الفقراء هم الكواكب السيّارة للتاريخ، بهم يستقيم التاريخ، على أكتافهم يمضي التاريخ إلى النهاية الحتمية، تلك النهاية التي تتساوى فيها كفتا ميزان الوجود، لا غني يومئذ، الكفتان فيهما فقراء، وحده الفقير يشعر بذلك، يشعر بالمدى الفسيح للمسرات، كونها ومضات تبرق في

خياله، يعرف حدودها، يعرف مسالكها، الفقراء هم من بنوا الحضارات، هم العلماء، الحكماء، المخترعون، المبتكرون، هم أبدعوا الأساطير، هم الأنبياء والمرسلين، هم الضحايا، هم جنود الحروب، هي بناء العالم، العالم الغني، العالم الفقير، أقصد (العالم الثالث) عالم الشرق، عالم الغرب، الشرق المتعثر، الغرب المتحضر، الشرق المدافع، الغرب المهاجم.
أنا أريد أسطورتني، جئتك لتصوغ أسطورتني، كما أرويهها لك،
كوني فقير، وكل فقير أسطورة على مسرح مفتوح..!!

* * *

أجلس قرب عريتي، أراقب وجوه ناس تلهث، سحناتهم تفضحها آيات من الهلع، فقدان الثقة، أتابعهم، يمشون بخطوات لا تتشابه في الإيقاع، خطوة قصيرة..خطوة طويلة، خطوة تقرع الأقدام الأرض بعنف، خطوة تقرع بلين، خطوات تستمر، (توقف)، الماشي يتوقف، هو لا يعرف لم توقف، من جديد يبدأ المشي، لا تحديث في مشيته، إيقاعات تتشابهك، حياة تتأرجح، ضحك يعلو، بكاء يصعد، ظلام يزحف، نهار ينبلع، نهار يتوارى، العالم يمشي.يمشي العالم، العالم الغربي يمشي، العالم الشرقي يتثائب، العالم الثالث يبحث عن فرص أخرى للخروج من ركاب الديون، لا شيء يشغل الناس في العالم الثالث من آلامهم، لا شيء يدفع السأم، الملل، عنهم، فقط الحرب، وحده الحرب يسعد تعساء العالم الثالث..!!

* * *

لم أجد في السجن من يؤذيني، يوم أخذونا، وجدت وجوه تتألف معي، وجوه تبرئني، تفصح الوجوه: هذا ليس بوجه جاحد نعمة. وجوه تقصح: وجه ليس فيه سوى تعابير الخير. الوجوه تتطق، ترى ما هو نافع، نبيل، أصيل، ترى الظلام ولو في مسامة من مسامات الوجوه، المجرمون يعرفون بعضهم من خلال نظرة واحدة، الأبرياء يتجاذبون فيما بينهم، سماحة أرواحهم النقية تتألف، وجوه رأيتني خلاف ما رأيتني وجوه تلك الزمرة التي باغتونا في النوم، نقلونا إلى زنازين الهلاك المحتوم، وجوه تعلن عن برائتي لكنها وجوه مكتوفة الحول، مكبلت بالصمت الواجب على السجنين، قضيت سنواتي بين بين، سجون البلاد منا في بلا حدود، سجون العالم الثالث، متاهات بلا نهايات، ناس تردد همساً أن الحاكم الجديد يواصل فتح السجون المنيعة، له حساسية شم الأمور، له أنف كلب مدرب ومجرب، ناس تردد هذا الكلام همساً، في كل مدينة بنوا سجناً للمعتقلين، لأنه توقع معارضته مذ قرر أن يخون ولي نعمته ويزيحه من مكانه، السجانون انتخبوني (سجين شغل) لوداعتي، لحسن طواياي، قالوا لي: أنت (عنقرجي) من هذه اللحظة..!! يعني زبال، كتّاس، موزع طعام، منظم مجاري، مراحيض غير صحية، محبوباً رأوني، أميناً، وديعاً رغم طولي غير المناسب للمساجين، ربما أثارهم طولي، حفزت بقع الرحمة المتوارية، الغافية فيهم، أثارتهم، أتخذوا قرارهم بالإجماع أن يختاروني (عنقرجياً) بعد سوق من سبقني إلى سجن البلاد البعيدة، ولد صغير رأيتة يقوم بما سأقوم به من أعمال، مذ حلت ضيفاً

للزنازين الخانقة، حوادث كثيرة جرت، بعضها حوادث عفوية، بعضها حوادث مفتعلة، من أكثر الحوادث شهرة، حادثة الهروب الجماعي للسجناء، حدث ذلك في ليلة الخميس على الجمعة، ليلة معروفة عند السجناء، الضباط، الشرطة يذهبون في إجازة نهاية الأسبوع، يبقى حرس قليل، يأتي ضابط الخفر، يزور المساجين، ليس من أجل أحوالهم، ليس من أجل أوضاعهم، يأتون لجمع الأموال منهم، يعرفون من لديه مال، أو هناك من يعطي كي ينجو من العقاب اليومي، كل من يعطي سجين مقرب، يأتيه الطعام من خارج السجن، يستحم في مكان نظيف، يأتون الضباط سكارى، رائحة العرق تفوح من أفواههم، يتأرجحون، يضرّبون هذا وذاك، يضربونهم ليس عقوبة، يضربونهم للتسلية، يعلو هدير الضحك، السجناء يتأوه، (ممنوع البكاء) صرخة شرطي أسمر تدوي، تصك الأذان، صرخة ترعش الأغوار، تخرس الألسنة، (ممنوع الصراخ) صرخة تعقب الصرخة الأولى، هذه الصرخة ليس من فم الذي صرخ الصرخة الأولى، شرطي آخر، سمين، قصير القامة، فمه يلعب مثل فم الساقطات، فمه يعلك بطقطقات، الضابط يواصل تأرجحه، يحاول ضبط وقوفه، يريد أن يعيش أسعد أيام حياته، أسعد لحظاته الحياتية سعادة، سكران، حاشيته يقهقهون، أحدهم يمسك السجناء من يديه، يقف وراءه، يلوي يدي السجناء إلى الخلف، الضابط السكران يصفع صفعات (طرااااااق.. طرااااااق.. طرااااااق) صفعة بكف يسراه، صفعة بكف يمانه، صفعة من اليمين، صفعة من اليسار، وجه السجناء يرتجف

بين قوتين عن الشمال، عن اليمين، قوتان متعادلتان، ميزان متوافق صفعات الضابط السكران، صفعتان متساويتان في الصوت (طراااق)، متساويتان في الوقع، الحماية تتطلق في ضحك مدوي، قهقهات تتعالى، قهقهات تنغرز كمسامير لاهبة في أجساد السجناء الجالسين الخاشعين المرتجفين، (نزل عينك) صرخة داوية، ممنوع أن ترى، السجناء أعينهم في الأرض، فقط عيون الشرطة، عيون الضابط السكران، عازف الإقاع الصفعي، فقط عيونهم تلتهم السجن الضحية، ليس (ثمت) خوف، القهقهات، الصفعات، لن تصل إلى آذان المسؤولين، أصحاب القليل من الرحمة، والكثير من الأسرار المجهولة، أحياناً يأتون في زيارات سياسية، دائماً يسألون عن أحوالنا، عن احتياجاتنا، يتكلمون بأسم (الحاكم) راعي الرعية، بأسمه يتحدثون، يؤكدون أنه أرسلهم للوقوف على أحوال السجناء، ضرورة توفير المناخات الصحية الملائمة، العادلة لهم، ضرورة توفير المتطلبات الصحية لهم، الطعام الصحي، الفواكه المهمة لبقاءهم سليمي العقل، أنسجماً مع مقررات الأمم المتحدة، (السجين..السجين يا عالم، أرحموا سجنائكم ترحمكم الدول الكبيرة) الحاكم يعيد كلام الأمم المتحدة على أذهان المسؤولين، المسؤولون ينقلون الكلام، كلام الحاكم لنا، ليس (ثمت) خوف، يتواصل العزف الليلي للإهانة، العبث على وجوه السجناء، سجناء من غيرتهم، أو أدلة إدانة، حشر شباب وجدوهم في الفنادق، جاؤوا يطلبون القوت لعائلاتهم الفقيرة، وجدوهم غرباء في الفنادق من غير تراخيص

طعام ليس للبشر، (يتكرمش)، يغدو مثل جرد مبلل يحتضر، يسحلوه إلى القاعة، يمددوه في ركن دبق، خانق، يمددوه، ببله، بأنيته، بحرارة الصفع، ببرودة الماء، يقضي بقية ليلته أنيناً، توجعاً، لاعناً يوم ولادته، زمن عيشه.

خمس سجناء من خمسمائة وسبعة عشرين سجيناً، أتفقوا فيما بينهم عبر إشارات، طرقات على الجدران، تلك هي لغة السجناء، الأشارات الغريبة، العجيبة، لكل كلمة (طرقة) خاصة، قاموسهم قليل المفردات، لذلك يحفظونها بسرعة البرق.

قرروا إعلان إعتراقاتهم، خمس سجناء، كل سجين في قاعة، كيف اتفقوا، كيف فهموا بعضهم، ليس بوسعي التوصل إلى تلك الإشارات، لغة لا يجيدها إلا سجناء مخضرمون، تفاهموا، أتفقوا في ساعة رعب، قرروا، سيوافقون على كل شيء يخطر ببال ضابط التحقيق (أبو الشوارب)، رجل عملاق، أكثر عملاقة مني، عديم البسمة، صارم السحنة، عيناه لا ترمشان، سيقولون له، أتفقوا على قتل (الحاكم)، سيقولون له: خططنا، لم نفلح في تخليص العالم من شره..!! سيقولون أشياء غير واردة، لا معقولة، هم خططوا لقتل الحاكم، حاكم البلاد الطيبة، البلاد المتواجد عن طريق الخطأ، ضمن جغرافية العالم المسحوق، أقصد، العالم الثالث، أرادوا تنصيب أنفسهم كأول حكومة خماسية تحكم بلاد واحدة، خمس رؤساء في قصر رئاسي واحد، يتخذون قراراتهم (شورى بينهم)، لا يتخذون قراراً قبل إجراء تصويت عليه، تصويت نزيه، علني أمام الناس، أمام العالم، ثلاثة أصوات يعني تمرير القرار، اثنان يفشلان،

سيعترفون، عن كل جريمة لم تحدث، حدثت، ستحدث، في السنوات المقبلة، أمّا البقية، السجناء المحشورون في زنازين خانقة، في قاعات دبكة هم أبرياء، لا يد لهم في محاولتهم الانقلابية، إنفقوا على ذلك، صاحوا صيحتهم المرعبة في وقت واحد، سجناء سأموا الصفعات الليلية، خمس سجناء سمان، سحناتهم ناصعة، جاذبة، مغرية، تجتذب أكف الناس للضرب، بيدؤون بهم الجلسات الليلية، كل واحد هو الأوّل في قاعته، قرروا أن يتخلصوا من حياة تعيسة في زمن تعيس، صاحوا صيحتهم الشجاعة في عالم ليس فيه شجاع، عالم يريد الجميع سواسية، مجتمع إشتراكي، متساوون في الحقوق، الواجبات، الكل فقراء إلى الله، وحده الخالق غني، الحاكم قال هذا، قال كل شيء في مناسبات يومية، كل يوم يطلق مقذوفة جهادية، قول منق من لسان لا ينطق، إلا ما هو يخدم إنسان العالم الثالث، عالم يقف محايداً بين شرق كلّه شر، غرب كلّه ناكراً للرّب، السجناء الخمس، من أجل التخلص من صفعات الضبّاط السكاري، قرروا، تلبس أنفسهم ثوب التهمة، التهمة التي غرّبت البلاد، جعلت أسلحة الجيش رهن أو قيد الرمي، الأسلحة حرة على كل من يخرق (حظر التجوال)، الحاكم يتجول، معه جيش العالم الثالث، السماء مصادرة بطائرات حربية، كل طيار يجلس وراء رأسه أحد أقرباء الحاكم، لا ثقة في العالم الثالث، كل دبابة يجلس فيها مقرّب للحاكم، مسدسه محشو مهياً.. قال لهم:

- حياتكم في خطر، حين أسقط الكل يتحول إلى كلب مسعور ناهش ضدكم..!!

سَلَّحَهُمْ، دَفَعَهُمْ يَحْرَسُوا (بيت النعمة الكبرى) من كيد المناهضين له.

يا كاتب، مجرد وشاية نقلتها إذاعة خارجية، سمعها طارئاً، سجَّلها في شريط كاسيت، تناقلته بيوت حماية البلد من بيت لبيت، وصل الحاكم، نهض من فراشه، قاطعاً قيلولته:

- البلاد في خطر...!!.. (صاح)

جمع زبانيته، أرسل الجيش إلى كل فج، رجال الأمن داهموا الفنادق، من كل فندق في كل بلدة، جلبوا أفواج الشباب، السماء ملغومة بالطائرات، الحاكم يتمنطق مسدسه، الجيش يتجول بالدبابات والمدرمعات، (حظر تجوال) في البلاد، ثلاثة أيام الناس يراقبون الوضع العام، من خلال نوافذ الغرف، من خلال فتحات الابواب، الإذاعات مغلقة، أجهزة تشويش تعمل على (خريطة) الموجات العاملة، الموجات القصيرة، الموجات الطويلة، ممنوع (صوت أمريكا) ممنوع إذاعة (لندن) الـ (bbc) ممنوع إذاعة (هنا..طهران) ممنوع صوت (إورشليم من القدس) موجة واحدة تعمل، موجة تلهب الحماس، أناشيد وطنية، تمجد الحاكم، تلعن العالم الغربي، العالم المحتل، العالم المستعمر، العالم المصّاص لدماء الشعوب الفقيرة، تطلق الموجة العاملة، حملات توعية، تهاجم الغرب، تعتبره سبب الجوع في العالم الثالث، السجون إمتلأت، الحاكم سكن في الفؤاد، من حق المرء أن يخاف في العالم الثالث، من حقه أن يكذب، أن يقول بلسانه ما هو يخالف قلبه، يصفق زيفاً، المرء يخاف على حياته، يخاف على حياة

عائلته، في العالم الثالث، حين يعدم إنسان العالم الثالث حتى لو عن طريق الخطأ، تقذف بعائلته إلى الشوارع، يطرد أقرباء المعدم من وظائفهم، عشيرته توضع في خانة المناهضين للحاكم.

هؤلاء السجناء المصفوعين على طول الخط، الخمس الذين صاحوا الصيحة الشجاعة، في زمن ماتت فيه الشجاعة، ماتت فيه الغيرة العظمى، تورمت سحناتهم، سقطت أسنانهم، صاحوا في ليلة مشهودة، هم مدبروا الانقلاب الذي سيهز البلاد، سيهز العالم بأسره، سيهز العالم الثالث، سيجعل (الأمم المتحدة) أن تجتمع في جلسة إستثنائية، لتناقش، لتتخاصم، لتتلاكم بالأيدي، لتتطير الأحذية في قاعة الأمم المتناحرة.. سيقولون:

- إنتهى دورنا، الحكومات القادمة ستغدوا شورى، حكومات

العالم الثالث أفاقوا من نومهم..!!

حين تلعلعت الصيحة الشجاعة، أنا بدوري بقيت جالساً في رقعتي الصغيرة الدبقة، السجناء إندفعوا إلى القضبان الحديدية، مدوا أعناقهم خائفين، خلت تلك الصيحة، صيحة إستهزاء، قلت لا بد أن أحدنا قد فقد صوابه، سيخرجونه، يمددونه تحت رشاش الماء، لم أتوقف في تقديري، الصيحة الشجاعة، خلتها صيحة مجنون، تبين فيما بعد، تبين بعد لحظات، أنها خمس صيحات تتاغمت في صيحة إستثنائية، داهمت قوة متهيئة الممر الطويل الذي يتوسط صفي القاعات، نادى الأفواه أصحاب الصرخة الموحدة، أخرجوا أيديهم من بين القضبان الصغيرة، أخرجوهم مسحولين، وجوم خيم على الوجوه للحظات، شقت رصاصات الفضاء، عرف

بعد مرور ستة أشهر على السجن الإنفرادي للسجناء، تم نقلنا إلى قاعات كبيرة، قاعات تغص بشباب البلاد، الصغار، الكبار، المعوقون، أصحاب الأمراض المزمنة، أصحاب العاهات الخلقية، أيتام، مساكين، متسولون، أصحاب عربات دفع، كل أصناف المجتمع يجتمع، ليس من المعقول أن يتسول متسول في بلاد العالم الثالث، التسول ممنوع، (عيب وطني)، عيب يخل بقيافة البلاد بين بلدان العالم، ممنوع التسول، الصحفيون يتجولون في الشوارع، ينقلون بهجة البلاد، عيب أن تظهر مشاهد التسول، مشاهد المساكين، مشاهد الفقراء، تم إحتجازهم في السجون، كي تمشط البلاد نفسها أمام أنظار العالم الغربي.

هناك قاعات في نهاية الممر الطويل، قاعات تعلوا منها ضحكات نساء، عرفنا أن نساء البلاد لهن حصة في هذا السجن الكبير، نساء يضحكن، السجناء لا يضحكون، النساء مسموح لهن الضحك، رأيت كل شيء بعيني، أنا (عنقرجي) أمثوا جانبي، وجدوني كائناً لا يهرب، لا يفه بسر، رأيت ما يفعله الضابط السكران، رأيته يخلع ثوب سجينة، يأمرها بالرقص، ترقص عارية، أنا رأيت مرة واحدة، حدث أن أخرجوني في تلك الليلة لنزح دورة المياه الخاصة بالشرطة، أخرجوني، بدأت النزح، دورة المياه قرب قاعة النساء، رأيت فتاة تتعري دون خجل، بدأت ترقص، الضابط السكران يجلس على كرسي، الحماية يصفقون، النساء يتعرين، أمر صادر من سيادة الضابط السكران، يرمين ملابسهن، يبدأ بالرقص، ضحكات ورقص، يالها من ملحمة

كونية متحررة في قاعة تغص بنساء العالم الثالث، وجدوهن في المركبات بلا هوية أحوال مدنية، وجدوهن في الأسواق من غير هوية، وجدوهن بلا (محرم)، لا يجوز أن تتجول امرأة بلا بعل، البلاد خرجت من الكهوف، خرجت من القرون البالية، الفاسدة، الرجال لا بد أن يرافقون نساءهم في إحتفالات كونية لا تنتهي، تلك هي فلسفة الدنيا في البلدان النامية، في كل نقطة تفتيش، تم تجميع نساء بلا هويات، نساء بلا (محرم)، أنزلوهن من المركبات، سحبوهن من الأسواق، نساء لم يسمعن بقرار (حظر التجوال)، أخذوهن، جلبوهن إلى القاعة الكبيرة، قاعة سجن النساء، نساء وجدن التعري، الرقص، وسائل مريحة في السجن، يبعدن عن أنفسهن الجوع، الضرب، ينتهي الرقص، تتوتر الأجساد، تتدلق الشهوات في القاعة الخاصة بالنساء، أنا رأيت ذلك مرة، كثيرون سألوني، أعلنت الصمت، شعرت أن الضابط السكران دس بيننا أعين منصوبة، دسهم لسرقة كلامنا، أراد أن يعرف قوة السر لدي، تجاهلت الأمر، لم أعر ألسنتهم اهتماماً، نجحت في الأختبارات كلها، مضيت (العنقري) المحترم بينهم.

* * *

حين أرجعوننا من الزنازين الإنفرادية، وجدنا أنفسنا في قاعات خاصة بالمساجين، وجدنا أنفسنا في تقرفص تام، لا مجال للنوم، ليس من رقعة أرض، أو شبر أرض خالي، تواصل الصفع الليلي، أينما تسجن (ثمت) ضرب، ضرب متشابه، عرفنا أن الضباط،

ضباط الشرطة يتدربون أيام الكلية على الصفع أكثر مما يتدربون على الدفاع عن أنفسهم، تواصل الضحك المدوي، ضابط يأتي، يذهب، ضابط يتبعه، كلهم يصفعون، كلهم يسكرون، كلهم يعرفون النساء.

* * *

جاءت ليلة مشهودة أخرى، ليلة (خميس على جمعة)، دخل ضابط سكران، يتأرجح كالعادة، بيده سيجارة أجنبية، خشع الجميع لصمت قاتل، قلوب ترتجف، أسنان تصطك، كل واحد يبتهل أن لا تقع عليه عينا الضابط السكران، بعضهم يرغب تأجيل دوره إلى نهاية اللعبة، لأن الضابط السكران سيتعب، تقل وقعات الصفع، ضرباته لا تحمر السحنات، لا تدلق العشاء الفقير من الأحشاء، تقدم الضابط السكران، ضابط قصير، ضابط جديد، علّموه السكر في الكلية، علّموه كيف يمارس مهنة الصفع، كيف يحافظ على رزاقته (الشرطوية)، تقدم بخطوات سكرانة، فاردأ ذراعيه مثل من يتقدم ليمسك دجاجة، يتفحص الوجوه، وجوه خاشعة، وجوه متوسلة، وجوه جاهزة، (يطبطب) بكفه السكرانة على السحنات المستفزة، الكل جالسون في صفين، صف سجناء مقابل صف سجناء، أختار ولد سمين ليس من جماعتنا، ولد قالوا أنه ضرب بسيارته قاعدة تمثال للحاكم، منحوت في تقاطع مروري في العاصمة، الولد ليس من جمعية الحمّالين، الكسبة المسجونين، ولد سمين مهندم، جميل السحنة،

بعد سريان تهمة محاولة قلب نظام الحكم، ولد تخلص من ضرب رجل كهل دخل إلى حوض الشارع، كاد أن يدهسه بسيارته، وجده أمامه، خاف أن يصطدم به، خاف أن يقتله، دور عصا القيادة، زحفت السيارة، صعدت رصيف (الفلكة)، اصدمت مقدمة سيارته بقاعدة التمثال، سقط يد الحاكم المرفوعة في وضعية تحية للناس، التمثال صار أبتري، (يد الرئيس قطع) تحركت دائرة المخابرات، قطعوا الطريق، جلبوا الفئان سحلاً، هناك غش في العمل، غش مقصود، سحلوه إلى جهة غامضة، تم سحل الولد صاحب المركبة إلى السجن، مسكين أراد أنقاذ حياة كهل صار فجأة أمامه، وجد نفسه داخل السجن.

وقف الولد، وقف وقوف البطل الذي لا يهاب الردى، العدا، وقف الضابط القصير أمامه، أسقط سيجارته، صاح: لا تنظر إلي هكذا يا (قشمر)..!! ظلّ الولد السمين ينظر في عيني الضابط القصير السكران، في عينيه شرر، غيظه يتفاعل، يسحب الشهيق بتسارع، مركزاً عينيه كصقر على فريسة، بدا على الضابط القصير السكران تردد، خوف، صاح: أجلبوا لي الفلقة..!! تقدم شرطي، ناوله عصا كهربائية غليظة، رفع الضابط القصير السكران العصا الغليظة إلى فوق رأسه، قبل أن يهوي الضابط السكران بالعصا الغليظة على رأس الولد السمين، باغته الولد السمين، تلقف العصا الغليظة الواقفة فوق رأس الضابط السكران، قامت الجموع، أنهالت على الضابط ضرباً بكل شيء، أحدهم خنقه، تركه جثة هامدة، وقف الشرطيان بخرس

تام، مرتجفان، متوسلان، كبلوهما، قادهوما إلى دورة المياه في مؤخرة القاعة، أندفع السجناء متسللين من القاعة، في ليلة (خميسية) زلزلت أركان وزارة الداخلية، دعت الحكومة أن تقطع إجازتها، تجتمع، تسلل من استطاع تسلق الجدران، أنفلت من السجن الكبير، حدث تصادم في الباب الرئيسي، انتبه شرطي للحالة، خرج إلى خارج السجن، قفل الباب الرئيس من الخارج، بقى بندقيته في غرفته، أخطأ أحد السجناء، أطلق العيارات النارية من تلك البندقية العائدة للشرطي، انهال بالرصاص على البوابة، سمعت قوات الطوارئ ما يحدث، أتت، أنهالت بالرصاص على السجناء المحتشدين في فناء السجن، واقفون ينتظرون أدوارهم للتسلق عبر عمود للكهرباء لصق الجدار، حدثت مجزرة، أنا بقيت في الداخل، وحدي ليس معي سجين، ذهبت إلى دورة المياه، فتحت يدي الشرطيين، شكراني، قبلاني، قام أحدهم بغلق القاعة من الداخل، داهمت قوات الطوارئ القاعة، وجدته مغلقاً من الداخل، فتحه الشرطي الذي غلقه، صاح أحدهم بوجهي:

- أخرج.

قلت:

- رفضت الهرب، سيشهد الشرطيان على ما فعلت.

ظلّ ينظر بحيرة إلي.. قال:

- أأست حمّال (جليلاء).

هزيت رأسي.. قال:

- لا تخف أعرفك.

من يومها أرجعوننا إلى الزنزانات الإنفرادية، عرفت أن سبعة وخمسين نزيلاً وصلوا الشمال الآمن، سبع وثلاثون قتلوا من قبل قوات الطوارئ، واحد وسبعون سجيناً جرحوا، لم يتم محاكمتنا بسبب عدم توافر أدلة إدانة، لا أعتراقات شخصية، فقط الذين قتلوا تم إلقاء التمرد على عاتقهم.

جاءنا العفو من لدن الحاكم الجديد..قالوا:

- تبييض سجون..!!

فرحنا، خرجنا، فيما بعد تبين أن محاولة الانقلاب المزعومة، المحاولة التي هزّت البلاد، المحاولة التي زجت بالفقراء المساكين المتسولين الحمّالين، الكسبة، النساء، في سجون البلاد، مجرد مزحة، نعم يا كاتب مزحة، مزحة أطلقتها إذاعة المعارضة، بمناسبة الأوّل من (نيسان) الشهر الذي ولد فيه حاكم (البلاء) - عفواً - البلاد..!!

* * *

في حياتي العسكرية اختاروني سائس بغال، تعلمت من تلك الكائنات المطيعة الصبر على مرارة الأوامر، في العسكرية عليك أن تتحمل مشاق الأعمال، وحده الصبر مطيتك، حياتنا عقائدية حديدية، حياة بلا قوانين، في كل لحظة يصدر أمر عليك أن تنتهياً حتى في منامك، أو أثناء تناول طعامك، لما هو غير متوقع، جنود بلا قيمة، نعمل بلا ملل، نعمل كثيراً، نرضى بالقليل، لا أعلم ما الذي يجري في دنيانا، الجنود (عاملات) نحل، نكد ليرتاح غيرنا،

رمية نرد في المقاهي، المرأة في العالم الثالث ليس لها قيمة، قيمتها في الطبخ، الكنس، الإنجاب، المرأة في العالم الغربي صارت تنافس الرجال على قيادة الحكومة، عالم مشغول، كل عالم له ما يشغله.

وجدت البغال ملاذي، أنيسي في عالم دائخ، قضيت فترة عسكريتي الطويلة، أحد عشر عاماً، توقفت الحرب فجأة، جلس الطرفان يحصيان جراحيهما، خسائريهما، سرحونا، وجدت نفسي من بعد أعوام قاسية، من غير عمل، وجدت مهنة جدي (العربة العربية) خير مأوى، خير رزق..!!

* * *

تم إستدعائنا من جديد إلى الخدمة، قضيت خدمتي الإلزامية في الشمال، أقولها بكل مصداقية، بلا إستحياء، لم أحمل السلاح، (سلاح سز)، شيء مألوف في الجيش، فئة يحسبونها أغبياء، يتم تجريدهم من السلاح، توزيعهم جنود أشغال، أحببت البغال لصمتها، قوتها، صبرها، عنادها، عدم ترددتها في إتخاذ القرارات الحاسمة لحياتها، رأيت البعض منها، تتدحرج من قمم الجبال، بعدما وضعت لنفسها نهاية مأساوية، بغال تفضل أنياب الكواسر، الضواري على أعمال الجيش، التي لا تنتهي، تعلمت لغتها البريئة، لبت الحكام يتخذوا الدروس المفيدة من البغال، ليتهم ينتحروا عندما يجدون أنفسهم عاجزين عن معالجة جراحت شعوبهم، كي يغدوا أبطال تذرف العيون دموع الفقد عليهم، للحق

أقول أحببتها، حب الكائنات الحيوانية هبة نادرة، ليس كل إنسان يعيش الحيوانات، هناك من يراقب صنف معين من الحيوانات، هناك من لا يعيش بدون حيوانات، حيوانات العالم الثالث تشبهنا، حيوانات بلا فائدة، كسولة، خجولة، قذرة تنام في الطرقات، ليس لها برامج غذائية عالمية، ليس لها بطاقات صحية، ليس لها بطاقات إئتمان، تتقاتل في الشوارع، سائبة مزعجة في الليالي، حيوانات العالم الغربي، نظيفة، لها قوائم غذائية غنية بالفيتامينات، البروتينات، لها مطاعم خاصة، لها أسماء، أرقام، دائرة أحوال حيوانية، مراكز عناية صحية، لها مقاهي للترفيه، لها متنزهات، يركبون السيارات، لها أسواق مركزية نادرة، شركات تعمل على تغليب الغذاء الدسم لها، حيوانات العالم الثالث لا تشبه حيوانات العالم الغربي، صداقة الحيوانات فطرة كونية أزلية.

صرت صديقاً للبالغ، يفرح كل بغل حين أتواجد معه، يشعر بالحزن أو ان غيابي عنه، تلك هي لمحات قد لا تفي بالغرض لترسم في ذهنك . أيها الكاتب الصبور . تصوراً مقنعاً لشخصيتي العسكرية الأولى، لكنها إلى حد ما هي حبات مسبحة تكمل سلسلة حياتي العجيبة، أسطورتني في زمن نامت فيها الأساطير، لك أن تصدق أو تفند، ما حكيته لك، ما سأرويهِ لك من حكايات غريبة، محبوكة، مرسومة بدقة متناهية، ما زلت أسرد لك ما تبقى في ذاكرتي من حكايات أرجو أن لا تذهلك، أرويها كما أقولها لك، أنقلها بأمانة، هي أسطورة، أنت تعرف ما معنى كلمة

أسطورة، أكتب كل ما أرويه، لا تعتبرها خارجة عن سياقات الحدث الأهم، كآها تفاصيل تؤسس في الذاكرات مصداقية ما أرويه لك، ما تنقله أنت على لساني، شيء قد لا يقدم، أو يؤخر من الموضوع الذي أنا بصدد حكايته، موضوع رحلة البحث عن علاج (عشتار)، قضيت من الخدمة الثانية، خدمة الإحتياط سنة وشهران، نقلني ضابط كبير للعمل في حقوله المترامية، فرحت كثيراً، وجدت غرفة طينية فيها أثاث بسيط، قرب نهر يجري، عطاني بندقية لحماية نفسي، أركنتها في صندوق حديدي، خشيت أن أقل له (أنا سلاح سز) قلت لا بد أن يعرف ذلك، فهو أمري، يعرف كل شيء عن جنوده، في الحقل المترامي الأطراف، تألفت مع حيوانات أخرى، قطعان أغنام لا تعد، لا تحصي، أعمل بهمة، نشاط، في مزرعة كبيرة، خيرها وفير، عملي ممتع، غير شاق، أطعم القطيع في أوقاتها، أنظف أمكنتها، للحق أقول راضٍ كنت كل الرضا عن عملي ذلك.

أتتني ذات يوم امرأة في سيّارة الضابط الكبير، نحتت بصرها في جسد عملاق هادئ، قامت بجولة تفقدية، فحصت المزرعة، فحصت طعام الأغنام، ذهبت المرأة الجميلة، تركتني في حيرة من أمري، امرأة لها كل هذا الجمال، تقود سيارة جديدة، في وقت الغروب، أتت بهندام نومها، ملابس خفيفة، شعرها محلول، عطرها يضرب مركز المخ، قلت لنفسي، ديانا غريبة، عجيبة، لم أشغل نفسي أكثر مما شغلت.

في الصباح التالي، جاءني ولد بسيّارة الأمر، قدّم لي ملابس

جديدة، طعام مجلوب من مطعم، ليس طعام بيت، عرفته من طبيعة تغليفه، طعام لذيذ إلتهمته، لبست الملابس الجديدة. في اليوم التالي جاءت المرأة مرة أخرى، جاءت في تمام الساعة العاشرة وعشرة دقائق، أوقفت السيارة، نزلت كملاك بهيئة بشر، لابسة ثوب قصير، شعرها أخذ وقتاً طويلاً من العناية، عطرها يختلف ضوعه عن عطر زيارتها الأولى، نزلت، تقدمت مني.. قالت:

- راققني..!!

قمت من جلوسي، تبعتها كما أرادت، مشت أمامي، أمشي ورائها، تمشي بحركات ماكرة، شهوانية، مطأطئ الرأس، خجولاً أمشي ورائها، تعرف الممرات، تعرف أين تمشي، تمرق بين الأغصان الوارفة، تتحني لتعبر غصن متهدل، أنا أنحني أكثر مما إنحنت، هي أقصر مني، أنا أطول قامة، ظلّت تتجول في الحقل، تقف، تلقي نظرة، أقف على مقربة منها، تهز رأسها، تتحرك من جديد، تخترق الممرات الخائفة، أشجار متوحشة، هي أمامي، أنا ورائها، تهز عجيزتها، ردفان يرتجان، فخذان يلمعان، أمشي ورائها، لا أعرف لم أرادتنني أن أتبعها، تمشي بين الأشجار الكثيفة، أمشي ورائها، لا تلتفت، لا تتكلم، تقف، تمشي، تريدني فقط أمشي ورائها، تناقشت الأمر مع نفسي، قلت مع نفسي، الأمر يريدني أمشي ورائه، مطأطئ الرأس أتبعه مثل كلب عاقل، لا يتكلم، لا يلتفت، يلقي نظرات على الجنود، نظرات على طعام الجنود، نظرات على منامهم، نظرات على خزانات مياههم،

نظرات على دورات المياه، على صناديقهم، أنا أقف وراءه، يهز رأسه، يمشي، المرأة التي جاءتني بسيارة الأمر تريدني أمشي وراءها، تفعل مثلما يفعل زوجها، تفعل فعل ضابط كبير محترف، لا تتكلم، لا تلتفت، تقف، تمشي، لم أجد جواباً لمناقشة لنفسي، بقيت أمشي، هي تمشي أمامي، تهز جسدها الواضح من خلال ملابس خفيفة، أنا أمشي وراءها، وصلنا النهر، وقفت هي، وقفت أنا وراءها، إلتفتت.. قالت:

- كيف نعبر.

قلت:

سيدتي هناك المعبر في يميننا.

رفعت يدي اليمنى، أشرت إلى يميننا.. قالت:

- أحب القفز وعبور الماء مشياً.

قلت:

- أخاف عليك من ماء النهر.

قالت:

- إذا سقطت هل تجيد السباحة.

قلت:

- النهر ليس غميقاً.

فجأة قفزت هي، قفزت قفزة مأكرة، سقطت في النهر، لم تنهض، ظلّت تتخبط كفريقة تستجد، تضرب بذراعيها الماء، مثل مجدأ في مركب واقف، أرادتني أن أنزل إلى الماء لأخرجها، نزلت، مسكت يدها، ألقت بنفسها على كتفي، صار رأسها على صدري،

امراة جميلة، نادرة في زمن حرب كبيرة، جسدها ينبض بقوة،
أنفاسها تخرج حارقة وجهي، عيناها تتقلبان، حاولت دفعها، خشيت
أن يرانا أحد، ماذا سيقول لو رآنا أحد، سيخبر الناس، سيخبر الأمر
بما رأى، ستقول الناس: جندي خان أمره...!! سيلفون علي حكايات
الغرام، الغزل، قلت مع نفسي، سيرميني الأمر بطلقة من مسدسه،
يلقيني طعاماً بشرياً لكلايه، أخرجتها، أخرجت سيديتي المبللة،
تحايلت سيديتي الجميلة، ظلّت ملتصقة بي، تأوهت:
- أحملني إلى السيارة.

قلت لنفسي السيارة بعيدة - عيناها تتوسلان بغنج - أنا جندي
خدمة، سيدي الأمر أعادني من الجبهة لمراعاة أغنامه، لم يرجعني
لخدمة امرأته، حملتها مكرهاً، مشيت بسرعة كي أصل دون أن
يراني أحد، تأوهت:
- أرجوك لا تسرع، أنا أتألم.

ماكرة هي سيديتي المبللة الجميلة، عيناها تقولان هذا، عيناها
واسعتان، مشعتان، تفصحان عن شر قادم، مشيت كما أرادت،
على خبب، أمشي بخطوات قصيرة، أمشي كي لا يتعكر مزاج
المرأة الجميلة في المهدي، أقصد (حضني)، وصلنا السيارة، هي في
(حضني) مثل طفل صغير عليل، أنزلتها.. قالت:
- سق السيارة، أوصلني إلى البيت.

قلت:

- لا أعرف سوى سياقة البغال، العربات اليدوية، حمل الأشياء
الثقيلة.

قالت:

- أحملني إلى البيت، أرجوك.

قلت:

- لا يصح هذا.

قالت:

- لم لا يصح هذا.

قلت:

- أنت..جميييييييلة.

قالت:

- أحقاً ما تقول أم تمزح.

قلت:

- المشي يفيدك، ستستعيدين نشاطك.

قالت:

- أحملني.. أرجوك.

مكراً خائفاً حملتها، أرعش، أتعثر في مشي، الشمس في السميت، حان وقت إطعام القطيع الثاغي، حان موعد سقيها، هي جائعة، عطشانة، السيدة الجميلة المبللة عليلة، هي تدعي على أنها عليلة، مرتاحة في (حظني)، أرادت أن تقفز عبر النهر، أسقطت نفسها في الماء، خائفاً أمشي، خائفاً من عين ترانا، حملي ليس بثقيل، حمل المرأة الجميلة، حمل المرأة المبللة، مثل حمل قشّة، مثل حمل وردة يانعة فوّاحة، مثل حمل ريشة ملونة ملتصقة بالقبّعة، مشيت مسافة نصف ساعة، هي تتأوه في حظني، تضغط برأسها

على صدري، مبللة الثياب، تخالسنى نظرات ماكرة، متناومة تبدو،
تفتح عن سوادين في بياضين، مركبين في بحري حليب، قلت مع
نفسي، لا فرق بين الأثنين، لا فرق بينها، وبين من أرادت أن تغويني،
سيدتي تشبه تلك المرأة بائعة اللبن، القيصر، البيض، كلهن
متشابهات في اللذة، لهن نفس المكر، الخديعة، سيدتي بيضاء، بائعة
اللبن، القيصر سمراء، نساء العالم الثالث لهن نفس الرغبات،
يملكن نفس العقل، نفس الوسائل التدميرية، نساء مسكينات،
محرومات، متروكات، قلت وأنا أمشي، هي في (حضني)، تلك
المسكينة قروية محرومة، امرأة طلقها زوجها لأنها لم تتجب، رجال
القرية يريدون نساء ولودات، يريدون أطفال كالنمل، طلقها، تركها
وحدانية في زمن تكثرفيه الرغبات، تكثرفيه الشهوات، سردت لي
كيف طلقها، رماها إلى الشارع، تركها تستجد بنساء القرية،
قدمن لها العون، صارت تأتي بلبنهن، حليبهن، قيصرهن، بيضهن،
كي تبعها في البلدة، تعود لتعطينهن المال، هذه المتناومة بين
أحضانها، ليست مرمية، ليست سمراء، هي بيضاء، تملك سيارة،
حقوق بلا حدود، ماذا جرى للعالم، قلت مع نفسي، أنت ماذا فيك،
يبدو عليك بنت أصول، لك زوج جيش من الجنود والضباط يرتعدون
حين يطل عليهم، قلت مع نفسي، أنا أمشي، هي في حضني مرتاحة،
رغبتها كما تقول عيناها، أن يستمر مشيها إلى نهاية العالم، إلى نهاية
التاريخ، إلى نهاية الحياة، رغبات النساء لا حدود لها، نساء العالم
الثالث، لا شيء يملكن سوى اللذة، اللذة الباردة، اللذة اللاحسية،
نساء العالم الغربي يردن لذة حسية، يردن المتعة إلى أقصى درجات

النشوة، المرأة الجميلة الناعمة المبللة، ترغب أن يختفي بيتها، أظل
أمشي بها بحثاً عن بيتها، أمشي قروناً، أمشي بلا توقف، هي
مرتاحة، أنا أقشعر من الخوف، كلما أخطو خطوة، ترتجف
أوصالي، سيراني أحدهم، لا بد أن يراني أحدهم، لساني يهذي، هي
تخالسني النظر، أتجاهل نظراتها الوقحة، أقول مع نفسي، كل هذا
الفردوس الأرضي، سياراً آخر موديل، جمال، مال، زوج، ولد، لم
تتحدرين يا جميلة إلى المزالق، وصلنا البيت، خشيت أن يخرج أبنها،
أبنها الذي جلب لي الملابس، الطعام اللذيذ قبل يوم، وقفت بالباب،
مدت يدها وهي في حضني، ضغطت زر الجرس، خرجت امرأة
أخرى، امرأة لا تقل جمالاً، لابساً ملابس قصيرة، فالة شعرها،
بيدها مشط خشبي تنثر شعرها بأسنان المشط الخشبي، في فمها
علكة، أسنانها بيضاء، تططق العلكة (طق..طق)، بالون يندلق من
ثغرها الأحمر، بالون يكبر، هي تنفخ، (طاق) ينفلق البالون، بالون
آخر يتبع، عيناها لا تستحيان، فتحت درفتي الباب.. صاحت:
- ماذا جرى لسيدتي.

(طق..طق) العلكة في فمها تططق..قلت:

- زلت قدماها، سقطت في النهر.

تقدمتنا إلى غرفة مؤنثة جميلة، وضعتها على سرير وثير، فتحت
عينيها، عيناها صافيتان كبدر التشريق، فتحت ثغرها، أسنانها
بيضاء كعاج الفيل، وجدت في عينيها صرخة نادرة، صرخة شهوة
صريحة.. قلت:

- حان وقت إطعام القطيع، حان وقت إسقاءها، أنا ذاهب.

مسكت معصمي.. قالت:

- ابق إلى جانبي.

قلت:

- القطيع جائع.

قاطعتني:

- سأرسل الخادمة لإطعامها.

قمت، تقدمت من الباب، وجدت الباب مقفولاً، شممت رائحة
مؤامرة محبوبكة حولي من قبل امرأتين تعيشان في قصر كبير،
التفت، جدت المرأة تبتسم.. قالت:

تعال قربي.

قلت:

- سيدتي لايجوز هذا.

قالت:

- لو ترفض مطلبي، أخبر زوجي الأمر بأنك داهمت غرفة نومنا،

ستشهد الخادمة على ما أردت أن تفعله معي بالقوة.

تذكرت قصة امرأة قديمة، امرأة ظلّ (الملاّ) يحكي قصتها،
ذلك (الملاّ) الذي رحل بعدما فاجأه شاب عند الفجر، وضع
المسدس في رأسه، كل يوم جمعة، يحكي عن نساء اليوم بعصبية
ويسرد تلك القصة القديمة، أنا أصغي من مكاني، جالساً قرب
عربتي أمام الجامع، امرأة أرادت من (نبي) من أنبياء الله أن يفعل
ما أمرته أن يفعل، رفض (النبي)، سجنته عقاباً لإمتناعه تلبية
رغبتها، تعوذت من الشيطان، في تلك اللحظة سمعت صوت سيارة،

زَمَّرت في الباب الخارجي للقصر، قامت المرأة من السرير على عجل، تقدمت، فتحت لي الباب، خرجت، هي غاضبة، ضامرة في نفسها لي شراً مستطيراً يتطاير شرره من عينيها، وجدت الولد الذي جلب لي الملابس، الطعام اللذيذ، في سيارته، أخرج رأسه بعدما أنزل الزجاجة الجانبية في شماله.. صاح:

- هلوووو عمووووو.

ابتسمت بوجهه، مشيت إلى محل إقامتي، قالت بصوت مخنوق:
- ستنال عقابك لاحقاً.

مشيت أتعثر، أنحني تخلصاً من الأفتان المتهدلة، باغتتني المرأة التي فتحت لي الباب، وأدخلتني..قالت:
- سأزورك غداً، تهيأ لزيارتي.

بصقت على الأرض، تعوذت من الشيطان الذي لا يترك البشر، مضيت أتعثر، أنحني وصلت غرفتي، وجدت الأغنام خالدة للنوم، عرفت أن المؤامرة حيكت بمهارة، لا بد أن المرأة التي باغتتني في طريقي هي من أطعمت الأغنام، أطعمتها، أسقتها، لم تظهر السيدة، لا المرأة مرة ثانية طيلة أسبوعين، تفاجأت بصوت سيّارة في اليوم الخامس عشر من يوم المؤامرة، خرجت خائفاً، وجدت سيدي الأمر في السيارة، وقفت، أدّيت له التحية..قال:

- أنت في الحقل لست في الوحدة العسكرية.

راقفتني، أطلع على الأغنام، مضى، تركني في حيرة من أمري، جلست أفكر في قضيتي، قلت لا بد أن المرأتين ستأتيان ثانية بعد ذهاب سيدي الأمر لإنهاء إجازته، في تلك الليلة، جاءت سيّارات

حمل كبيرة، نزل رجال غرباء، بدؤوا يحملون الأغنام، الأمر وقف مع رجال ملثمين، تحركت السيارات، أخذت مئات الرؤوس من الأغنام، في تلك الليلة لم أنم، بدأت أفكر بجدية حول مصيري، جندي مبعد من ساحة الحرب، يحرس، يطعم أغنام تأتي بالمتأت، تختفي في لمح البصر، مضى سيدي الأمر إلى الجبهة، بقيت وحيداً، قلت لنفسى لن أرافق السيدة إذا جاءت، طلبت منى أن أرافقها، مرّت أيام دون أن أرى أحد، في اليوم السادس داهم المزرعة رجال مخيفين، رجال يلبسون ملابس زيتونية، بيدهم أسلحة غريبة، سياراتهم سود، فتشوا المكان، أخذوني معهم، وضعوني في سجن مظلم، بعد يومين من جوع وعطش، أخرجوني، أوقفوني أمام رجل أبيض الوجه، يبدو أنه لم ير الشمس.. قال:

- أين هو سيدك المحترم.

قلت:

- من حضرة السيد.

قال:

- سيدك الأمر.

قلت:

- لم أره من أسبوع.

قال:

- ماهو عمك عنده.

قلت:

- أنا جندي في وحدته نقلني إلى حقله لرعاية أغنامه، أنا جندي

أطيع الأوامر.

هز راسه..قال:

- ألم تعرف ما الذي يجري في المزرعة.

قلت:

- ياسيد أنا راعي، أطلع الأغنام.

قال:

- لا تتغابي.

قلت:

- أغنام تأتي، أغنام تذهب.

قال:

- من هم الذين يأتون ويأخذون الأغنام.

قلت:

- يخفون وجوههم بلثام.

أخذوني إلى زنزانتني، بقيت شهرين آخرين قبل أن تأتي مركبة، نقلتني إلى معسكر للتسفيرات، من معسكر التسفيرات إلى وحدتي العسكرية، بقيت أسبوعاً قبل أن أنال إجازة أمدتها أربعة أيام، لم أجد سيدي الأمر في غرفته، سمعت من الجنود أنه مهرب كبير، يهرب قطع الأغنام بالتعاون مع فئات مسلحة إلى خارج البلاد، تم ضبط شحنة مهربة، خمس شاحنات، تذكرت تلك الليلة التي وقفت الشاحنات الخمس أمام حضيرة الأغنام، هرب سيدي الأمر، صار خارج الحدود، إختفت زوجته، المرأة التي باغتتني في منتصف دربي إلى غرفتي، أرادت مني أن أختلي معها في

المررة القادمة، عدت في تلك الإجازة، وجدت الكثير من الشباب يهرون من الخدمة العسكرية، صارت الحرب تلتهم الشباب، الناس منشغلون بتطور الأحداث، الغلاء المستشري في أسعار المنتجات النفطية، فساد يعصف بالدوائر الحكومية، هكذا هو العالم الثالث، عالم النفط، المعادن الغنية، عالم الذهب، الكبريت، الفوسفات، الزئبق الأحمر، عالم غني، ناسه فقراء.

* * *

في العالم الثالث تتفشى ظاهرة الفساد، صارت الناس تتلون، الوجوه ما عادت تحمل بصمات الفرح، فقدت عطر البراءة، ناس جدد، وجوههم لا تشبه وجوه الناس قبل سنوات قليلة، القطار متوقف، لجنة عسكرية كبيرة جاءت، معها معدات ثقيلة، قامت بتقطيع القاطرات، تقطيع عرباتها، خلعت قضبان السكك، نقلوها إلى جهات مجهولة، قضبان تمتد إلى آلاف الكيلومترات بين مدن ترتبط بالمركز (جلبلاء)، ناس أكابر، يلبسون ملابس زيتونية، يضعون نظارات سوداء على أعينهم، الناس لا تقترب منهم، يحملون أطنان الحديد، يمضون، ناداني أحدهم.. قال:
- تعال أعمل معنا.

وجد طولي يناسب عملهم، وجدتها فرصة مثالية للعمل، فرصة نادرة للتخلص من ملاحقات الوشاة، عيون الباحثين عن الهاربين لأعدامهم في الساحات العامة، خالوني أنا معهم، أعطوني طعاماً لذيداً، أحمل لهم القضبان، أضعها في شاحنات ترحل، أستمر

العمل لشهرين وخمسة أيام، ذهبوا، سألني شخص واشي:

- لم لم تلتحق بوحدتك.

أخرجت له ورقة عدم التعرض، الضابط الكبير الذي يشرف على عملية تقطيع ونقل الحديد..قلت له:

- أنا عسكري، أحتاج إلى إجازة لكي أعمل معكم.

أخرج ورقة ذهبية، عليها شعار (الجمهورية)، كتب فيها (مجاز من قبل دائرتنا لمدة ستة أشهر)، ذهل الواشي، أنسحب من أمامي، بعد مرور أيام جاءت مركبة طويلة، نزل مسلحون أمامي، اقتادوني مرة أخرى إلى زنزانة بعيدة، بعد أسابيع تم أستجوابي، سألوني عن الجهة التي عملت معهم..قلت:

- عسكريون برتب عالية، لا أعرفهم، نادوني، أجبروني العمل

معهم.

أخرجت لهم ورقة الإجازة الممنوحة لي، بقيت ثلاثة أشهر في الزنزانة، بعد يومين آخرين تم نقلي إلى معسكر للتسفيرات العسكرية، أرجعوني إلى وحدتي، عرفت، العسكريين الكبار، سراق من طراز عالي، لبسوا ملابس عسكرية مرتبة، حملوا رتب عالية، زوروا أوراق رسمية، قاموا بسرقة سلك الحديد الممتد من بلدة (جلبلاء)، حتى ثلاث مدن كبيرة، مئات من الكيلومترات، تم خلعها، سرقتها في وضح النهار، سلطة البلاد نائمة في قمقمها، تلك هي مهرجانات العالم الثالث، الحكام منشغلون في قصورهم، الناس تهذي في الشوارع، عصابات تحتال، تسرق، الفقراء هم الضحايا.

عدت في أجازتي الدورية، أتخذت قراري النهائي أن أهرب من

خدمة الإحتياط، وجدت الناس تستولي على أراضي عائدة للدولة،
ناس لا ترحم كل شبر متروك، مزابل يزيحونها، مجاري مياه
يسدونها، غرف لدوائر حكومية مهدمة يعيدونها للسكن،
الفندق الذي سكنت فيه، صار غالباً، ليس بوسعي تأجير غرفة
مكلفة في زمن تختفي فيه النقود، خرجت أبحث عن بقعة مهملة،
وجدت غرفة دورة مياه لدائرة السكك المنهوبة، غرفة لم يدنو منها
أحد، غرفة مليئة بالقاذورات، حولها مزيلة كبيرة، بدأت أزيح
ركام المزابل، أجمعها، أشعل النار فيها، وجدت صبيان يندفعون
معي، الصبيان تجذبهم النيران، صبيان العالم الثالث لهم روح ثورية
في التعاون، تجذبهم المهرجانات الأفراحية والجنائزية، أحرقنا
المزيلة الكبرى، نظفت الغرفة، كنستها، مسحت جدرانها،
عملت النيران على تطهيرها من الروائح، إشتريت قفلاً، وما تيسر
لي من منام بسيط، سكنتها، وجدت نفسي عائداً برغبة كبيرة
لمهنة جدي القديمة، مهنة الرزق الحلال..!!

* * *

أيامنا هي هي، حياتنا تتحدر، نخرج مع الفجر، نعود في
الغروب، نكد من أجل لقمة العيش، مضت أيامي، مضت على
وتيرة ثابتة، عمل يسير مقابل جهد كبير، قبل أن تباغتني البنت
الصغيرة، بنت تمشي تحت المطر، مبللة الثوب، تتلفت يمنة، يسرة،
وجدتها تستحق المغامرة، شيء ما دفعني، شيء عنيد، غريب،
وقفت أمامها، وقفت تنظر في عيني، واصل المطر غسلنا، واصلت

النظرات غسلنا ، واصلت الثغور تلبيسنا أثواب الغيرة ، الحسد ،
المزاح ، تلاحمنا أمام العيون ، تلاقينا بين النساء ، جاءتني هاربة ،
أعلنت عليها زوجي ، وافقت على ذلك برغبة صادقة..!!

* * *

زكام الديك

خلنا الحزن غادرنا، سادنا ذات الشعور، أنا و(منار)، يقين راسخ، يقين لا يتبدل، من خرج من حالة، دخل حالة جديدة، من خرج من مآثم، دخل حديقة بهجة، ترك الماضي وراءه، الماضي الذي لا يرحل من ذاكرة إنسان العالم الثالث، يمشي الإنسان، عينه في مرآة الماضي، عينه متعلق بخراب لذيذ، ممقوت وجاذب، من المسؤول عن هذا التعلق (الديماغوجي)، هذه (الراديكالية) المنعشة لروح الشرق، العالم يتقدم، عينه على بريق في الأفق يجذب، إنسان العالم الثالث، العالم النائم، العالم المحتل، يتقدم رجعيًا، (تموت الدجاجة وعينها على القمامة) مثل شعبي سائر، ليس بالضرورة أن يغدو مفهوم الإحتلال، إحتلالاً بالقيم العسكرية السائدة، بالدبابات، الطائرات، بل الإحتلال الفكري، الإحتلال الإيدولوجي، الإحتلال الذاتي، الإحتلال النفسي، إحتلال..إحتلال أشد فتكاً من إحتلال الغزاة، الغازي مثل مفتصب يقضي وطره ويمشي، مثل فحل مزحوم بشهوة في مكان ما يصادف أنثى يائسة، يحتلها لدقائق ليفرغ شهوته ويمشي، كذلك الأستعمار فحل مزحوم بشهوة كبيرة، يبحث عن بلدة يائسة حبلى بالسعادة،

يحتلها لتفريغ همومه، يمتص ما يمتص من رحيق، يقذف شهوة حضارته ويمشي، الغازي يريد تلقيح ذاكرة العالم الثالث بحيامن التجديد، العالم الغازي، يجهل أن إنسان العالم الثالث، إنسان فوق العادة، (سوبر إنسان)، يقاوم أمراض الزمن، يقاوم الجوع، يتناسل، يتكاثر مثل الجراد، ينبذ القوانين المرافقة للتقدم البشري، البساطة ملعبه، الخشونة ملبسه، الأئين الليلي (أوركسترا) مسراته، تدرب على حياة خشنة، تدرب على الوجع، على البلادة، على القبلية الأزلية، يدفن موتاه، يعود ليضحك، يلهو، يحب، يتخاصم، الحزن في العالم المحتل، حزن مغلف بالهزء، هزء يتوالد من حركة الأشياء، لا شيء يستقر في العالم المحتل، الناس تلهث، هي لا تدري لم تلهث، فقط تريد أن تلهث، تطارد المظاهر، تطارد كل شيء جديد، ربما مشاعر ناس العالم الثالث، متساوية، متناغمة، يريد إنسان العالم الثالث، العالم المحتل، التكيف مع الجو الجديد، ينسلخ من كينونة البلادة، يريد الصعود إلى القمر بعشية ليلة وضحاها، هكذا جبلنا، نفرح ساعة ننسى ويلات دهور كاملة، شيء ليس بجديد علينا، بلادنا، آه من بلادنا.. من الأزل وإلى العدم تغطس - من شمالها لجنوبها..من شرقها لغربها.. من سماءها لأرضها..من فقيرها لغنيها..من ذكرها لأنثاتها..من حيواناتها لجمادها - في أحوال القهر، في مستتبعات الحرمان، أرض ترفض أن تنتج، سماء قررت أن لا تمطر، (الزكاة يجلب المطر).. (الملا) ينادي، يصرخ، الناس يضربون كفاً بكف، الناس تقول: أعطونا فلوس حتى نزكي..!! جوع يتواصل، نهر

يمشي بلا فائدة ، الفلاح يترك أرضه..الفلاح يقول:

- أسعار البترول عالية، أسعار (الكازولين) عالية، البلاد تجلب الفواكه والخضر مستوردة بأسعار متدنية لكي يقتلوا الفلاحين..!!

ناس على حق، من يدعم الكادح، من يؤسس له أرضية معيشية مبسطة، أسواق عامرة بخير قادم عبر المحيطات، تأتي من كل بلدان العالم..العالم الغني/العالم الغربي..لا بد أن يعيش، لا بد من ضحايا، العالم الثالث خير من يضحى، ناس العالم الثالث يتكاثرون بالجملة، غير مباليين بمن يموت، المهم أنهم يواصلون النضال الثوري من أجل التزايد البشري، تحت فلسفة تبدو مقنعة، فلسفة قديمة تشد الذاكرات، (تزايدوا كي تحتلوا العالم) يجب أن نضحى كي تعيش البشرية الراقية، البشرية غير المكتوية بالشمس، غير المكتوية بالحروب الداخلية الخاسرة، غير المكتوية بالهذيان، في العالم الثالث الفرحة لعبة الذاكرة الماكرة، وهم جبلت البشرية على اللجوء إليه كمشروب ساحر، تخلصاً من ترسبات اليأس، إنفلاتاً، إنفراجاً مؤقتاً كي يتواصل العمر، تندفع عربة الحياة حيثما ترغب، الفرحة جوهرة نادرة، ذهبية، هو إستخلاص مقترح ل(يوتوبيا) السعادة المؤجلة، فقاعة مقنعة تروّض الجوارح، تثلها برهة منطفئة من الوقت، برهة تعالج، تزيح همومنا، تهيننا لوجبات أحزان تتلاحق من حولنا، الفرحة في قاموس الفقراء عمره ومضة، ومضتين ليس أكثر، هذا ما بوسعي التعبير عنه، جراء تجربة مريرة، تجربة حياة متقلبة في بلاد ما بين المائتين، أقصد، النهرين، في بلاد (المنيفيست) كما تحلو ل (منار) أن تصف

بلادنا، تمشي في الشوارع، كل شيء (منيفيست) لا أعرف ما معنى الكلمة، كلمة يرددها الناس، يقولون علناً: سيارتنا (منيفيست) شوارعنا (منيفيست) دوائرنا (منيفيست) مرورنا (منيفيست) حكومتنا (منيفيست)، من كل خرابة فرد يمتلك الصلاحية الكاملة لتنفيذ ما يشتهي من سياسة، تردد الألسنة هذا الكلام، بعدما صار الكلام في العالم المحتل هو الديمقراطية المزعومة، صار الكلام الحرية التي تتشدها الناس، سادة كبار يقولون:

- ماذا تريدون بعد، حررنا أفواهكم من الخرس التام، أطلقنا ألسنتكم من زنازين الصمت..!!

* * *

نعما ببهجة خلناها لا تنتهي، مذ وجدنا البيت العملاق بأسواره، بقببه العالية، بتواجهه الفريد، ليلنا حكايات، نهارنا مرح، نأكل تمر النخيل الذي نضج قبل مواعده، نسبح بماء حار، ماء لا يحتاج إلى وسائل نارية أو حرارية كي يتأهل لإزاحة أوضارنا، فرحة كبيرة بالنسبة لنا، تكمن في تخلصنا من المظاهر المقززة، المؤلمة، المظاهر الآتية مع السقوط، الأخلاق خرجت من جادة الأصول، إنتهى زمن الحب، زمن العاطفة، زمن التناصرات الكتلوية، التناصرات بين الجار والجيران إلى البيت السابع، شيء ساحر دخل البيوت، شيء قلب الموازين الفكرية، قلب الموازين الكبرى للعقل، طفت المادية على الروحانية الشرقية.

إرتاحت عيوننا من رؤية الأعراب، أفواج تلو أفواج تمشي في الشوارع، رتل يتبع رتل، بيدهم أسلحة أوتوماتيكية، الشباب يتحسرون، ليس على البلد الخاسر، فبلادنا خاسرة مذ تواجدت على الخريطة البشرية، بل يتحسرون ليس على البلد (الساقط)، يتحسرون لأنهم ليسوا جنود مثل هؤلاء القادمين لتحرير السنة العالم الثالث من معتقلات الوشاية، لتحريرهم من أوهام الحماسة، العز، الشرف الورقي لحكامهم، تخلصنا أنا و (منار) و (عشتار) والزميل (حمار) من سماع أخبار، حوادث بلدتنا/بلادنا الأليمة، أخبار الذبح، التهجير، الخطف العلني.

فجأة تغيرت أوضاعنا، الفرح فينا ذبل، ومض لأيام وذبل، تبخر الفرح، وجاء هازم الأفراح، علّة العالم الثالث، جاء الحزن من جديد، الذي غير فينا هذا التبدل السيكلولوجي للروح، لمسة، مسحة ذبول راحت تشتد، تبهت (منار)، وجدتها مصعوقة، تحجرت حدقتها، هزّزتها، لم تعر بالأ لربتاتي المتواصلة على كتفها، إحتضنتها، سحنتها تلفح نيران، نيران تندلع من أنفاسها، نيران تتأجج، تتسلل إلى أغواري، صرت مثلها، من غير أن أعرف السبب، تحجر جسدي، زاغتا عيناى، رحت أحرر أنفاساً صائتة، أنفاس نارية كما الديناصورات القديمة، أشارت بعسر، إرتجاف، سحلت كرتي عيني، حجرتها بسبابتها المرتعشة، وجدت (عشتار) تستلقي على ظهرها، في فيء نخلة أكلنا تمرها، تحت ضجيج العصافير المتوافدة، الطيور النائحة، الزميل (حمار) دامع العينين ينظر إلي، راجفاً ألمح رعباً مستطيراً في أعماق مآقيه، يريد

أن يفصح عن شيء ما ، شيء ليس جائز، محتمل، بريق غريب يتوامض، زادني رعباً، وجوماً، (عشتار) تتنفس ببطيء، حشرجات متقطعة، تكاد تختق، كرتا عيناها مندلتان، جفناها تتقلبان، تعودان، بدأت تتقلب، تتلوى قبل أن تتقيأ مادة خضراء، تارة صفراء، عادت (منار) من شرودها..صرخت:

- أسرع يا نوار.

أفقت من غيبوتي، جاف اللسان..هتفت:

- خبريني ما الذي حصل لـ(عشتار).

صاحت متحشرجة:

- بنتنا ليست على ما يرام.

صحت:

- أخشى أنها قد تسمت.

صاحت:

- لم تتناول شيئاً هذا الصباح.

في الساعة العاشرة من صباح اليوم الثامن لوصولنا، حسب التوقيت التخميني لي، كافحنا من أجل إيقاف تنامي الحمى في جسدها، نريق ماء النهر البارد على جسدها، قاءت، إرتاحت، إرتحنا، آه..لو تعرف أيها الباحث، أيها اللاهث، أيها الكاتب، من أجل نهاية حكايتي، ما الذي فعله الزميل الغالي، صاحب الروح النفيسة، الزميل (حمار) دموع دافقة تنهمل من عينيه، يرفع بوزه صوب (الغرب) دون أن يكف عن نهيقه، ينهق بصوت حزين، مثل حيوان تدرب على الغناء، باتجاه (الغرب)، لا أعرف هل أراد

(غرب) حياتنا، أم (غرب) الشر الذي جاء وغير أحوالنا، يرتل أناشيد الألم، كمن ينادي، يستجير بمنقذ لنا، العصافير تتراكم على أشجار البيت، في تموسق وتناغم تلهج مواجيدها الطيور، قدمت طيور من كل صنف ونوع، من كل فج، راحت بلحن جنائزي تتوح، أوراق الأشجار راحت تتطاير متناثرة، كما تفعل في الخريف، كدنا نهلك من هول الذي جرى لـ (عشتار)، قانت، خلدت للسكون، سادنا الوجوم، خيم الصمت على كل شيء، الحزن القديم ظهر بحلة جديدة، حزن لا يتركنا لحالنا، عيوننا يأسفة تتوسل، نحاول القبض على شيء يقودنا إلى سر الذي حصل، سر الذبول الذي حلّ بـ(عشتار)..!!

- ربما حمى عابرة.. (قلت بوهن).

قالت والدمع يفرق عينيها:

- ليت ذلك لأملئ الدنيا زغاريد.

تقدم العزيز (حمار)، حك برأسه ظهري، حزن لحزننا، رأيت في عينيه خيط ضوء عميق وامض، خيط غريب، مثل هذا الخيط ترى لـ (منار)، خيط غامض، رأته (منار) قبل أن أكتشفه، رأته، خافت منه، فكرت، ربما فهم ما جال بذهني لذلك حرّك رأسه، إستدار، يومئ لي، مثل كلب خبير، ليس ككلاب العالم الثالث، كلاب العالم الثالث شهرتها العالمية، إزعاج الناس، كلابنا وظيفتها النباح، أقصد بكلاب العالم الغني/العالم الغربي، كلابهم تفتهم، كلابهم نظيفة، لا تتبع بوجه الناس، كلابهم لها مهمة خالدة، مهمة كشف المجرمين، اللصوص، حين

تحقيق غاية ما ، واجمين نقف ، عيوننا تلتقي ، عيون حائرة ، عيون
تبحث عن تفسير ، منقذ.. قالت (منار):

- نترك هذا المنزل.

قلت لها :

- أين نوجه راحلتنا.

قالت والعبرة تخنقها :

- إلى حيث عذابات جديدة.

- لكن .. (قاطعتني):

- بلا.. لكن.. لنغادر البيت ، أشعر أنه مسكون بالشياطين
والمردة.

تدخل الزميل (حمار) محمماً هازاً رأسه ، تلاقت عيناه عيني ،

هزيت رأسي.. قلت:

- شيء ما يلوح في عينيه يشع ببريق السعادة ، دعيني أرخي حبل

القيادة له.

قالت:

- أنا لست بمطمئنة يا زوجي الكريم.

أجبتها:

- الزميل (حمار) صاحب الحلول النهائية الحاسمة ، سأمنحه

فرصة قيادة مركبتنا.

تقدم الزميل (حمار) ، وقف أمام (منار) ، قادهما دفعا إلى

الغرفة.. قلت:

- لا يرغب أن ترافقينا.

قالت:

- هل تتركني بمفردي في هذا القمقم.

دنوت منها، دنت مني بقدر ما دنوت منها، تلاقت أعيننا،
تحرك الثغران، تلاعبت أغوارنا، أرادت أن أحتضنها ففعلت،
طبعت قبلة على ثغرها، تأوهت، سحبت رأسها، في عينها خوف،
دموع، الزميل (حمار) يراقبنا من (كثب)، (عشتار) منطرحة،
واجمة تنظر إلى العصافير الضاجة فوق الأشجار. همست:
- لن أتأخر عليك.

أشار الزميل (حمار)، عرفت ما رمى إليه، تناولت (عشتار)،
أدخلتها الغرفة، لفتها بمنشفة كبيرة، تناولت (منار) دلو الماء،
ملأته، وضعته في الخرج، وضعت حفنة تمر، حفنة أرغفة، تهيأنا
لسفر قد يطول، (منار) واقفة، لم يحدث أن تفارقنا منذ أن
تزوجنا، منذ جاءتني تشدد الفرار من حياة روثينية ملتها، جاءت،
وقفت قبالي، واجمة تريد حلاً لمشكلة كونية، مشكلة تحدث
في العالم الثالث، البنت لا تعطى لمن يحبها، عكس العالم الغني
المتحضر، العالم الغربي، البنت هي تختار من يناسبها في رحلة
العمر المباركة، في العالم الثالث، تتساق البنت وفق رغبات الأب،
أحياناً الأم، عندما يكون الأب كائناً ضعيفاً في منزله، الأم هي
تقرر، لا البنت، دامعة العينين، البنت تتشغل بأمور الزواج، الأم
تفرض مطالب عسيرة، تريد أن تتباهى بين نساء المنطقة، تتباهى
بالحفلة المقامة على شرف تزويج ابنتها، أنا و (منار) تزوجنا من غير
حفل فني، حفل يغني فيه صاحب صوت مزعج، صوت رديء،

ثغور نسائية تهلهل، غبار يتفاقم، تلك هي أفراح العالم الثالث، لا أحد يفكر إلا بنفسه، الجار يواصل إحتفالاته، جاره مصاب بنكبة، مصاب بخطف ولده، مصاب بقتل رجل البيت المعيل، تتحر الخراف، تلك هي من مطالب العرس في العالم الثالث، العرس الدموي، العرس الروتيني، تضرم نيران، تعمل في قدور كونية، رز، مرق، لحم، شحم، الأغنياء لهم صدارة المكان، يجلسون في إنتظار الوليمة التاريخية، قلوبهم فرحانة، أنهم لن يتبضعوا يوم العرس، لم يصرفوا فلساً واحداً، الفقراء وحدهم ينتظرون فرصهم، ربما لا تأتي الفرص، الأغنياء يأكلون كثيراً، ليس في بيوتهم، بل عندما يحضرون الولائم المجانية، يأكلون أكثر من طاقاتهم.

أنا و(منار) لم نعمل حفلة، لم نرقص، تزوجنا من غير أوراق رسمية، من غير قراءة (الفاحة) من قبل (ملاً) البلدة، رغبة تحديثية تنامت فينا، هي لجأت إلي، أنا وافقت على لجوئها الزواجي.

(منار) دامعة العينين تقف، أنا حائر، وقفت أمامي كما وقفت أمامي يوم هروبها العاطفي، لم أحتمل رؤيتها، لم تحتمل رؤيتي، تقدمت منها مرة أخرى، إحتضنتها، تبادلنا القبل، قبلات لم أحصيها، أرادت أن تبكي، شعرت بإختناقها، رفعت كفي اليمين، مسحت دموعها..قلت:

. لا تليق الدموع بالفجر.

أرادت أن تبتسم، قامت بإزاحة ما تبقى من دمع في موقئها،

سحبت شهيقاً سريعاً، شعرت أنها تريد أن تتماسك من جديد.. قالت:
- أريد مرافقتكم.

ألقيت القضية على عاتق الزميل (حمار).. قلت لها:
- رغبة الزميل (حمار)، ليس بوسعنا مخالفته.

محمد الزميل (حمار)، عرفت انه قصدني، إنتزعت نفسي، تقدمت منه، ربت على ظهره، مشيت إلى العربة، قرب شجرة سدر عملاقة، تقدم الزميل (حمار)، ربطت العربة بالزميل المنتظر، وضعت (عشتار) على فراش متواضع، إنطلقنا، (عشتار) متواومة، تحاول أن تهيمن على عينيها، أشعة الشمس الصاعدة تجبرها على إطباق جفنيها، خرجنا، رأيت (منار) تتعثر من ورائنا، رفعت كفها اليمين، وقفت، طبعت قبلة على كفي اليمين، نفختها عبر المسافة الفاصلة بيننا، إذ ذاك فقط غمرتني راحة مباغته، بسمه المرأة سلاح مهم في السفر، لا تغادر بيتك ما لم تر بسمه زوجك، بسمتها زاد سفرك، تلك هي الدلائل المهمة لمعرفة صدق الحب عند الزوجة، الزوجة الغاضبة، متزمتة الوجه، لا بد أنها غير مبالية بما سيجري لبعلمها، إنها ترغب أن يقضى في الطريق، تلك هي أمنية المرأة التي لا تبتسم لزوجها أو ان السفر، (منار) كلما تبتسم تضحك الحياة لنا، بسمتها تعني أنني أصيب مرادي، بسمه العاشقة لا تخطئ المصير، تعبير صريح نابع من فطرة كونية أزلية لا تنتهي، ذلك هو (الديالكتيك) البشري المنحدر، من بذرة واحدة سكنت الفردوس، أخطأت فحق عليها الشقاء، أليس العمل بهذا البند الأزلي هو قائم في العالم الثالث، لا تقل كيف، عندما

يعاقب مذنب أو بريء، تعاقب العائلة كلها، يعاقب الأهل،
الصحب، الجيران، تعاقب العشيرة كلها، تلك هي أهم البنود
التأديبية للأحكام العرفية في العالم الثالث، أخطأ الأب الأول،
فحق علينا الشقاء، لا كما ذهب (داروين) بنظريته التي غزت
عقول الناس، أقصد نظرية (النشوء والإرتقاء)، الحمار هو حمار
مذ ولد، الكلب هو كلب، القرد لا يمكن أن يتطور أكثر من
قرديته، الزرافة ولد وجدت عنقاً طويلاً يفصل رأسها عن بدنها،
البشر لم يتغير لا في صفاته، لا في شكله، الخيانة هي خيانة في
العصور الحجرية، خيانة الزوج أو الزوجة، خيانة الملك، الرئيس،
الخيانة في العمل، (داروين) لو عاد لبدّل الكثير من مفاهيمه حول
نظريته المزاجية، شيء واحد يبقى عصياً على الفهم، فقط الإنسان
هو لغز الوجود، اللغز الذي يبقى حيرة العلماء، قيل أن أقوام
خرجت من أصولها فاستحالت إلى (قردة وخنزير)، هذا في زمن
ما، تتداوله الكتب المقدسة، لم يتفاجئ إنسان اليوم لو قلنا هذا
(الحمار) هو إنسان منسوخ، إنسان جاوز التعاليم الفطرية، أظهر
فساداً إستثنائياً في زمنه، فتحول إلى حمار، بناء لمتطلبات الزمن،
وحاجة الإنسان إليه، هذه الفكرة ظلّت تداعب ذهني، أنا أمشي
في طرقات تغص بالحمير، أينما نمشي قوافل من الحمير تتجول في
الشوارع، في الجبال، ناس قالت:

- إنتهى زمن الدكتاتورية، الناس تريد التخلص من حميرها،
جلبوها، ألقوها في بلدتها، الناس ستركب مركبات (المنيفيست)..!!
الناس قالت:

- الأعراب مسخهم الله حميأر، كي يخدموننا.
من هذا المنطلق، ظلّت (منار) تتحسب من الأمور الجارية على
أسنفة النساء، كلّما تنظر إلى الزميل (حمار)، لا تستغرب من
كلامي يا كاتب، إن قلت لك كل شيء غير معقول عن تصرفات
الزميل (حمار)، يكفيه فخراً، هو من قادني في تلك الرحلة
العلاجية، علاج (عشتار) من زكام الديك..!!

* * *

إنطلقنا.. غمرتني فرحة مباغطة، هزني نشاط غير معهود
واندفعنا، نخترق مسافات كلّها أدغال، طرق متعرجة تلتوي من
بين أشجار متوحشة، مسالك إفعوانية عسيرة الأجتياز، خانقة،
نباتات نائمة على الممرات، تبعث رائحة حريفة مختلطة، الزميل
الويّ، المطيع، يشق أحشاء متاهة، لم أشعر بخوف، هو الذي
يعرف كل شيء لذلك مشيت وراءه أغني، يستمتع بصوتي، أحرر
سجيتي، تصدح أغواري، أنثر ما يتراكم على لساني من كلمات،
أحاول تنعيمها كما ينغم الشاعر الكلمات غير المتجانسة، من
أجل أن يمضي كل شيء بسلام..!!

* * *

إمضي بنا.. بنا إمضي
أيها الزميل إمضي..
حيثما يقترح مخك الكبير أن نمضي
حيثما تغدغك ذاكرتك الحيوانية العجيبة

[عaaaaaaaaااع..عaaaaaaaaااع..عaaaaaaaaااع]..!!

* * *

إمضي بنا..

مركبتنا بسيطة

مركبة فرح..مركبة حياة

إمضي.. إمضي

شق أحشاء أرضنا الحبيبة

رغم أنها ليست لنا

أرضنا.. أرضنا

ذات الكنوز

ذات الغلال

ذات الجمال

لا تلعتها

أرجوك لا تلعتها

أرضنا..

يقول عنها أجدادنا: أرض نجيبة..!!

[عaaaaaaaaااع..عaaaaaaaaااع]..!!

* * *

هي قرار العهود.. هي مواثيق الوجود

أرضنا أمنا..

كل أم جميلة يكثر عشاقها

كل أرض غالية
هكذا يقول لسان التاريخ:
- ستغدو سلبية..!!
[عaaaaaaع.. عaaaaaaع]..!!

* * *

علام نحزن..
علام نلقي ثوب الفرح
هي دنيانا لا تصالحنا
هي تخاصمنا
دنيانا يا زميل غريبة عجيبة..!!
[عaaaaaaع.. عaaaaaaع]..!!

* * *

أغرب أو أشباح..من عالم غريب
الناس تقول:
- من عالم الكفر.
كلما يدخلون وادياً يتوقف ماؤها
أو يمشي غير صالح للشرب
وحتى..
للفسول
قالت جدتي.. قبل أن تموت:
- كل ميت يغسل بماء تحت ظل الاحتلال

جدته يتهرأ
أو يدلقة قبره
خارج لحده
حكايات ليست من بنات خيالي
حكايات كئيبة
يا لها من حكايات مربية..!!
[عaaaaaaaaااع.. عaaaaaaaaااع.. عaaaaaaaaااع]..!!

* * *

كل زواج تحت نير العبودية عاطل
لا..لا..لن أقول باطل
ستقول الناس عنّي:
- أفتى الولد الحمّال
متشرد بلدتنا
بعل الفجرية
عملاق (جلبلاء).. الحبيبة..!!
[عaaaaaaaaااع.. عaaaaaaaaااع]..!!

* * *

هو العمر.. عمرنا ، كتاب مفتوح
أخشى أن أقول مفضوح
ستقول الناس:
- مرة أخرى نعق (الفيلفوس) فحل الفجرية..!!

[عااااااااااااع]..!!

* * *

الولد الشقي حمال (جلبلاء)

أطلق كلمة غريبة..!!

[عااااااااااااع]..!!

* * *

غريان المآسي

يا زميلي ستتعق في ديارنا

طالما

عشاق الكراسي

في بلادنا..

لا يعرفون لغة الحب والوئام

لا يعرفون لغة السلام

لا يعرفون غير لغة واحدة

هي لغة الخصام..!!

[عااااااااااااع..عااااااااااااع..عااااااااااااع]..!!

* * *

فجأة توقف لساني، الزميل (حمار) واقفاً ينظر في طريقيين،

ممران يتوغلان في أعماق أحراش متداخلة، منحته فرصة تفكير،

تقدمت من (عشتار) وجدتها نائمة، تنتنفس ببطء، أزحت العرق من

على وجهها بمنديلي بعدما بللته، انتبهت لهدد يقف على غصن،
كركر صوته، (كركركركركركر)، إنداح صده
متاغماً بين التعرشات المتشابكة للأحراش والأشجار، إلتفت
الزميل إليه، تحاورا، كل بلغته، كل بطريقته، حوار حيواني
بريء، بليغ، حمحم الزميل، وجدته يومئ لي، إنطلق الهدد،
إنطلقنا وراءه.. قلت:

- ربما يمتلك نبأ جديد.

ممرات تختق برائحة النباتات الحريفة، حر لاهب، متاهات
تتفرع، ممرات تضيق وتضيق، شعرت من جديد أن رحلتنا بحاجة
إلى مواجيد، الزميل (حمار) يحتاج إلى وقود معنويات أكثر من
وقود المعدة، تطربه الأغاني، أغاني المآسي، حكايات بلدتنا،
بلادنا المنسيتين، لا شيء في يومنا هذا يذلل الطرق، أو يبدد
وحشتها، إلا براكين أغوارنا المتلبدة بالطوفانات المتلاحقة، بللت
ريقي بعدما أدلقت في فم (عشتار) قطرات من ماء النعناع، زجاجة
ماء دستها (منار) في الخرج، ماء يزيل غازات البطن، يريح
الجسد، ينعش الذاكرة، حررت صوتي، صوتي الذي لا أعرف
هل يفلح أن يعبر عما يحدث في بلاد غزتها مركبات (المنيفيست)،
أيما تتواجد تفرغ الكلمة أذنك، هذه الكلمة الغريبة، العجيبة،
مركبات (منيفيست)، شوارع (منيفيست)، رجال مرور
(منيفيست)، زوجات (منيفيست)، ووو... كل شيء (منيفيست)..!!
كل شيء في بلادنا صار ضمن هذا النطاق، هززت رأسي، قلت:
لم لا أغني أغنية (منيفيستية)، أغنية كلماتها (منيفيست)،

ألحانها (منيفيست)، مضمونها (منيفيست)..!! قلت أيضاً: أسميها
أغنية (منيفيست)..!!

إنسجماً، بناءً لمتطلبات المرحلة (المنيفيستية) في بلادنا، رحلت
من جديد، أنثر - واثقاً من قدراتي - أغنيتي (المنيفيستية) إلى
(عشتار) التي تحب ذلك، والزميل (حمار) الذي متحمساً يندفع
بهمة ونشاط على إيقاع صوتي، الحشائش، الأحراش، الهدهد
الدليل، الممرات المتوالدة، الخانقة، كل شيء يرقص مرحباً بناً،
يشيعونا راقصين، بينما نحن نخترق جدار الزمن العسير، ناشدين
معسكر المصير..!!

* * *

القسم الثاني

[ماستروييه (منار) د (نوار) ..]

قبل أن تحكي

من هي (منار)..!!

لم أطرح سؤالاً عليها، خشيت خدش بالون حنينها، وإنهاض ما نام في ذاكرتها ذلك الفقدان الكبير، فقدان أمها، فقدان أبوها، فقدان عشيرتها، مملكتها التي أوتها، المرأة في العالم الثالث، رقيقة مثل الخزف، تتكسر بيسر، تحافظ على بذور الحزن فيها، الفرح الموسمي لا يغير من إستراتيجيتها القادمة، ليس بوسعها ترك أحزانها، حتى لو وضعت في الفردوس، من حقها أن تغدو هكذا، رجالنا خدم الحكومة، جنود، حراس، وشاة، سجانون، سجناء، النساء في العالم الثالث ملتهبات، مبتليات بشهوات لا حدود لها، (منار)، سردت لي مقتطفات، مقتطعات من حياتها، طالما لكل إنسان حياة، فيها الكثير من الأسرار، فيها الكثير مما هو معلن، لكل امرأة حياة، فيها تصدعات، فيها نكبات، فيها فقدان المزيد من أشياء هي واقع حال كل امرأة يقذفها القدر في هذه البلاد.

غريبة بلا أهل، مثل شجرة بلا ثمر، لا تعرف من أين قدمت، أو متى ولدت، ينادونها (الكيوليّة) أي بمعنى حضاري للكلمة

(الفجرية)، قوم لا يركنون للهدوء، بتعبير أصح، ينبذون الخلود، الجمود في مكان ما، مهما توفرت فيها من مقومات الحياة، قوم وجدوا التقل كينونة الحياة السعيدة، تحدوهم رغبة هي ميراث مقدس، عليهم نثر أشلاء موتاهم على بساط البسيطة، لا يؤمنون بتأسيس المقابر وزيارتها، نساء الفجر لا يجدن البكاء، ضرب الخدود، لطم الصدور، موتاهم في كل شبر أرض كي تغرد الأرواح كل ليلة:

نحن سادة العالم

نحن سادة الطبيعة

نحن أسياد البسيطة..!!

لا نعرف من أين أتت كلمات يتها مسن بها نسوة (جلبلاء)، يقلن عنها (الإيسانية)، قوم انحدروا جرأ الجوع من الجبال الوعرة أو الوديان الضارية، قوم متهمون دائماً بأنهم (قوم أنس وطرب) الناس تقول عنهم هذا، أينما تضرب خيامهم تقام حولهم الشبهات، تنسج حكايات الليالي الملاح، لا أحد يعرف إن من تتخذ البسيطة بيتها، روحها تغدو وثابة.. هيابة، تواقّة للتحليق، التغريد، شاءت الصدفة وربما (حظي الجميل المشرق) كما تقول لي، أن تتواجد في أبهى، أجمل لحظات شبوبها في مدينة الخصومات (جلبلاء)، (هنا اكتشفت نفسي)، هي تقول ذلك، لا أعتقد لأستمالي، أو كلام الحبيبة في أذن الحبيب، عرفت نفسها، عرفت من هي، دائماً تتاديني: (بعلي الأمين، الناصح، الرفيق المثابر، الذي هو ماءي، هوائي، دواء كل علة تعصف بروحي أو ببدني)..!! أجيها على

الفور: أنت يا (منار) هبة البرق، المطر لي، هبة الطبيعة الرحيمة،
قذفتك السماء مع الماء، أنت الكما الذي إنبثق في لحظة حياة،
صرت غذائي الأبدي..!! تقول عن كلماتي: (كلام جميل لا أشبع
منه)..!! دائماً تطلب مني أن أردده على مسمعا، كلما نلتحم،
لنخصب ببذور الوجد واليهام روحينا الجريحتين، اليتيمتين كما
يحلو لها وصف المشهد..تقول عني:

- (بعل البعول) .

- (صاحب الصوت المهياج) .

- (صاحب الصوت الهياج للذكريات البهيجة) .

ممتة، فرحة أراها مذ وعت، عرفت إن الحياة رحيلاً دائماً،
رحيل مع رفيق لا يمل العشق، (مؤنس، لذيذ، لن أشبع من صوته،
لن أرتوي من غرامه،) على حد زعمها، تلك هي غاية الغايات
لكل أنثى مصدوعة الأغوار، ملتعبة الذات، قنوعة بما ستخصها
الطبيعة برغبات، آمال واسعات، لم أجدها شرهة متهورة، لا ك
(اللواتي) يلهثن خلف المظاهر، السعادات القصيرة، وجدت نفسها
تلهث لهاث العطشان، في صحراء نحو بقعة سراب، تلهث خلف
هذا (.....) كما تصفني:

- (الكائن الودود).

- (الكائن المثالي).

- (الكائن المهيب).

في بلدة نادرة، فوق العادة، بلدة لا تستقر على حال، تريد تبديل
جلدها مثل الأفاعي، بلدة لا تتصالح فيها الرغبات، لا تتألف فيها

المبول، بين أطيافها، أعراقها، ودودة، طيبة المعشر هي، لم تعكر
مزاجي يوماً ما، لم تخالفني في مشورة رأي، وجدتها راغبة،
راهبة في محرابي المقدس، أنستني من أنا، تقاسمنا الحزن،
تناصفنا الفرح، حزن لا ينتهي، فرح بالكاد نلتمس ضفافه، من
خرية لخرية، من مكان لمكان، تسير مركبتنا، مركبة الفرح
الدائم في زمان ليس فيه نبض سرور، هي من انتشلتني من حياة
خشنة، (نوار خلصني من قوم بلا وطن) تقول ذلك، صرنا يتيم
ويتيمة، كائنان في بلاد لا ترعى أيتام كوارثها. تقول هذا الكلام
دائماً: (لا ليلنا ليل، لا نهارنا نهار، مذ إلتقيننا، (تقصد أنا وهي)،
مذ حشر، (تقصد أنا حشرت)، في بدني نار غريبة، حرمتني
النوم، عزلتني من القوم، قادتني النار، ألقنتني عليه، (تقصد
علي)، وجدته، (تقصد وجدنتي)، الماء الذي أطفئ حرائق روحي،
حملني (تقصد أنا حملتها)، برقة، حنان وضعني، (تقصد أنا
وضعتها)، رغم صغري في مركبة الحياة الحلوة، حياة الرحيل،
الرحيل الذي هو صفة قومي..!!

* * *

كائنات شبحية

طار لبّي حين نفخت قبلك في الهواء، قبلك النارية، قبلك
الصادقة، شدّدت نظري، ركّزت بلا ترميش جفوني، كي لا
أفلتها، أفلت قبلك الطائرة منك إلي، لمحتها فراشة زاهية الألوان
تندفع بقوة نحوي، تتطلق من ثغرك الحلو، من كفك الحنون،
تتطلق بقوة رصاص، رصاص صائبة من فوهة قنّاصة، راميتها
ماهر، دقيق، تندفع ثاقبة نحوي، تندفع من قلب عاشق عبر عينيه
القاتلتين لفتاة ساحرة، ملهمة سلبت عقله، خلبت لبّه، في يوم ذي
برق، رعد، مطر كثيف، أنت القنّاص، أنا الطريدة، حبست
أنفاسي كي لا أخطئها، أخطأ قبلك، قبلك الإستثنائية، قبة
فريدة، لم يحصل أن تفارقنا هذا الفراق، مذ إلتقينا، مذ جئتك في
ذلك اليوم المضيء، مذ طرقت باب غرفتك، غرفتك التي أضاءت
دربي، نورّت حياتي القادمة، مذ قبّلتنى بنت صغيرة، تستتجد بمن
يهواها، فتحت ذراعيك، فتحت قلبك، فتحت مستقبلك كي
ترعاني، قبلك تندفع، تطوي المسافات المغومة بالخوف،
المسكونة بالجهول، فتحت عيناى على سعتهما، فرشت كفي
على أقصى مدى، بسرعة البرق وصلت القبة، قبلك الحنونة، قبة

(نوَّار) منوَّر حياتي، قبلتك المنطلقة من ثغرك، من فوق بساط كفك اليسار، (قاطعتها: اليمين)، أجابت..اليمين، اليمين نعم اليمين، عودتك يا (نوَّار) أسكرتني، أنستني، أحاول أن أتذكر لحظة الفراق، قبله ثغرك العذب المتسريلة بنبضات قلبك الحنون، مسكتها، مسكت قبلتك، دون أن تفقد من لهفتها، حرارتها، ضممتها إلى صدري سرعان ما إخرق اللحم، سكن قلعة فؤادي، عندها فقط شعرت بأمان، شعرت بقوة تتدفق في كياني، تنفست الصعداء، طار الوجمل، اندحر التردد، صرت صاحبة شجاعة نادرة، وقفت أنتظر، أنتم تمشون، أراكم، رغبة مرافقتكم تشعل أغواري، تمزق أوصالي، عندما وصلت العرية إلى المنحدر الهابط إلى النهر، هناك حيث الجسر الخشبي يلوح كخيوط رفيعة، عبرتم، أخذتم معكم خويفي، دخلت، أحكمت رتاج الباب، توجهت إلى غرفتنا، غرفة النوم، غرفة التحاضن الليلي، غرفة الحوارات الجميلة، رحت أشم عطره، عطرك المنبث في أرجاء الغرفة، على أرض الغرفة، على جدرانها، في سقفها، أبحث عن بصمات قدميك، أقرب أنفي من الجدران، من أرض الغرفة، أسحب النفس العميق، أحتفظ بالنفس، أغربله، أخذ رائحتك، أطرح الزفير الخالي منك، تارة أتقدم كمسحورة، منتشية من بقايا أسمالك، أضمها، أسكر بها روعي التواقفة، أشعر من خلال أسمالك الفقيرة أنت معي، أشعر بك، ليس وحدك طبعاً، (عشتار) تكرر، واقفة تنظر إلينا، (كركركركر) كما تحب أن تداعبها، (كركرة بكركرة) مبهجة ترانا ما نعمل، تفرح

أحياناً، تحزن، تغضب أحياناً، تفرح حين أعتلي أنا صدرك،
تغضب حين تعتليني أنت، (ولج نامي يا بت) تقول لها، لا تمام،
(ولج نامي يابت) أقول لها، تأخذ كلامي، تمام، (عشتار) تقف
مسرورة متقافزة تتراقص من حولنا، تتواجد روحاً، قلباً،
تلامسني، تكاد تلقيني، تعتليني، تمددت على سرير النوم،
وجدت بيّ رغبة كي أستغرق في قيلولة، قيلولة داهمتني، غشاني
نعاس شديد، هبطت مركبة النوم، أيدي وديعة حملتني، وضعتني
على فراش وثير، أخذتني...!!

* * *

هذا الذي جرى سأحكيه بكل حذافيره، لا..لا..لن أقضم من
الحكاية شيئاً، ليست تفاحة كي أقضم منها ما أقضم، أترك
البقية لوقت آخر، لن أفعل مهما تأتي المترببات التالية، أنت تعرف
طبيعتنا يا بعلي، طبيعتنا - نحن الفجر - نأبى اللف والدورن، نحن
قوم لا نكذب، العالم يعرف ذلك، لا أحد يكره الفجر، يتجولون
بلا هويات، الأرض كلّها ملكهم، من بساطة الحياة شربنا رحيق
الصدق وعسل البراءة، هكذا علّمتنا الطبيعة، الطبيعة أمّنا
الكبيرة، الصدق هويتنا، براءة، فطرة نتعامل مع العالم، كل
العالم هو بيتنا، العالم المترامي، العالم الكبير، ليس عالم
المآسي، نحن قوم لا نحزن، لا يهمنا ما يجري، نقول دائماً، البشر
يختار طريقه في الحياة، إن وقع في تهلكة، هو إختار طريق
الهلاك، إن أصاب النجاح، نقول، هو إختار درب الحياة، أحاسيسنا

هي ترنيمات الحرية، هي نبض الوجود الساحر، مغامرة حضارتنا الصامدة، منذ بدأ قومنا تخصيص، تقليعة تخالف البشر في زمانهم، أختاروا التثقل الدائم إنسجاماً مع طبيعتهم العاشقة..!!

* * *

نهضت من قيلولتي، مرتاحة، أشعر بشيء فوق العادة يغمرني بموج نور يشع من مكان ما، نور يتدفق من كل شيء، خلته بصماتك، راح ينمو، يكبر، تيقنت لحظتها إن (عشتار) زهرة عمرنا، قد شفيت، تعافت من وعكثها المباغثة، لعنت الديك ولحمه، بدأت أمشي دون رغبة في السكون، خرجت إلى باحة البيت، قمر منير يشيع العالم بنوره، نسيم منعش، رطب يغمر الدنيا بسعادة لا توصف، أصوات ناعمة تتطلق مع خريز النهر، كل شيء يخضع لرتابة منظوماته الفطرية، القدرية، أشبعت روعي بالنسيم الرطب المنعش، أفرد كفي، أستنشق بعمق، غزارة، أشعر بتصدعات هائلة تترقع لها أغوار، رأيت أسراب ذباب تتطلق من فمي، راحة تحل محل الآلام القديمة، عدت، دخلت غرفة المطبخ، أنرت القنديل الزيتي، لكت بعض التمر، كسرة خبز، شربت قرح ماء، هنا حصل الوجوم، حصل ما لم يخطر ببالي، تحجر جسدي، كادت أنفاسي تتوقف، ثمة أصوات تملو، أصوات، ضجيج قادم في بداية هذا الليل الرائق، كجاسوسة محترفة أرهفت السمع، أنا أكاد أن أهوي من شدة ضربات قلبي، أطفأت القنديل، هرعت إلى مؤخرة المنزل، هناك

حيث سلّم من طين يصعد إلى قمة غرفة صغيرة مهملة، غرفة تطل على جهة النهر، (غرفة المرصاد) كما وصفتها، يومها قلت لك: أنت أعرف بشؤون وأمور كثيرة هي خارج حساباتي الأنثوية. شعرت بأشياء تجرح بدني، مهملات متروكة، حشرت نفسي داخل أشياء متراكمة، أسمال قديمة، صفائح مزنجرة، زجاجات مشروبات روحانية، أكياس خيش متراكمة، شعرت أن أصوات مفرقة تصدر من أغواري، كتمتها بشد رابطة رأسي حول فمي، تقترب، تملو الأصوات خارج البيت، تدنو، تدنو في ليل مقمر كثيف، واضح النور، توقفت مركبات خارج المنزل، توقعت أنها مركبات الأعراب، جاءت تتبعنا، جاءت تبحث عن الزميل (حمار)، هذا ما تيقنت منه، المكان لا أحد يمر به، أسبوع بحاله لم نشم رائحة بشري، لم نسمع ضجيج العالم، لم تمر من هنا مركبات الأعراب، لكم خرجنا، تجولنا، وصلنا الجدول المائي، لهونا داخل الماء البارد، لم نشم رائحة بشر، سوى حيوانات الليل، الحيوانات الجائعة، الحيوانات المتناسلة، شعرت بالباب يكاد ينخلع، قلت: هم إذاً.. لا أحد غيرهم يفتح المنازل بدون إستئذان. قلت أيضاً: فليأتوا وليغربلوا البيت، الزميل ليس هنا، غادرنا..!! (سأقول لهم)، لمحت جسداً بشرياً تطاول من وراء الجدار، جسد متشح بسواد، ألقى بنفسه إلى الداخل، رأيته بوضوح، أشعة القمر غسلته، أستوضحته، ولد طويل، نحيف، رأسه ملثم، قلت مع نفسي، هم إذاً، لا أحد يرافق الأعراب غير الملتئمين، المترجمين الخشنيين، تذكرت كلاب الأعراب، قلت أرجو أن نسوا كلابهم، كلابهم

لا تخطئ أهدافها، لها أنوف عجيبة، ستكشفني كلابهم،
سيأخذوني إلى (بوكا) سيأخذوني إلى (غونتانا) سيقولون لي:
أين بعلك..!! سيقولون لي: أين هو معلم (الحمار) الذي يعرف كل
شيء..!! سيقولون لي: أين الحمار..!! ماذا أقول لهم، هم لا
يصدقوني لو قلت لهم بعلي أخذ إبنتنا العليّة، إبنتنا التي رفضت
أن تأخذ منكم الهدايا يوم جئتم لشراء (الحمار)، أخذه بعلي إلى
طبيب عشائري، طبيب أعشاب، طبيب سيد..!!، لا يصدقوني،
ماذا أعمل، تماسكت، حافظت على هدوئي، فرائصي رفضت أن
تستقر، ظلّت فرائصي ترتعد، تيقظت حواسي، لمحت الولد
الملثم، الولد الطويل اللابس ملابس سوداء، لمحت يعالج أكرة
الباب من الداخل، فتحه، فتح الباب الكبير، إندفعت خمس
مركبات سوداء إلى الداخل، مركبات (منيفيست) كما يحلوك
تسميتها يا بعلي، أنا لا أعرف أنواع المركبات، ألم تقل كل
المركبات في البلدة، في البلاد (منيفيست)، يوم سألتك ما معنى
(منيفيست) قلت لي: لا أعرف..!!

إنفجرت أبوابها دفعة واحدة، أبواب المركبات السود، هبط
ملثمون، كوكبة بنات بينطلونات، جرجروهن إلى الداخل، على ما
بيدو، أو بالأحرى الجميع سكارى، عشرة شبّان بأسلحتهم، ست
بنات يتأرجحن، يتمايلن، كادت روعي تغادر بدني، شعرت أنني
أطير، تماسكت، قلت: ماذا سيحصل لو لم تغادرا، ماذا سيحصل لو
إكتشفونا معاً، يقيناً سنغدو أهدافاً سهلة لحفلة ليلية ساهرة،
سيمطروننا بالرصاص لا محالة، سينحروننا بسكاكينهم اللامعة..!!

قلت أيضاً: شكراً لذيك الذي أبعدكما..!! حرّكوا المركبات إلى ركن واحد، بدأت الكركرات البناتية تعلقو، فوأحة يعطر الفضاء، المجون، بدأت أيدي تفرش بسط، تم إخراجها من أحواض المركبات الخلفية، أيدي بدأت تخرج صناديق، تعرض زجاجات تلمع تحت وهج القمر الساطع، مرت اللحظات ثقيلة كاتمة أنفاسي، شعرت بضيق مئانتي، لحظة خلعت بنت سميئة بنطالها، قعدت تشخ بولها، كدت أنزل بولي على نفسي، تحركت ببطيء كي لا أحدث صوتاً، نزعت سروالي الداخلي، تحررت من بولي، ليس البول فقط، شعرت ببرازي يندفع، كدت أصوت من دبيري، لو لم أكبح جماح الريح المندفعة من جوفي، كظمت غيضاها، عاصفتها الكيماوية، خرج براز ذو رائحة بدأت تمنح المكان نتانة، خشيت أن يشمّوا رائحة برازي، لو شموها لهكت لا معالة، لكن البنات استلقين عاريات، خلع الشبان أسماهم، صرت أنظر إلى مشاهد مرعبة، مشاهد تجانس علني، واحدة تمصمص قضيباً، أخرى ترقص، واحدة إستعجلت الأمور، نامت تحت أحدهم، واحدة يحتضنها واحد، واحدة تعمل مثل الحيوان، تتقدم من واحد متهاياً لفعل الحب، تتقدم، ترجع، مثل خروف يريد أن ينطح، لكنه يخاف، تتقدم، تعود، واحدة تجلس خلف واحد، تحضن الواحد من الخلف، أربع يجلسون ينتظرون أدوارهم، أنظر، يزداد الرعب في، أنفاسي تتسارع، قلبي يكاد ينخلع من شدة الضرب (دم.دم.دم..دم.دم.دم) ضربات قلبي صارت مثل درداب الطبول، مثل ضرب عنيف على الدف، ليلة لم تتقضي بيسر، طالت كثيراً، حدثت فيها أعاجيب، بعد ساعات أنس، تهاوت

الأجساد، تعبت من فعل التحاضن، من فعل الجنس، بدأت البطون تجوع، أجاج أحدهم ناراً، راح آخر ينحر (نعجة)، لم أرها حين أنزلوها، نعجة سمينة، ظلت تتوسل أن يتركوها، نعجة عرفت أنها مذبوحة لا محالة، سرعان ما قرقت أغواري بالجوع، جوع داهمني، لساني بدأ يقطر ماء، طار شواء اللحم المشوي، طار إلى الفضاء، طار إلى العالم، قبل أن يبدأ بالشوي، شبتت من رائحة اللحم المشوي، تعالت أصوات بنات آوى، أصوات الكواسر، أصوات الطيور الجارحة، الرائحة أيقضت شهواتها، جذبتها، سلخوا (النعجة) بدأت أيدي تمد اللحم اللامع تحت وهج النيران، تمدها إلى النار، بدأت الأسنان تقضم اللحم المشوي، أنا أرتجف، ماذا لو رأوني، ماذا لو جاء أحدهم يلقي نظرة، سيسحلني إليهم، سيسووني بالنار المتأججة، أو سيعروني، سيلعبوا على جسدي، هم عشرة شبان، شبان مسلحون، في ليل منير، في غابة كثيفة الشجر، في بيت قديم، فكرت أن أهرب، قلت أرمي بنفسي إلى خارج البيت، ثم فكرت، أين أولي وجهي، الغابة مرعبة، الكواسر في الجوار، الوقت لا يمشي، ثقيل هو الليل، أنظر إليهم من الكوة، يأكلون، البنات واحدة ترقص، واحدة متمددة، واحدة تعانق شاب من الخلف، واحدة تشوي اللحم، واحدة جالسة تبرز برازها، أو تشخ بولها، الوقت ثقيل، الوقت لا يمشي، لا أعرف كم من الوقت مضى، القمر ما زال ينير بضياء وفير، الشباب مازالوا يلتهمون اللحم المشوي، البنات يواصلن عملهن، سمعت صوت مركبات قادمة، هرع أحدهم إلى الباب، دخلت مركبتان، مركبتان (منيفيست) هبط مسلحون، أربعة مسلحين،

فتحوا صناديق المركبات الخلفية، أنزلوا ستة أنفار معصوبي العيون، مقيدي الأيدي، أنزلوهم، قادوهم إلى زاوية، قرب شجرة الصدر التي ألقينا تحتها عظام الديك، ألقوهم مطروحين، تقدم المسلحون الأربعة، جلسوا مع العشرة، ألقوا اسلحتهم، ألقوا لثامهم، سحب كل مسلح من المسلحين الأربعة فتاة، ناموا معهن، أنا أغمضت عيني، منظر حيواني لا يليق بالفجر أن يهتموا به، سحبت نفسي، قلبي ينبض بشدة، روحي تريد تظفر، أتوسل إلى رب السماء، أتوسل إليه أن يقضي الليلة بسلام، بعد دقائق رفعت عيني، رحت أنظر من جديد، وجدت أحد المربوطين الستة ممدداً مفصول الرأس، رأسه في مكان، جسده في مكان آخر، تقدم أحدهم، ذهب إلى شجرة الصدر، سحل مربوطاً آخر، أنزلت عيني، شعرت بموت يسري في جسدي، جسدي بدأ يقشعر، جف حلقي، خشيت أن أنظر، جلست مرتجفة، رأسي بدأ يتصدع، أنفاسي بدأت تتحشرج، لا أعرف كم من الوقت مضى، شعرت برغبة أن أفر، ثانية خشيت من الطريق، تذكرت حكاية (طريق الأشباح)، تذكرت تلك المسكينة التي تركت زوجها ليلة الدخول عليها، ضلّت دربها، وما جرى لها فيما بعد، سمعت أصوات مركبات، وجدتها تختلف عن المركبات التي أتت، أنوار (لايتاتها) أحاطت بالبيت، إحدى المركبات دخلت البيت، رفعت رأسي، وجدت مركبة أغراب، فرحت، قلت سيقبضون عليهم، سيأخذونهم إلى (بوكا) سيأخذونهم إلى (غونتنامو)، تشجعت أن أخرج من الغرفة الخائقة، قلت سأنادي بأعلى صوتي، أنادي على الأغراب، أفهمهم، سأقول لترجمهم كل ما رأيت، هم

لابد أن يعرفونني، جاءوا ورأوني معك يا بعلي لمّرات كثيرة، قلت مع نفسي، سيقولون لي: أينما نذهب أنت أمامنا..!! سيقولون لي: هل أنت جنّية شرقيّة يا امرأة..!! سيقولون ذلك لي، أنا أضحك، سأقول أنا لهم: دعونا نسكن خربة من خريات بلدتنا كي لا ترونا ثانية..!! فجأة تبدلت فكري، فكرة الخروج إليهم، فكرة صياحي لهم، لا أعرف ما الذي جرى، وجدت الوجوم يتلبسني، الرعب ينحتني، مددت عيني، وجدت الأغراب يقفون مع الشبان، فركت عيني، نفس المشهد تكرر في عيني، أغراب يحاورون الشبان المسلحين، الفتيات لا بسات بنطلوناتهن، واقفات، ضاحكات، تحاوروا، تقدم أحد الأغراب من الرؤوس المفصولة، ست رؤوس بشرية مطروحة كرؤوس (الباجة) على الأرصفة أمام محال القصّابين، ست أجساد مطروحة، تقدم أحد الأغراب من الرؤوس المفصولة، راح يحركها بقدمه، يحركها، أو يحسبها، ما الذي يجري، يا عالم أردت ان أصرخ، ناس تقتل، أغراب تأتي لرؤية الرؤوس المفصولة، تأتي لتتأكد منها، جاء أحدهم بحقيبة، وضعها أمام أحد الشبان، تناول الشاب الحقيقية وأخذها إلى إحدى المركبات، إنسحبت مركبة الأغراب، أختفت الأنوار من حول البيت، تقدم الشباب من مركباتهم، بعدما سحلوا الأجساد مقطوعة الرؤوس، وضعوها في أكياس، وضعوها في صناديق مركبتين، أحدهم جمع الرؤوس المفصولة، وضعها في (كرتونين)، (كرتوني موز)، حمل (الكرتونين)، وضعهما في مركبتين آخرين، تحركت المركبات، تنفست الصعداء، من بعيد تنهأ لي صوت مكبرات الصوت، عرفت أن أذان الفجر قد حان،

خشيت أن أنزل، قلت ربما سيأتون، ربما بقى أحدهم في الداخل، الذي أفرحني، أثلج روحي، لم يدخلوا إلى الغرف، لم ينتبهوا إلى التغيير الحاصل في البيت، ماذا سيحصل لو دخل أحدهم إلى الغرف، خفت من هذا، لو دخل أحدهم إلى غرفة، حتماً سيشم رائحة خطر، سيهمس في آذان رفاقه، سيتأهبون لخطر في الجوار، سيفتشون البيت، سيصعدون إلى الغرف في الزوايا الأربع، سيكتشفونني لا محالة، سينحرونني، سيبطشون بي، سيراني الأعراب، سيضرب بقدمه رأسي المفصول من جسدي، سيرفعني أحدهم، سيضع رأسي في (كرتون موز)، سيضع جسدي في كيس، سينقلوني إلى مكان ما، حمدت رب السماء السبع، رب الأرضين السبع، أنهم لم يدخلوا إلى الغرف، أنهم لم يكتشفونني، حلّ النهار، إنتظرت مطلع الشمس، أردت أن أطمأن على سلامة الموقف، صعدت الشمس ببطء، عادت العصافير للأشجار، عادت الطيور، أشرقت الحياة من جديد، أشرقت بعد دهر من الروع، نزلت من المرصد، ذهبت إلى مكان إحتفالهم الليلي، مكان الرقص، الجنس، الذبح، وجدت عظام (النعجة) ملقات بتاثر عبثي، وجدت الموقد لا نار فيه، لم أعرف كيف أطفأوا نار كبيرة أنارت البيت، الفضاء، وجدت قناني المشروبات الكحولية ملقاة، (لبسان) البنات مبللة، قميص أحدهم متروك، الملمت مزيلة فرحهم، نقلتها إلى النهر، تهيأت لزيارات أخرى قلت لا بد أن يعودوا، فهم أولاد الليل، أولاد الكلاب، أولاد الأعراب، أولاد الدنيا الفانية، مسحت آثار الدم، دم الأجساد الستة، لم أتوصل إلى لغز الذي جرى، في تلك اللحظة، باغتني شخص من الخلف،

باغتني دون أن أشعر بتقدمه نحوي، لم أسمع صوت قدميه، مسكني من معصمي، صرخت صرختي، صرخة داوية، أفزعنا العصافير، الطيور، من قوة الصرخة أطلق سراحني، إلتفت حولي، يميني، شمالي، أمامي، ورائي، فوقي، تحتي، لم أجد هناك غيري، وحدي جالسة في فراشي، داخل غرفة نومنا، متعركة من هول الكابوس، لساني يابس، نفضت الفراش، تسللت إلى حوش الدار، لم أجد سوى عصافير تضح باحثة عن (عشتار)، ليس هناك موقد نار، لم أجد آثار مركبات، لا آثار دماء، شكرت الله، أغمضت عيني، رفعت كفي إلى السماء، شكرت، حمدت، مضيت إلى دلو الماء، غسلت وجهي، شريت، أرتويت، وجدت الصداق بدأ ينشر مخالبه، دخلت الغرفة، غير مرتاحة، قلت هذا الحلم لم يأت من فراغ، علي أن أتهياً، اتحسب للأمر الطارئة، أنا وحيدة في بيت بلا بعلي الغالي، بدونك يا (نوار) لا طاقة لي لمجابهة الطوارئ، مشيت إلى خلف الغرف، صعديت إلى الغرفة العليا خلف المنزل، أزحت الصفائح القديمة، نظفت الغرفة، ألقيت بمزيد من المعوقات أمام مدرج الصعود، نقلت الفراش، فراشنا البسيط، نقلت دلاء الماء مملوءة، نقلت الزاد، لم أترك ما يوشى بساكن في الغرف، تحوطت من كل النواحي، إستبقيت صفيحة واحدة معي، صفيحة فارغة، لتفريغ فضلاتي وأدراري..!!

* * *

نساء متشحات بالثلج

تعرف أنني غير مهتمة بالوقت، أخطئ كلما تختبرني يا بعلي
حول الساعة، تناولت كسرة خبز وحفنة تمر، شربت كوب ماء،
دق قلبي بعنف، صعدت الحمى في جسدي، إحتبست أنفاسي،
الليل مدلهم، النجوم كابية، القمر غائب، تمللت، وصلت
الكوة، مررت عيني، ظلام يصعب أختراقه، أشباح الأشجار،
تمنيت أن نمتلك كلباً لأخبرني بنباحه عن كل طارئ، بدأت أفقد
ملامح الأشياء، عصفت قلبي يتزايد، صمت كل شيء، لا ذئاب
تعوي، لابنات آوى، لا صرّار الليل يمنح الظلام موسيقى الإزعاج،
عدت غير مرتاحة، جلست على الفراش، تمنيت في تلك اللحظة
أنني برفقتكم، حزنت حزناً شديداً، لا أعرف كم إستغرقت في
توهاني، تنهى لسمعي صرير الباب، باب الحوش، ضرب قلبي
بعنف، حرت ما الذي يتوجب علي عمله، جف حلقي، خشيت أن
أمد يدي لدلو الماء، قلت سأحدث صوتاً جاذباً للإنتباه، زحفت
ببطء، قرار إتخذته بشجاعة حين تذكرتك، وجدتك تدفعني،
وصلت الكوة الصغيرة، مررت عيني، الأشباح ما تزال تتراقص،
أشباح الأشجار، وجدت أجساد بييض تندفع إلى الداخل، باب

الدار مفتوح، أجساد تشبه الثلج، جسد يتبع جسد، كل جسد يدخل يجلس تحت الأشجار، صارت الأجساد الثلجية في صفين متقابلين، بدأت أفواههم تترنم، ترانيم غاية في الغموض، أرهفت السمع، عجزت فك مغاليق الكلمات، ترانيم لا تشبه ترانيمنا (الفجرية)، كلمات تتداخل تبدو هذيانان نسوة ثاكلات، أو تراجيديا السحر الأسود، أهـيا بعلي، مرّ الوقت بطيئاً، بطيئاً بطء السلاحف الهرمة، قبل أن تنتهى أصوات مركبات قادمة من بين الأشجار الداكنة، تفاقم وضعي، تماسكت، قبضت بنواجذي على ديبب الخوف كي أبقيه كسولاً لا ينتشر، قام شبح، توجه نحو الباب، إندفعت مركبات الأغراب إلى الداخل، نفس المركبات التي تلاحقنا، نفس المركبات التي رأيتها ليلتي الأولى، هبط رجال بيزات مهندمة، قامت الأشباح الجالسة، تعانقت مع الوافدين، تحول المكان إلى سمر بعدما تبينت الأشباح إنها نساء كالثلج، تعرين، جلسن في أحضان الأغراب، حدث ما لم أره من قبل، رقص وجنس في العراء، تحت أشجار النخيل، قرب السدرة الكبيرة، مر الوقت، أنا ألّهت، أغمض عيني، أفتحهما، تأكدت من تواجدي في الواقع، تأكدت أنني لست في لجة حلم توالد في لحظة خوف، قام غريبان، توجهوا إلى المركبات الثلاث، أتوا بزجاجات تلمع تحت وهج القمر المتسلل من خلل الأغصان المتشابكة، بدأت أكواب تفرغ، مشاريب تشرب، فاحت رائحة حريفة داخل البيت، كظمت غيظ قلبي، مسكت أنفي كي لا أسكر من الرائحة الكريهة، بعد مضي وقت آخر، جاءت

مركبتان سوداء، هبط خمسة شبّان بملامح سود، يتكبدون
بنادق، فتحوا صناديق المركبتين، سحبوا أجساد ثلاثة، سحلوهم
إلى منتصف الحلقة، أجساد معصوبة العيون، مقيدة المعاصم، دار
حديث غريب بينهم، قام أحد الذين جاء أخيراً من ضمن طاقم
المركبتين، سحب أحد الثلاثة إلى تحت شجرة السدر العالية، قام
أحد الأعراب، تبعه، أخرج شيئاً مثل الصندوق، عرفته، أنه قام
بتصوير عملية نحره، سحبوا الآخرين، تم نحرهما أيضاً، فقدت
صلتي بالأشياء، فقدت الرغبة بالعيش، لم أعد أرى كل شيء،
ظلام في ظلام، ضيق في الشهيق، لساني صار خشباً متروكاً في
العراء، أرتجف، ليس بوسعي وقف ضربات قلبي، تمددت، رحت
أنتحب بصمت، طال نحبي يا بعلي، إتخذت قراري أن أغادر البيت
ما أن يهل الفجر، قلت سأمشي أينما تقودانني أقدامي، قلت أرجع
إلى (جلبلاء)، هناك أجد خربة، أنتظركما، لا أعرف كم نمت،
ما الذي حصل لحظة سحبت نفسي من الكوة، ألقىت بنفسي على
الفراش، رحت أنتحب، أفقت على حركة غير عادية، وجدت
واحدة متشحة بالثلج واقفة تنظر إلي، فقدت توازني، كدت
أصرخ، بيد أنها تقدمت، كملت فمي، حاولت أن أتشبث بشيء،
نسيت أين وضعت المديّة، قرّبت فمها من أذني، همست:

- أأنت إنسيّة أم جنيّة.

فمي مكمم بكفها، بحلقت فيها، كل شيء فيها أبيض
كالثلج.. أردفت:

- لا تخافي..أنت جنيّة أم أنسيّة.

ربت على يدها التي تكمم فمي، سحبت كفها، قلت بصوت
منكسر:

- جنية..!!
- جنيبية..!!
- إن سكت لن أصبك بمكروه.
- سأطيعك يا جنية فلا تمسيني بمكروه.
- أكتمي السر ولك ما تشائين.
- أريد التخلص من هذه الحالة.
- بوحى لي بسرك، ولك العلاج التام.
- أنا ضحية نساء يأتين كل إسبوع للنوم تحت الأغراب.
- علاجك سهل..أكملي قصتك يا امرأة.
- تلك النسوة يعملن مع فئة تنهب وتقتل وتبيع الرؤوس البشرية
للأغراب مقابل المال.
- وما هو دورك معهن.
- أنا سقطت ليس بمحض إرادتي.
- ولم أتي معهن.
- قامت الفئة بخطفي وإسقاطي، مضيت أطيعهم خوفاً من
الفضيحة.
- أية فضيحة.
- قاموا بتصوير مشهد سقوطي.
- وكيف جئت إلى هذا المكان.
- أبغي الهروب منهم.

تتحدر من مآقيها، تشجعت، فكرت أن لا أتخاذل، طالما إنطلقت
عليها الخدعة، هي من وضعت لنفسها الوهم، قمت، مررت عيني
من الكوة، لم أجد سوى ثلاث جثث مفصولة الرأس مرمية تحت
الشجرة، عدت، جلست على فراشي، مسكت شعرها ذي العطر
الفواح.قلت لها:

- أين ذهبوا.

- هذا الدار محطتهم الأولى.

- وما هي المحطة التالية.

- سيذهبون إلى معسكر كبير، هناك رجال ينتظرون نوباتهم

من الجنس والرقص..!!

- كل ليلة.

- نعم كل ليلة.

- من يقف وراء هذه المجون يا..يا..منااااار.

- فئة تخطف وتكسر الرقبة وتصور وتقدم فواكه نسائية

للأغراب.

- أتعرفينهم.

- لا.

- ولم ترافقينهم.

- لديهم التصوير الكامل ليوم سقوطي.

- حسناً كيف فلت منهم، أسياتون ليتفقدوك.

- ليس بوسعهم تفقدي، هناك تختلط الأمور.

- حسناً.. كم الوقت الآن، سيعود رئيس الجن، أرجو أن لا

يراك، أنه سيتغدى بك، رئيسنا لا يأكل إلا بشر.
- أنقذيني منهم..أريد أن أهرب، أعدك أنني لن أعود معهم أبداً.
- حسناً أخرجي، أنا أفيك من شرورهم، لكن أياك أن تبوحي
بشيء.

- كلا.. لن أفوه بشيء.
- خذي الجثث إلى النهر.
- أمرك مطاع يا جنّية.

* * *

عندما صعّدت الشمس إلى كبد السماء، مررت عيني من الكوة، وجدت الأشجار ساكنة، هبطت بإحتراس، مضيت إلى أسفل شجرة السدر، وجدت آثار الدماء باقية، مسحتها بقدمي، ولجت إلى الغرف، تعجبت من أمر شغلني، هل حقاً الذي رأيته قد جرى، أم تهيؤات وليدة الوحدة والخوف يا بعلي، أنا بقدمي مسحت آثار الدماء، المرأة الثلجية جلست قبالي، قبّلت يدي، قدمي، تركت وشاحها هذه، هذه أيضاً مجوهراتها، نقودها، لا بد أن البيت مسكون بناس يأتون لعمل كبائثرهم، فكرت أن أغادره، لكن بوجودك أنت تعرف ليس بوسعي التحرك، قلت أنتظر ليلة أخرى، ليلة واحدة فقط، عندها أتخذ قرارتي، هيات نفسي لمواجهة جديدة، مع توخي الحذر، قلت ربما المرأة الثلجية ستفضح السر، لا بد أنهم سيدهاموها، ستقول لهم مارأت، ربما يقومون بنسف البيت، ربما تأتي الطائرات، تحاصر المنزل، كل شيء وارد

في زمن الأعراب، شعرت بجوع لا يرحم، مضى بقية النهار بسلام،
تحسباً لكل طارئ، أوّل ما فعلته، غيّرت غرفتي، إشتغل مخي في
تلك اللحظة، راكمت كل ما وجدته في الغرفة الجديدة التي قلت
عنها (مرصد) ونقلته إلى الغرفة التي بارحتها، هناك هيأت نفسي
خائفة لليلة أخرى يا بعلي..!!

* * *

ليلة كابوسية

مثلما حصل في الليلتين المنصرمتين، جلست أرتجف، أخباركما مقطوعة، وحدي أجابه أشباح ليلية تأتي وتذهب، بدا المكان لي أشبه بسجن إنفرادي، مثل ذلك السجن الذي وصفته لي، ليس بوسعي أن أتحرك، حولي ترتمي أشياء مهملة، مبعثرة، أنا بعثرتها، خشية أن تأتي تلك المرأة التي باغتتني في الليلة الثانية، لم أأمنها، لا بد أنها فضحت السر الذي بيننا، رغم قسمها، أنت تعرف، نساء هذه الأيام لديهن ميزة واضحة، ليس بوسعهن كتم السر، أسرارهن مرتبطة بدرجة شهواتهن، ليس أمامي سوى الخيار الذي إتخذته مع نفسي، تسلحت بالمديّة، عزمّت على قتل من يباغتني في مكمني، أه.. يا بعلي، ليس بوسعي أن أصف نفسي، جسد يرتجف، مثل مريض يحتضر، أو دجاجة أصابها (أبو ضريح)، رغم حرارة المناخ، روعة الليل، هدوء الكائنات الليلية، لم أتمكن من الهيمنة على عروقي النابضة، أنا في توهان تام، شعرت بيدين تمتدان نحوي، جف حلقي، تحجر لساني، ظلّت عيناى متوقفتان عن العمل، يدان بيضاوتان، بدأتا تسحباني، مثل محكوم بالإعدام مضيت أستسلم بعدما فقدت صلتى بالعالم،

رفعتني اليدان، لم أر جسداً بشرياً، فقط يدان تحملاني، أشعر بشيء يتحرك، يتحرك هابطاً السلم، وجدت نفسي منطرحه بين حشد أشباح ببيض، بدأت الأفواه تترنم بترانيم غريبة، ليس كلام بشر طبعاً، أجساد ببيض، عيون تقدح شرراً، ممددة أنا بين صفين متقابلين، تقدم واحد من الرهط، أزاح ما علي من ملابس، وددت أن أذود عن حرمتي، أن أدافع - حتى لو نحروني - عن طهارتي، وجدت لساني محنطاً، جسدي يخلد لهدوء تام، كمن خدر تحت مشارط عملية ما، رأيت نفسي عارية، جسدي يشع ببياض تام، بدأوا بالتفاعل معي، يهبط شبح يصعد شبح، خالدة تحت مخدر قوي، لا أشعر بشيء يخترق أحشائي، فقط نسيم منعش يسكر جسدي، طال الليل، لم يمل أحدهم من التفاعل، دار كل واحد منهم دورات، يصعد، يهبط، خلت نفسي في حلم، ذلك ما جعلني أن أتجاهل الأمر، بعدما فعل كل واحد منهم ثلاث فعلات، خلدوا للصمت، بدأت الثغور تغمغم، راحت تطلق ترانيم غريبة، تنأى لسمعي طرقات الباب الرئيس للبيت، توقفت الأفواه، قام أحدهم، توجه إلى الباب، فتحه، دخلت مركبات الأغراب، ثلاث مركبات، توقفت، هبط منها كوكبة أغراب، دار نقاش غريب، تقدم مني أحدهم، ألقى نظرة إلي، إستدار وراح يتناقش مع الذي فتح لهم الباب، تحرك من مكانه، خلته أمرهم بنجري، جسدي متخشب، ليس بوسعي أن أتكلم، قام البعض منهم، توجهوا نحو مركبة طويلة، بدأوا بإزالة صناديق وأثاث، بعدما إنتهوا، بارحت المركبات المنزل، من جديد تجمعوا في رهطين متقابلين، بدأوا

شعرت بذلك، شيء نهض، خطف مثل البرق، مثل ومضة بارقة،
تنفست الصعداء، شعرت براحة، مازلت عارية، ممددة فوق فراش
حرير، في غرفة لم أرها في حياتي، حاولت أن أنهض، الصوت
باغتني من جديد، همس لا يشبه همسات البشر:
- لا تحاولي.

- لم لا تتركني.

- حين تستردين جنيتك، بوسعك القيام والعودة إلى حياتك
السابقة.

- جنيتيبيبي.

- سأحررك من الخدر، ستعودين أميرة المملكة.

- اتركني كي أنهض.

ترجرج صوت ضحكة مباغتة، شعرت بالأشياء تتراقص،
وجدت عيون خضر تبرق من الجدران، إمتدت اليدان، أنهضتاني،
علقتاني بالسقف، حاولت أن أصرخ، لا أعرف كيف عرف أنني
أنهياً لإطلاق صرختي.. همس:

- لا تستطيعين النطق، لن نطلق سراحك ما لم تقررين العودة
معنا.

- أنزلني أيها الشبح المقيت.

- أنا مقيت..يا للهول، ستدمين على أفضالك البشرية.

- أليس من العار أن تواجه امرأة وحدانية وأنت متواري.

- حين تقررين أن تعيدي حياتك، لن يحصل هذا قبل أن تتخلصي

منهما، إذأك سترين أي عالم بهيج غيبيتي نفسك عنه.

القسم الثالث

[ما رواه نوار المنار]

رحلة الشفاء

- هوئي عليك..لا تدعي الوهم يأكل طراوة وجنتيك..!!
قلت لها وأنا أربت على كتفها، مغتمة، رأسها على فخذي،
تذرف من عينيها دموع شفاقة كينبوع ماء محتبس تفجر فجأة،
رفعت رأسها، أجلستها، رفعتها، صارت أمامي، عينان أعرفهما،
فيهما أشياء تحاول أن تضحل، شوارد خوف، أو بقايا هلع..
همست:

- هيّا.

إلى أسفل شجرة السدر مشينا متشابكين، وجدت الزميل
(حمار) رفيق الرحلة المباركة منبطحاً على الأرض، قام لحظة
لمحنا نخرج، هرولت ورائنا (عشتار)، جلسنا على بساط متروك،
بساط لم ألمحه أو يعود لممتلكاتنا، مسحت (منار) دموعها بكم
ثوبها..قالت والعبرة تخنقها:
- هذا بساطهم.

أجبتها كي أبعث الراحة في كيانها:

- ليس هناك من شيء - يا منار - محظ أحلام عابرة، لا شيء
يحصل لنا، دعينا ننعم بحياتنا خارج أورام الوقت.

قالت بعدما استعادت بعض رنين جرس صوتها:
- يابعلي، ستري بأم عينيك كيف يأتون، ماذا يعملون، علينا أن
نتهياً درءاً لأي خطر يداهمنا.

أجبتها:

- سنتخذ الحيلة، لكن لا يتوجب أن نترك هذا النعيم.

قالت:

- ليس من المعقول أنهم يجلبو هذا النعيم ليلقوه هنا من غير سبب.

قلت لها:

- ألم تقولي أنهم من الجن، ربما خرجوا من ثوبهم الغيبي،
صاروا ينافسون البشر على الفرهود.

قالت:

- هل يسرق الجن يا بعلي.

قلت لها:

- كل شيء وارد في بلاد بلا بوصلة.

أجابت:

- لن يهدأ بالي، رغم أن ما حصل لي يتأرجح ما بين اليقظة
والحلم.

صعدت (عشتار) إلى شجرة السدر، ظلّ الزميل (حمار) ينظر
إليها، في تلك اللحظة بدت الشمس تجاهد لتتمركز في منتصف
السماء، شعرت بجوع ليس طبيعي، رفعت كفي اليمين، أنزلته
على بطني، رحت أحركه، وجدت عيني (منار) تراقبان كفي، في
تلك اللحظة تحررت من الوجوم، إستعادت مسحة من الفرح الذي

صاحت:

- ثعبانان يصعد إلى - عشتارار - ..!!

في تلك اللحظة إندفعت إلى الأعلى، صعدت بإتجاه القمة، وصلت قرب (عشتار)، وجدت رأساً غريباً يقف حائلاً دوني ودونها، رأس مثل رأس بشري مسخ، عيانان حمراوتان، لسان ينشطر إلى نصفين متراقصين، ظلّت (منار) تولول، تنادي من الأسفل، ووقفت أفكر ماذا يتوجب علي ان أفعله، تذكرت المنجل الذي أتسلح به، وجدته في حزامي، سحبتة، رحت أحارب الرأس المسخ، يحاول أن يدنو مني، أحاول أن أشغله، حرب شعواء من غير خسائر جرت بيننا، في تلك اللحظة وجدت (صقراً) رمادي اللون يحط على الشجرة، ندّت منه صرخة، إستدار الرأس المسخ، وجدت الموقف يميل لصالحه، تقدمت شبرين في صعودي السريع، طوّحت بالرأس بضربة موفقة من منجلي، ظلّ الجسد الأسود يتلوى قبل أن يختلج، يلتصق بجذع شجرة السدر، تنفست الصعداء، هللت (منار)، بمحاولة شاقة مزقت الجسد الأسود الطويل، تقدمت من (عشتار) إحضنتها وأنزلتها، إستقبلتنا (منار) بالأحضان، تحاضنًا معاً، جلسنا، مسحت (منار) دمعها..قالت:

- لنترك البيت.

قلت لها:

- سنفكر في هذا الأمر.

نسيت جوعي، قمت، نقلت مزق الثعبان إلى حضرة، واريته بحفنة تراب، عدت وجدت الباقلاء متناثراً على البساط، لملتها،

أعدتها إلى الصحن.. قالت (منار) :

لدينا ما يكفيننا، دعه.

قلت لها:

- دعي البقية لعشائنا.

رفضت (منار) أن نتناول البقلاء الذي سقط من يديها لحظة رأت الثعبان، تناولت الصحيفة من يدي، هرولت إلى الغرفة، وجدت الزميل (حمار) خالداً لصمت غير طبيعي، يتتاوم، قمت وتقدمت منه، مسحت بيدي على ظهره، وجدته يرتجف، خلاته جائعاً أو في جسده تعب الأيام الثلاثة، تركته، جلبت له دلو ماء، حفنة شعير، هز رأسه مثل حيوان شبعان، خرجت (منار) وهي تحمل صحناً يرسل بخاراً شهياً، تركت الزميل (حمار)، ألقى راغباً في النوم، جلست لصق (عشتار) وضعت (منار) الصحن بيننا، بدأنا نلتهم (مثرودة البقلاء)، أنهينا غداءنا، أحسنا الشاي، وجدنا أنفسنا في خدر تام، تمددنا، نامت (عشتار)، همست (منار) في أذني:

- أحكي لي رحلتكما يا بعلي.

قلت لها:

- واجهتنا متاعب لا تقل عما واجهتي.

قالت:

- أحكي لي رحلتكم.

قلت لها:

- لم لا نترك الحكايات إلى الليل.

قالت:

- سنواجه متاعب في الليل، ربما ستأتي الأشباح.

أجبتها:

- لم تهذين.

أجابت:

- أنهم..أنهم..أنهم.

قلت لها:

- ماذا تريدين البوح به.

أجابت بعد صمت وجيز:

- يريدون مني التخلص منكما.

شعرت أنني بحاجة إلى وقت طويل كي أتخلص من الضحكة التي توالدت في تلك اللحظة، مديت كفي اليمين، داعبت وجنتيها، شعرت بحرارة تتفاقم في جسدي، تسارعت نبضات قلبي، غرزت عيني في عينيها، بدأت تتأوه، عرفت ما أردت أن أبوح به، من عيني عرفت أنني رغبته، قامت، توجهت نحو الغرفة، غرفة النوم، تبعته، وجدتها تخلع ثوبها، نمنا معاً، تناولنا فواكه الجسد، تمددنا، شعرنا برغبة للحكي.. قالت:

- هيا أحكي لي رحلتكما يا (بعلي)..!!

* * *

قلت لها، بعدما خرجنا، بعدما نثرت قبلي في المسافة الفاصلة بيننا، شعرت بضيق عارم، حين صرنا داخل الغابات، وجدت الغناء فرصة للترويح عن السأم، راح لساني يخلق الكلمات مثلما

تعرفيني، كدنا أن نضيع لولا هدهد جاء، صحح مسارنا في اللحظة الحرجة، مشينا كثيراً، الزميل (حمار) يواصل نهيقاً منتظماً، كما لو أنه في مسيرة عسكرية، يدوزن نهايات أغنيتي الإرتجالية، بنهيق منسق، قبل الغروب بقليل، وجدت (سوباط) يقف ببابه شيخ كبير السن، ناداني، تقدمت منه..قال:

- إلى أين تذهب.

أجبتة:

- حيث يذهب بنا الزميل (حمار).

وجدته مستغرباً ينظر في، هز رأسه..قال:

- الحمار زميلك.

أجبتة كي أبعد عنه الشك أو ربما تصور أنني أمزح معه:

- هو رفيق رحلتي أينما أذهب.

قال:

- هل تبغي الهروب.

أجبتة مستغرباً:

- هرووووب.

قال:

- أنت على بعد خطوات من مغادرة البلاد.

قلت له:

- بنتي عليلة، أبحث عن علاج لها.

قال:

- ما هي علّتها يارجل.

قلت له:

- أصابتها وعكة غريبة.

أجاب:

- قل زكام الطيور.

قلت:

- هو ما تقول.

قال:

- علاجك في قرية (أم الصخور)، إتجه شمالاً، عليك أن تمشي خمس ساعات، ليس بوسعك أن تمشي الآن، الليل هنا لا يحتمل، ذئاب فتاكة تتجول، بشر مجهول الغرض والهوية يتنقل، أبق هنا وفي الصباح إنطلق...!!

نعم يا (منار)، بقينا عنده، رجل وقور، في (سباط) من سعف النخيل، كثير التعب، قضى الليل عبادة، شاركته شطراً من الليل صلاة، إحتضنت (عشتار)، نمنا بعدما تعشينا مع الشيخ، خبز و (حلاوة طحينية)، ماء من كوز بارد، لم أتجرأ سؤاله عن سبب تواجده، في هذه الحافة الملقومة بين بلدين تتاحرا قبل سنوات من أجل الفراغ، قلت ربما لديه الرغبة بترك البلاد، بعدما ضاق الخناق على أصحاب التعب الكثير، وملاحقتهم من لدن كل السياسات المتواترة، وزجهم في السجون البعيدة، في الصباح نهضت، لم أجده معنا، ترك متاعاً قليلاً لنا وأختفى، قلت ربما لديه واجب، أنهضت (عشتار)، مشينا بإتجاه قرية (أم الصخور)، عند منتصف النهار إستقبلتنا عجوز.. قالت:

- ما الذي أتى بك أيها الغريب.

أجبتها:

- لدي بنت عليية، جئت أطلب علاجها.

تقدمت العجوز، عاينت (عشتار)، مسكت يدها، وضعت

كفها اليمين على جبهتها..قالت:

- جئت في الوقت المناسب، ستشفى يا رجل.

قلت لها:

- تناولت حوصلة ديك.

قالت:

- أتبعني.

مشينا نحو نصف ساعة، دخلت بيتاً طينياً، دخلنا، وراءها، أنا

و(عشتار)، بقى الزميل (حمار) واقفاً في الخارج..قالت:

- أرحه من العربة، أدخله إلى تلك الغرفة.

فعلت ما أمرت به، دخلت في غرفة بسيطة المعيشة، تناولت

(عشتار) مني، مددتها على بساط..قالت:

- أتركنا لبضع دقائق.

خرجت، جلست في باحة الحوش، وجدت الزميل (حمار) يخرج

رأسه من الباب، يرمقني بنظرات غامضة، مضى وقت طويل، أنا

أحاول أن أتستر من أشعة الشمس القاسية، بظلال الجدران،

خرجت المرأة العجوز، وجدت يديها تتديان بالزيت، من رائحته

عرفت أنها قامت بتدليك جسد (عشتار) بزيت (الخرع)، رمقتني

وذهبت نحو (درام) الماء، غسلت يديها بعدما مرغلتها بالطين،

عادت، قالت لي:

- ستتجو من الموت.

نهضت من فرحتي، وقفت لا أعرف ماذا أعمل..قلت لها:

- ليس لي سوى قلادة أمها، دفعتها لي كي أعالج بها إبتنتا.

دفعت يدي.. قالت بشيء من الغضب:

- لا نستبدل عمل الخير بالمال يا رجل.

مشت إلى الغرفة، أشارت لي أن أتبعها، وجدت (عشتار) ممددة،

عارية، غارقة في النوم، خفت بادئ ذي بدء، وجدت قريبا،

زجاجات معجون الطماطم، فيها مساحيق حريفة، بعضها فيها

زيوت، قلت لها:

- أفرحيني.

أجابت:

- بنتك ستشفى بعد يومين.

قلت لها:

- هل بوسعنا المغادرة.

أجابت:

- عندما تفيق من غيبوبتها بأمكانك الذهاب.

قلت لها وأنا أتذكرك:

- تركنا أمها بمفردها في بيت ليس حواليه بيوت.

قالت:

- لم لم تجلبها.

قلت:

- ربما أراد القدر ذلك.

أشارت لي فجلست، خرجت، أتت بعد حين بصحن فيه سمن حيواني مخلوط بعصير التمر، قرصة خبز واحدة..قالت:
- ضيوفنا كثيرون، هذا ما بوسعنا تقديمه لهم.

في تلك اللحظة، إنتبهت لكلامها، ظلت تتكلم بضمير الجماعة، قلت لا بد أن معها هنا رجل أو أبناء، خرجت، تركتني أأكل ما جلبت لي، رمقت (عشتار) وجدتها خالدة لنوم هانئ، عادت المرأة العجوز ومعها كوب شاي..قالت:
- نم هنا الليلة، غداً غادر قبل الفجر.

خرجت ولم تعد، حل الليل و (عشتار) غارقة في نومها، حاولت أن أنهضها، لم تحرك ساكناً، قلت ما دامت تتنفس بهدوء علي أن لا أقلق، فكرت بالزميل (حمار)، خرجت إلى باحة مظلمة، ليس هناك صوت بشري، تقدمت من الغرفة التي أودعته الزميل (حمار)، وجدت رأسه مطلاً من الباب، داعبت رأسه، أخرجت من جيبي نصف قرص الخبز، رفض أن يأكله، ربما عرف أنني أقتطعتها من حصتي، أعدت الخبز إلى جيبي وعدت، تمددت ونمت قرب (عشتار)، لا أعرف كيف قضيت الليلة الثانية، مع الفجر خرجت إلى باحة الحوش، لم أجد أحداً، وجدت الزميل (حمار) يخرج رأسه، أشرت له ففهم ما رميت له، عدت وحملت (عشتار) كدت أن أجن، وجدتها ترفل بسعادة لاتوصف، تريد أن تنهض وتلعب، قبلتها، رفعتها، خرجنا إلى باحة البيت، وجدت

العربة خارج الباب الخارجي، تبعني الزميل (حمار) ربطت العربة، بدأنا نلهث كي نصل إليك يا (منار)، هزّني الشوق، لا أعرف كيف نطوي المسافات، الزميل (حمار) هو من يقود رحلة العودة مثلما قاد رحلة العلاج، مشينا نسابق الوقت، حين وصلنا بئر (الشياطين) جلست، شعرت بدوّار مبالغت، وجدت (عشتار) غارقة في نوم عميق، الزميل (حمار) هو الآخر توقف مشلولاً، قلت ربما الشياطين خرجوا للنزهة أو لأصطياد البشر، فرضوا (حظر التجوال) البشري والحيواني، نعم يا (منار) الأغرّاب لا يفرضون (حظر التجوال) على الحيوانات، فقط الشياطين تتوقف الحياة بتواجدهم، غسانا نوم ثقيل قبل أن تداهمنا مواكب حربية وطائرات تحاول أن تحيطنا من كل جانب!!

* * *

قالت:

- وكيف نجوتم من الأغرّاب.

قلت لها:

- فتشونا..صرخ فينا ملثم يرافقتهم.

قالت:

- يا بعلي لم لم نغادر هذا البيت.

أجبتها:

- لا نجد نعيماً مثلما وجدناه هنا.

توقفت عن الكلام، نهضت، جلست..قالت:

- يا بعلي نسينا (عشتار)، أخشى أن يباغتها ثعبان آخر..!!

* * *

نهضت من الفراش، قمنا معاً، خرجنا، تجمدت أوصالنا، لم نجد (عشتار) على البساط، خلنا أنها قامت لقضاء حاجتها، وصلنا إلى البساط، لا أعرف كيف تناغم مشاعرنا معاً، كيف إستدارت عيوننا نحو الباب، وجدنا الباب مفتوحاً، تقدمت من الباب، خرجت، لم أجد أثراً لـ (عشتار)، قلبنا البيت، فتشنا حوالي البيت، في تلك اللحظة، بدأت الشمس تميل لترسم ملامح الأصيل للعالم، في أي مستقع عذاب هويننا، لم أحتمل الموقف، تناولت منجلي، خرجت أبحث عن (عشتار)، فاقداً صبري، بدأت أصرخ، أنادي، وأنا أشق كمجنون المسارات الوعرة..!!

* * *

حلّ الليل، جبت متاهات لا جدوى منها، متعباً أمشي، منهاراً، وصلت عين الماء، جلست، رشقت وجهي بحففات لاسعات، تذوقته، بدا أشد توحلاً، لا بد أن سيلاً طينياً زحف، عكّر ماء العين الحلو، حقيقة هو ليس بعين، هو نهير يجري مخترقاً كثافة الأشجار والقصب، لكن صخرة عملاقة تجثم في منتصف الماء، من أسفل الصخرة تخرج نافورات مياه حليبية اللون، سمّتها (منار) : العين..!! رضيت أنا بما سمّت، لم أعد أعرف ما هي الخطوة اللاحقة، دارت عينا في الإتجاهات الخمس، الشمال واليمين، الأمام والخلف، وحدها الجهة الخامسة، سماء شاحبة، تستعمرها

أشعة شمس لا ترحم، بدوت مثل كلب فقد مساره، راح يلهث خلف سراب يغيره، فكرت في الأمر، قلبت القضية في ذهن مشوش، لم أجد منفذاً يوصلني للذي جرى، ربما عادت (عشتار) قلت لنفسي وأنا أرشق وجهي بالماء البارد للنهير الذي إستحال ضحلاً في تلك اللحظة، قررت العودة، وجدت البيت فارغاً، لا أثر لـ (منار) ولا الزميل (حمار)، خلتهما خرجا في أثري، تهاويت على الأرض، غرقت في بحر عذاب لم أتخلص من لوجه، حين نهضت، وجدت نفسي مرمياً في تلك الغرفة التي قلت عنها (مرصد) لرصد التحركات البعيدة، بدأ قرص الشمس يخترق الفضاء من وراء التلال، ما الذي أعمل، قلت لنفسي، وجدت الخروج من البيت هو القرار الحاسم، مشيت ومشيت، وجدت رجلاً يمتطي حماراً، لم يتضح من ملامحه، سوى عينان جارحتان، أنف يختفي مقدمته تحت لفة قماش ملفوف حول رأسه، سألته عن وجهته، لم يحرك ساكناً، بدا عليه الغضب والحيرة، سرعان ما بدّل وجهة نظره، أوقف الحمار، راح يدقق في ملامحي:

- أنت بشري.

قلت له:

- كل هذا الطول وتظن بي الظنون.

أجاب:

- لا بشر يمشي في هذا المكان.

قلت له:

- ولم أنت تمشي فيه.

نحت عينيه في.. قال:

- أنا عابر مشوار.

أجبهته:

- فقدت زوجتي وأبنتي ومعهما حمار.

أجاب:

- أليس ظنّي في محله.

قلت له:

- يا رجل أنا مصاب بمصيبة، لا تسيء الظن بي.

أجاب:

- وما هي مصيبتك يا رجل.

أجبهته:

- أخبرتك بها.

هبط الرجل من الحمار، بدا مربوعاً، تقدم مني، وقف أمامي..

قال:

- تعال معي.

قلت له:

- إلى أين.

لم يتكلم، ظلّ ناحتاً عينيه في عيني، أشار برأسه، صعد على ظهر الحمار وتبعته، مشيت مثل كلب يتبع صاحبه، لم يتحدث، رغبت الصمت أيضاً، الدنيا محطمة في عيني، الدنيا ظلام يتبع ظلام، مشينا كثيراً، عبرنا منحدرات، صعدنا تلّول، جاوزنا وديان، أدغال، حقول مهملة، بقايا معسكرات مهجورة، قبل أن

يحل الظلام بقليل، أوقف الرجل الغريب الحمار، وقفت وراءه، هبط، عالج خرجاً كتانياً، أخرج عبوة ماء، تقدم مني.. قال:
- حانت ساعة سقيك.

من فرط الجفاف الذي مزق حلقي، تناولت العبوة، (عبّيت) منه ما (عبّيت)، شعرت بشيء يهز كياني، شيئاً فشيئاً بدأت راحة تغزوني، شعرت بطاقة إستثنائية تتوالد فيّ، رغبت أن أجلس، أن أنام، تكاثف الظلام فيّ عيني، غزاني نوم ثقيل، أنا متأكد أنني تهاويت، ضرب جسدي الأرض بقوة، متأكد أنا من ذلك..!!

* * *

في غرفة لا أعرف أين هي، غرفة طينية، سقفها حصران، قصب مرتب بعناية، لا نافذة لها، على بساط من سعف النخيل، وجدت نفسي ممدداً، قمت، فركت عيني، خلت نفسي في حلم، وقفت، تقدمت من الباب، لا همس بشري، فقط صوت ريح غير غاضبة، تمشط الأشياء مرسلّة الأنين الموجع للوحشة، خفت أن أضرب الباب، أو أحاول أن أقلعه، لمت نفسي، إعتبرت تصريفي من أشد اللحظات التعيسة في حياتي، لحظة قررت مرافقة رجل غريب يمتطي حمار، عدت، جلست على الحصيرة، أسلمت نفسي للقدر، قلت فليفعل القدر ما يفعل، خضت متاهات التعاسة، جيت تعاريج الألم، عبرت متاريس الخوف، قهرت تضاريس الجوع، لا بد أن خطأ ما قد حصل، كيف دارت أفلاك الزمن بهكذا عجالة، أين هما، الملكة (منار)، الأميرة (عشتار)، السفينة الأمينة (حمار)،

شعرت ببقايا ألم يعصف بخيالي، أوعزته لفعل الماء الذي أسقاني إياه الرجل الغريب، إستقر يقيني على أنه أسكرني بدواء قوي، لا بد أنه حملني على الحمار، وإلا كيف أفسر وجودي في غرفة منفردة بلا عالم أنسي أو حيواني، لا أعرف كم من الوقت شغلت نفسي بالتفكير، شعرت بوقع أقدام، يد تحاول أن تعالج أكرة الباب من الخارج، شعرت بتحفظ تام لجوارحي، دخل الرجل الغريب الذي أسقاني الماء وأنامني، جاء يحمل بعض الطعام، وضع الطعام أمامي، بعد دقائق جاءت بنت ملثمة الوجه، دخلت من غير أن تسلم، وضعت طاسة لبن أمامي، أومئ الرجل الغريب لها، إنسحبت، بقيت أنحت عيني في عينيه، أحاول أن أفهم شيئاً من الذي يجري لي، هز رأسه.. قال:

- حانت ساعة إطعامك.

على مضض، لا أعرف أمن خوف تسلل إلى أغواري، أم من رغبة لدحر الجوع الذي واصل طيلة ساعات قصفاً جوفياً بلا هواة أو هوان، تناولت الطعام، خبز مثرود عليها مرق لحم مخفي تحت جبل رز، أكلت كما لو أنني لم أأكل في حياتي السابقة، شربت اللبن، أعتدلت من جلستي، جاءت البنت الرشيقة، تحمل كوبي شاي، وضعت الصحن، حملت بقايا الطعام، إنسحبت.. قال الرجل الغريب:

- حانت ساعة الكلام.

قلت مستغرباً:

- ليس لدي ما أضيفه على ما قلت.

أجاب:

- حسناً..لو لم أصداده لربما صفيها حسابنا اللحظة.
نحت عيني فيه، لم أستطع التركيز، عيناى مثقلتان بالخوف،
القدر، لم يمهلن الوقت الكافي لقراءة أوراقه.. أردف:
- ما زلت تجهلني.

أجبتة:

- أنا في مصيبة.

قال:

- قد نهدي لحلها.

فرحاً أجبتة:

- لا أبغي سوى ذلك، هما دنياى يا رجل.

قال:

- لم لا تتذكرني، لا تحاول التهرب مني.

توقفت للحظة، أحاول أن أستذكر وجهه، ما زال يتلثم بلثام،
لا شيء يبين منه سوى عينين فيهما وقاحة وشراسة، في تلك
اللحظة، أزاح اللثام، وجدت نفسي في غيبوبة مؤقتة، خرس
لساني، لم أعد أعرف كيف إستعدت حاسة النطق، أتذكر أنه
رشق وجهي بحفنة ماء، أتذكر أنني رأيته يمد كفه ويغمسه في
طاسة الماء، تجفلت، سحبت شهيقاً طويلاً، زفرت بحرقة ما
سحبت من الهواء.. قلت:

- لا تقل أنك لم تصطده.

قال:

- العافية التي ترفل بها البنت دليل على ما في بالك.

صمت.. أطرقت برأسي إلى الأرض، مد كفه اليمين، رفع وجهي.. أضاف:

- الخشونة طبعي، لا تأخذ الأمور بجدية، أنا هكذا ولدت، هكذا عشت، ليس لي سوى هذه البنت بعدما ماتت أمها، ماتت وهي تشير إليها، وجدت الحياة لا تستحق التجديد، مضيت أخدمها وهي الآن تخدمني.

أطرق برأسه، وجدته يبحث عن سبل تغليف وجهه بغمامة حزن، وجدته يستحق العناية، رجل تعلم من الصحراء ثقافتها، تطبع بخشونتها، مديت يدي، ربت على كتفه..قلت له:
- أنت رجل نادر في يومنا هذا، لكم راودتني الفكرة للعيش بعيداً عن فوضى الحياة.

تشجع على الكلام، نسي فكرة إستدراج الحزن، نظر إلي..قال:

- لديك فرصة واحدة لتغير مسار حياتك.

أجبتة:

- ليس لي حياة بدونهم.

قال:

- ستجدهم في تغير حياتك القادمة.

قلت له:

- لا أظن ذلك.

نهض، وقف أمامي، عدل من لثامه، أردت أن أمسك منه خيطاً يفضي للوصول إلى (منار) و(عشتار) والزميل (حمار)، تحرك نحو

الباب، وقف في منتصفه، إستدار نحوي.. قال:
- وحده (التغيير) ينقذك من عذابك، ألتقيك في الليل، فكّر في
هذا الأمر جيداً.

خرج، صفق الباب، سمعت صوت القفل الخارجي يفلق،
تناوشت حواراه بتقليب فكري، لم أهتد لشيء واضح، ما الذي
يعنيه هذا الرجل الغامض بـ(التغيير) في الحياة السخيفة التي نحن
فرسانها المعذبين، تمددت، أنهيت القرار أنني سجين، أو رهن
إعتقال خطفي، ألقيت بأمرى إلى سلّة الحظ، عساني أفلت من
المصيبة هذه المرة أيضاً..!!

* * *

نهضت منتصف الليل لصوت يدين تعالجان أكرة الباب، دخل
الرجل الغريب الذي ظلّ يلهث خلف الأرنب الذي لاذ بنا يوم
مغادرتنا (جلبلاء)، دخل، وراءه دخل رهط شباب ملثمين، جلسوا
من غير ترحيب.. قال الرجل الغريب:

- أرجو أنك إتخذت القرار الصائب.

أجبت في محاولة سلمية مصطنعة:

- فكرت في الأمر.

أجاب بحدة:

- وما هو قرارك الشخصي.

أجبت:

- أنا مع الرأي المناسب.

رأيته يستبشر بكلامي، دخلت البنت، وضعت صحيفة عليها
عشاء لأكثر من شخص، تقدم الرهط، جلسوا متعلقين حول
العشاء، لحم مشوي على رز، مرق حساء اللحم، لم يحرك الرهط
ساكناً، بدوا خرسان أو طرشان، تهاوت الأيدي دفعة واحدة على
العشاء.. قال الرجل الغريب:

- تناول عشاءك.

خجلاً، تناولت معهم، بعدما أنهينا عشاءنا الدسم، جاءت البنت
تحمل الشاي، إحتسينا الشاي، بدأ الحوار بيننا، أثناء الكلام
حاولت أن أصل إلى شيء ملموس يحسبني بما يجري من حولي،
ألقيت باللوم على نفسي، قلت ما زال القدر يختبرني، من سجن
لسجن، من فقر لفقر، من حفرة لحفرة، قال الرجل الغريب:
- أنت معنا منذ هذه اللحظة، ستترك ماضيك وراءك، ضع
نفسك في الآتي.

قلت والخوف بدأ يسري في أوصالي:

- قراري الأخير أنا معكم.

أجاب:

- كل ما تبغيه ستجده رهن التحقيق.

قلت:

- رؤيتهم مطلبي الأخير.

أجاب بحدة:

- إتفقنا أن نترك الماضي.

أجبتة:

- إجمعه سهواً عفويًا.

في تلك اللحظة قام الرجل الغريب، قام الرهط معه، خرجوا إلى خارج الغرفة التي ظلّت غامضة علي، بعد هنيهة وقت عاد الرجل الغريب، جلس لصقي..قال:

- تهيأ لما هو واجب، عليك أن تضع نفسك في ميزان لا يقبل الخطأ.
قلت له:

- عشت حياتي بصدق، وضوح، سبحت في مياه الجحيم.

أجاب:

- كلامك يثلج صدري، يجعلني التمسك بك حتى نهاية الشوط.
قلت له:

- خضت مستتعات الحياة ودهاليزها ولم يصرعني سقام.

أجاب:

- ليس الواجب عاباً، عمل غير شاق، ستفهم الأمور أكثر
بأكثر، غداً ستواجه شخصاً مهماً، ستفهمه، ستلبي له ما يريد
منك من عمل، الآن عليك أن تهين نفسك الراحة، نم، لا تفكر،
التفكير سيضعك في متاهات قد تبعث فيك التردد والجبن.

جاءت البنت تحمل دثاراً، رمته قربي وخرجا..!!

* * *

في الصباح تناولت فطوري، طاسة لبن خاثر، خبز حار معمول
تواً، قدم لي الرجل الغريب عبوة ماء، مثل تلك العبوة التي شربت

ماءها ونمت، ترددت في البدء، وجدته غير مجاملاً، خفت أن
يستخدم حدته الصحراوية، أسلمت أمري إلى القدر الذي وضعني
في إمتحان كبير، شربت الماء، نمت..!!

* * *

في غرفة أخرى، وجدت نفسي، غرفة لا تشبه الغرفة التي
إكتشفت نفسي فيها، بعدما شربت ماء العبوة الأولى التي قدمها
لي الرجل الغريب لحظة رأني في الطريق، لابد أنه قام بنقلي كما
نقلني في المرة السابقة، دخل علي شاب مربوع الجسم، يتلثم بلثام،
جلس أمامي، حاولت أن أقرأ أوراقه في تلك اللحظة بدا عليه أنه
يحاول قراءة أوراقي أيضاً، ساد الصمت لدقائق..إفتتح الجلسة
بصوت أمر عسكري لا يهادن:

- أنت ترغب العمل معنا.

قلت من غير التوصل لضاف العمل الذي يتوجب علي عمله:

- لا يوجد مانع لعملي الذي جئت من أجله.

قال وهو يهز رأسه بعناية:

- ستحقق نجاحاً، أنت رجل واثق من قدراته، العقلية

والجسدية، طولك يلائم المهمات، لا أحد يثير حولك الشكوك.

أجبت:

- سمعتي طيبة بين الناس، يعرفونني ويثقون بي إلى أبعد مما

يتصور الواحد في يومنا هذا.

قال:

- ما تريده رهن إشارتك.

قلت:

- نبدأ بالعمل.

أجاب:

- بقى لديك الحاجز الأخير، صاحب الكلمة الأمرة سيلتقيك،

ستعرف ما هو عملك.

في تلك اللحظة دخلت فتاة، ليست الفتاة التي خدمتني ليلتان في بيت الرجل الغريب، وضعت لي الغداء، تناولت غداي، أنا أتفتت، أتمزق على مضض، كل تفكيري ينصب على (منار) و (عشتار) والزميل (حمار)!!..

* * *

قبل أن أبارح تلك الغرفة، تقدم مني الرجل المربوع، يرافقه شابان ملثمان، أخرج أحدهم قطعة قماش، عصّب عيني، لم أفه بشيء، سبقني الرجل المربوع..قال:
- مجرد روتين احترافي.

لم أحرك ساكناً، قادوني، وضعوني داخل مركبة، بدأت المركبة تسير، عشت ساعات أتخضخض، عرفت أنهم قادوني في أرض وعرة، لم أعرف عددهم، خلدت للصمت، أنا أجتري حياتي التي ضاعت مع (منار) و(عشتار) والزميل (حمار)، أين هم، هل وجدت (منار) (عشتار) تمنيت ذلك، بدت الرحلة شاقة، توقفت

المركبة، أنزلوني، قادوني على أرض رملية، سمعت تمتمات غامضة، رفعوني، أدخلوني في زورق مائي، سار الزورق اليدوي المجذاف نحو ساعة، أخرجوني، وضعوني على الجرف، شعرت بيد تمتد، تفل العصابة، بالكاد إستوضحت الرؤية، شمس تكوي الأرض بأشعة عمودية قاسية، وجدت طفلاً في الثالثة عشر، أو في الرابعة عشر على ما أظن، هو من نقلني عبر النهر..
قال لي:

- أمشي بهذا المسار نحو ساعة، ستجد من ينتظرك.

فكرت أن أنهى أسطورتني، فكرة طارئة طرأت، راحت تستفزني، قلت هو ولد صغير، سأتركه وأعود بالزورق، في تلك اللحظة قست مسافة الضفتين، هناك في الضفة الثانية، وجدت مركبة واقفة، شباب يقفون، عرفت أنهم يواصلون متابعة أمري، دحرت الهاجس في عقلي، أسلمت أمري لمشيئة القدر..قلت للصبى:
- هل من شيء آخر.

أجاب:

- سينتظرك شخص هناك، قل له (الشبك إشتبك أين الشرك)
سيقوم بالمهمة التالية.

تركني، عاد بالزورق، مشيت..مشيت كثيراً، ليس مثلما قال الصبى، بل ساعات وساعات، هناك في الأفق البعيد حيث الغروب، وجدت بيوتات متناثرة، كَلِّي يقين ولهفة أنني سأجد (منار) و(عشتار) والزميل (حمار) هناك، لا بد أنهم يعلمون بمقدمي، دحرت التعب بالرغبة الضارية، واللهفة المستعرة، رحلت

أمشي بخطوات مضاعفة، فاتحاً المسافة بين ساقِي لأقصى ما
أستطيع، هناك سيكتمل عقد الفرح، هذا ما دار بخلدي، رحت
ألث صوب البيوتات الغامضة، قلت سأعمل لهم ما يرغبون،
شريطة أن لا تتناقض أعمالهم مع سير صفاتي، ربما فلاحه، ربما
رعي أغنام، ربما بناء، ربما تهريب أشياء أو أشخاص أو أسلحة..
أو.. أو.. أو.. ربما!!!!!!!!!!!!!!..

آه أيها الكاتب، يا كاتب بلدتنا العزيزة (جليلة)، أعتقد أنني
أنهيت كل ما رغبت البوح به، أنا ذاهب، ليس (ثمت) وقت لدي،
علي أن ألتحق بمركب أسطورتِي، فيما بعد ستعرف ذلك، أنا على
يقين أن الأمور ستتضح آجلاً أم عاجلاً، كل شيء سأتيك،
ستعرف أسطورتِي، أنا ذاهب، وداعاً.. وداعاً.. وداعاً!!!!!!!!!!!!!!..!!

* * *

من - غفران - أشرق نور الخبر

ربما هي الصدفة التي وضعت النهاية الحتمية لقضية شغلت بلدة (جلبلاء) تحديداً والبلاد تعميمياً، تلك القضية التي مارست ضغطاً سرياً على نفوس الكثيرين من الناس، كباراً وصغاراً، ألهمت حماسهم، دعوتهم يتتبعون كل خبر، أو حدث له صلة بالموضوع، جرياً وراء وميض النهاية، ظلّ الكلام المتناقل من فم لأذن، يبحر شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، يتشظى إلى فروع منفلقة عن فروع تالية، عبر ألسن تجيد لعبة التأويل وتقلب الأمور كيفما تشاء.

مع صبيحة نادرة من صباحات البلدة، خلاف تلك الصباحيات القديمة الداخنة، الصباحيات المتلبدة بصخب الكسبة ومركبات القيادة التي تحولت إلى مركبات مدنية تضج، سادة الشوارع والأزقة، تلك الصباحيات التي راحت ترعش أوصال البلدة المتخثرة بإنفجارات نصفها بلا خسائر بشرية، فقط الجدران وأبواب المنازل التي راحت تنقلع، تتناثر في الهواء جرّاء عبوات تنصبها أيدي غير مدربة، تنفلق لترج أركان البيوت، قاذفة الناس بهلع وعيون مصعوقة، رغم إدمان الناس تلك (الاوركسترا) الوحشية.

كل صباح صوت تشرق شمس إنفجار، يكمم فم الفرح

المتوالد جرّاء ليل مؤرق من غير نور كهرباء..!!

* * *

صباح جاء منفلتاً من سكة الدم الأبدي للبلدة، أشرقت فيه نور
الحكاية الحاضرة في أذهان الناس، الحكاية القديمة المتجددة،
قبل شروق الشمس بساعة كاملة، مثل هبوب عاصفة هوجاء
تلبدت عقول الناس بضربة الخبر اليقين، إندفعت الناس تتساءل،
باحثة عن المصدر الرئيسي لواجد الحلقة المفقودة لـ (حكاية العمر)
كما وصفوها..!!

* * *

صانع الرواية، أو لنقل مبتكرها، ربما ملمم شظاياها المبعثرة،
في ليلة أرق رغب أن يغوص في أعماق المتاهات التي لا تنتهي
للمدونات، والمواقع الترفيهية على شبكة الإنترنت، بحثاً عن نهاية
مقنعة لحكاية (بعل الفجرية)، موقع يلقيه في موقع، أغرته الكتب
الإلكترونية، راح يحمل جهازه (اللابتوب) بما لم يقرأه من قبل بسبب
وضع البلاد المزري، والتدهور العلني للأخلاق، وأتكيات المنوعات
الثقافية، من باب (تلويث عقول المرحلة الإنبعائية) تفاجأ بعد منتصف
الليل بكتاب صغير، عنوانه (كنت معهم بالإكراه)، أثاره العنوان
وظلّ يتصفح متونه، بعدما سحبه من مدونة شاب، نذر نفسه لتوزيع
الكتب الإلكترونية مجاناً لمن يهوى القراءة، والبحث عن الثقافة
العامّة، وجد سيرة متعثرة اللغة لرجل لم يطرح اسمه، إكتفى بكنية
وجده ملائماً له (غفران)، يسرد حياته لثلاث سنوات بمعية فئة

خرجت عن مألوف العادة، تناصرت على إحداث الفوضى أينما يتواجد الهدوء، تشكلت تلك الفئة في بستان منسي على نهر، بدأت الفئة بثلاثة شباب، تناولوا أوضاعهم المعيشية، رسموا أحلام فوق العادة، أراد كل واحد منهم مركبة (منيفيست) ودفاتر من الدولارات، كي يمارس حياة الترف، نضجت الفكرة أسرع من الريح، بدأوا بعملية سطو فاشلة، داهمهم حارس ببندقيته، رغم أنها كانت فارغة من العتاد، أو لا ترمي بسبب صداً (سبطانيتها)، فروا مستترين بالبساتين، لم يفلحوا من سرقة سيارة حوضية مليئة معدة للتهريب، في محطة وقود على طريق خارجية، بعدما إتفقوا على أن يحملوا معهم عبوتين فارغتين بداية الليل، تذرعوا بحاجتهم الماسة لعبوتي وقود لتحريك مركبتهم العاطلة على مقربة من المحطة، تسلحوا بمدى، مسدس واحد، بعدما راقبوا، درسوا خطتهم بدقة، صاح الحارس فيهم، شاهراً سلاحه، لم يتبق فيهم ذرة شجاعة، لاذوا بالفرار تاركين العبوتين أمام الباب الرئيس.

دعتهم الرغبة أن يجتمعوا ثانية، على النهر، داخل بستان تركه صاحبه بعدما تم تدمير سياجه من قبل رتل (أغراب)، بعد تدمير زورق مائي مر داخل النهر، خرج الصاروخ الصائب من بين الأشجار الكثيفة، جاءت قوات كبيرة، تم تفتيش البستان بواسطة كلاب مدربة، وربوطات آلية للكشف عن مخابئ الأسلحة، قامت تلك القوات بتدمير السياج المحاذي للنهر، وردم المئات من أشجار النخيل من الطرفين تحسباً للطوارئ..!!

* * *

في الأصل الثاني، جلسوا خاضعين لشيطان الرغبة، تؤرقهم فكرة الغنى، وضرورة تبديل أحوالهم من حيث المظهر والمال، حدث أن مرت فتاة تحمل (حزمة) حطب على رأسها، إلتقت عيونهم دون سابق تخطيط أو تفاهم، بدأت الأسئلة العينية تتناغم، تتفاهم، عرف كل واحد منهم ما عليه القيام به، قام (غفران) من مكانه، أراد أن ينسحب، مسكه أحدهم.. قال له:
- إن لم تجلس سنسلمك للإستاذ.

جلس (غفران) مذهولاً، فهو يعرف إن ما قاله صاحبه ليس بالكلام العابر، يعرف صاحبه، يعمل مع جماعة لا أحد يراهم، متواجدون في كل مكان وزمان، يقوم صاحبه بتقديم قوائم أسماء، راصداً تحركاتهم عبر النهارات الكاملة، يقدمها لتلك الجهة سرعان ما يختفي، من يدرج اسمه في تلك القوائم السريّة، قام صاحبه الآخر، تبع الفتاة، حدث أن توقفت الفتاة، ألقت بحملها لتلتقط بعض الراحة، جلست على حافة النهر، مدت يديها للماء، باغتها صاحبه من الخلف، كهم فمها، حاولت الفتاة أن تستتجد، وجدت نفسها في مكان لا يمر فيه إلاّ عابر سبيل طارئ، أو امرأة تبحث عن حطب لسجر تنورها، بعدما إختفت إسطوانات الغاز السائل في البلاد، سحبها صاحبه، بدا المشهد مؤلماً، فتاة تحاول أن تتشبث بالحشائش والأشواك، كلّما تقبض حزمة أعشاب تنقلع من جذورها، أوصلها إلى عمق البستان، نفذت الفتاة صبرها، فقدت أية بارقة أمل للنجاة، أراد (غفران) أن يقوم بعمل إستثنائي، هذا ما يقوله في إعتراقاته، رغم أنه أوّل من قام

القنابل والطائرات، حشود بقرية متوحشة تتواجد بكثرة في البساتين، ليس بوسع المرء أن يدنو منها، مع كل صباح يحملان بندقيتهما، يخرجان، عند الظهر يرجعان حاملين (معلاك) بقرة، وقطع من اللحم، حين نسألهم عن البقية الباقية من البقرة الضحية يجيبان بهزأة:

- تناولنا نحن منها، والبقية رميناها في الشط.

لم أتناول لفترة طويلة من ذلك اللحم، قبل أن أجد نفسي مكراً على تناوله، بعدما تدهورت أمورنا العسكرية، تضاءلت كمية الأرزاق، انقطعت لأيام بسبب تواصل المعارك على طول الجبهة، وجدت نفسي أهبط إلى الحفرة، حيث الفتاة تبكي بصوت مبجوح، مخنوق، تأن متوسلة يائسة، شبه مائتة، جلست بالقرب منها.. قلت بصوت مرتفع كي يسمعاني:

- أعرفهما، لا يتراجعان عن قرارتيهما، سيقتلانا ويرميان جثتيهما إلى النهر.

- آآآه.. آآآآ.. يا أميييي.. ياااااا.. أميييي..!!.. (ظلت الفتاة تهذي).

صاح صاحب المسدس:

- ثلاثون ثانية أمامك قبل أن أدفنكما معاً.

خضعت لقوة إجبارية، كمخبول، كمجرم مزقت ثوبها، لم تمنع، ظلت يائسة فاقدة الإحساس لا تدري ما الذي يجري لها، حين نلتها، قمت غير مصدقاً مما فعلت، لاهثاً، بالكاد ألتقط أنفاسي، وجدت صاحبي، واقفان بيتسمان، انتبهت إلى يدي صاحبي صاحب المسدس، سقطت عيناى على هاتفه النقال.. قال ساخراً:

- هياً أخرجنا.

- ألم تفعلان أنتما.. (أجبتة وأنا في لهاث غير عادي).

- كلا.. ليس لدينا رغبة الآن..!!.. (قال صاحبي صاحب المدية).

- كلاب.. أورتطمانى.. (صحت فيهما).

ضحكا معاً، أشهر صاحب المسدس هاتقه بوجهي..قال:

- هنا التسجيل الكامل للواقعة يا صاحبنا، هياً أيتها الفتاة

أخرجي، أذهبي أنت، لنا كلام فيما بعد.

- كيبيف..أخرج، سيدبحوني أهلي.

- هياً أخرجي وإلاّ قتلناك ورميناك في النهر.. (أجابها صاحبي

صاحب المدية).

قامت، لفلتت نفسها بأسمالها الممزقة، ركضت باتجاه النهر

حيث تركت حزمة حطبها..!!)

* * *

وجدت نفسي في محنة كبيرة، بعدما سمعت في القرية القريبة

من البستان الذي عملت عملي المنكر فيها، سمعت أن فتاة

إختفت، ترقبت الموضوع من (كثب)، ظهرت النهاية بعد يومين،

حين وجدوا جسدها العاري تجرفه الأمواج، إختارت لنفسها النهاية

المقنعة، بعدما تحطمت جراء قلّة زمنية لا مناص منها.

باغتاني صاحبي في تلك الليلة..قال لي صاحبي صاحب المسدس:

- التسجيل الكامل للواقعة وصل إلى الإستاذ، أنت معنا من

الآن.

- معكم.. أأست معكما..!! .. (قلت متعجباً) .
- لقد مررت بتجربة ناجحة، عليك أن تبدي شجاعة لمجابهة
الأمر القادمة.

غادرا.. سهرت في تلك الليلة المشؤومة، أوصل التحديق اليأس
والباعث لموجات ملل لا تنتهي، يسافر خيالي شرقاً وغرباً، لمعرفة
(الأمر القادمة) التي تنتظرني كما قال صاحبي صاحب المسدس..!!

* * *

بعد أسبوع وجدت نفسي بين جماعة غريبة، تعرفت عليهم،
وجوه ملثمة، ليس لها أسماء ثابتة، بدأت المرحلة (الخائسة) من
سيرة حياتي، لم تمض سوى أيام حتى خضت معهم تجارب مروعة،
أخرج ليلاً لخطف أنفار تأتي أسماءهم ضمن لوائح سرية، أمارس
أعمال كبيرة من قتل وسلب وخطف ومواجهات بالسلاح، نجوت
بأعجوبة من الموت المؤكد، لمرات لا تعد، ربما الصدفة التي أمّنت
جانبي وجعلتني أخرج من إحتفالات الموت الدائم سليم الروح، لكن
بعاهة جسدية خالدة..!!

* * *

يواصل (غفران) سرد أيام حياته السود، في ستين ورقة من
القطع المتوسط، يتنقل بإختصار شديد من حدث لحدث، موجزاً
التفاصيل كمن تدرب على كتابة الرواية الحديثة، قبل أن يختم
موضوع إعتراقاته في كتيب صغير الحجم، نشره في موقع
إلكتروني حر، لقد وجد مبتكر الرواية أو صانعها، أو ململم

جذاذاتها، تلك الحلقة المفقودة للرواية التي كلف بكتابتها، أو بتجميع أركانها من أوراق وأشرطة تسجيل متروكة في (صندوق حديدي) لفترة زمنية تربو على الثلاثين عاماً، وجده حفار أساس تحت أنقاض بيوتات، تهدمت في انفجارات متلاحقة في أزمنة العنجهية، أهم ما تم التركيز عليه، تلك الحادثة التي جاءت كالبرق الوامض لتسكت أفواه الناس، بعدما وضع كل لسان، وخيال عشرات النهايات التي ظلّت غير مقنعة، لقصة رجل عاش بينهم، يعرفونه حق المعرفة كإنسان عادي، حمّال نقي الأرومة، أمين الجانب، قفز إلى واجهة الحياة فجأة، حصل على حلمه الكبير كما أراد القدر، كما رغب هو، صار شاغل الناس بإسطورته الشخصية..!!

* * *

1.. (بعل الفجرية) وجدته ذات يوم وجهاً لوجه يقف أمامي، شهرت سلاحي بوجهه، متأهباً للرمي، بيد أن الرجل العملاق، وقف مبتسماً.. قال لي:
- أين أجد الأستاذ.
أجبتة كمن يختبر زائراً غامضاً.
- أستاذ.. هنا ليست مدرسة يا عم.
- لا تخشى جئت أقدم ولائي (الشبك إشتبك.. أين الشرك) .
قال كلمة السر التي بيننا.. قلت له:
- حسناً عليك أن تنتظر.

- ليس بوسعي الإنتظار، أنا أريد اللحاق بمن سبقونا.
- حسناً سأتصل.

داعبت أزرار هاتفني وأنا أرمق الهيكل الصامت، قلت لمحدثي:
- الهدف عندي.
أمرني:

- أجلسه معك بالسرعة الممكنة.
- حسناً بعد ساعة.

أخذته معي، الرجل الصامت الطويل، عبر النهر إلى الطرف الآخر، راكبين في طراد مائي يعمل بمطور، قدته معصوب العينين، أوصلته إلى غرفة مظلمة، فتحت عينيه..قال لي الرجل الطويل:

- قلت لك أريد الإستاذ.

- سيصل بعد قليل.. (أجبت بهدوء) .

خرجت غالباً رتاج الباب من الخارج..!!

* * *

في الصباح التالي، قدته إلى غرفة طينية طويلة، أقعدته أمام الأستاذ..قال له بصوت واضح:

- تريد العمل معنا.

- أريد العمل معكم فعلاً.

- لم ترغب العمل معنا.

- سأوضح للإستاذ ما جئت من أجله.

- تفضل تكلم.
- ليس قبل أن يأتي الإستاذ.
- أنا الإستاذ يا رجل.
- أنت.. أنت.
- نعم أنا الإستاذ الذي تريد.
- آه..أريد أن أصنع إسطورتى.
- إسطورتك.
- نعم أريد عملاً كبيراً يلحقني بمن سبقني، ويترك قصتي بين الناس لأجيال متلاحقة.
- حسناً..لدينا عمل مهم.
- أنا له.
- لكن بعد أيام.
- توقف الإستاذ عن الكلام، أشار لي بحركة من ذقنه، سحبت الرجل، قدته إلى تلك الغرفة المظلمة ثانية..!!

* * *

- في اليوم التالي، دخلت عليه، وجدته ممدداً، لم يتناول عشاءه، قام وجلس..قال:
- أنتم تسجنونني.
- ليس هذا سجن، لا يرغب الإستاذ أن يراك أحد هنا.
- حسناً ما هو العمل الذي أقوم به.
- الطريق الذي ستسلكه ستقودك إلى ما تريد.

- حسناً متى نبدأ العمل.

- كل شيء مرسوم بدقة ، ستصبح إسطورة لا مثيل لها.

ألبسته ملابس جديدة لا ثقة به..قلت له:

- بعد ثلاثة أيام سنقوم بإتحفال يليق بك كـ (بطل تاريخي)،

سنقوم بتصويرك، سننشر صورك عبر شبكات الإنترنت، لتتلقفها الفضائيات.

- حسناً لدي مهمة بسيطة ، علي أن أقوم بها.

- مهمة.

- لدي بعض الأمانات سأردها إلى أهلها.

- كم يستغرق ذلك ربما يومين، أو ثلاثة أيام على أبعد إحتمال.

- حسناً سأوضح ذلك للإستاذ..!!

* * *

ذهب الرجل الطويل لمدة ثلاثة أيام، عاد في صبيحة اليوم الرابع متلهفاً، بدا متحمساً أكثر من أي فرد سبقه في إداء الواجب المرعب، يتحرق شوقاً للقيام بالمهمة التي جاء من أجلها، وجدت في عينيه إصراراً وتحدياً، وجدته إنساناً يستحق التقدير رغم طوله..!!

* * *

جاء اليوم الموعد، ارتدى (الحزام الأسود)، بدأت الحفلة الكبيرة لتوديع الكوكبة المتأهبة لزلزلة البلاد، في يوم لا ينسى، أكثر من (ثلاثين أستاذ) حضروا مهرجان التوديع لـ (خمسة وثلثين) متأهب، ربط كل واحد حول ظهره (حزاماً أسوداً)،

للقيام بعمل جماعي لزلزلة البلاد، والعالم بأسره، تم توجيه كل واحد منهم لهدفه الخاص، (خمسة وثلاثون) مركز إنتخابي سيتم تحويل الناس فيها إلى أكوام لحوم مبعثرة، تتلقفها وكالات الفضائيات كما تتلقف اليد ورقة (الجوكر)، لا أعرف ما الذي دفعني أن أغادر قاعة التوديع في تلك اللحظة، إنتبهت لحركة قام بها الرجل الطويل، قام، وقف منتصف القاعة، صاح في الجموع:

- إعلموا أن التاريخ سيخلدني أنا، ستحتفل البلدة العزيزة (جلبلاء) بي كل عام، أجلسوا لتسمعوا كلامي.

أطاعه الجميع، خلته سيحكي كلاماً يثلج صدور المحتشدين، ويشد من أزر المنتخبين للقيام بالعمل الجماعي، كحالة لا بد منها لإعادة الثقة للبقية المتبقية من الفئة، وقبل أن يضغط زر الإنفلاق صاح:

- لقد نحرتم (منار).. لقد نحرتم (عشتار) لقد نحرتم الزميل (حمار) عليكم أن تدفعوا أثمانهم غالية.

هز إنفجار كبير تصدعت له أركان القاعة..!!

* * *

عرفت فيما بعد أن الرجل الطويل هو (بعل الفجرية)، التي تم نحرها أمامي ذات صباح، كونها تزوجت من غير اللجوء إلى (أصول الشريعة)، تم نحر أبنته الصغيرة أيضاً كونها (نطفة حرام)، وتم الإستفادة من (الحمار) يوم ربطنا على ظهره أكوام حطب، قاده واحد منا، عند معبر حيث الجنود يواصلون التفتيش

تم فلقه عليهم، لم نتصور أنه (بعل الفجرية)، لو علمنا به لقاد نفسه بنفسه للمقصلة، خلتاه رجل قدم لينظم إلينا، تهاوت القاعة، مات الجميع، بعد سلسلة انفجارات تلاحقت في القاعة، تمكنت من الهرب رغم بتر ساقِي، عبر مركبتي (المنيفيست) ذي عصا القيادة الأوتوماتيكية.

ها أنا أسرد وقائع حياتي المظلمة، طالباً الغفران من العالم، عملت مع الظلام لفترة ثلاثة سنوات، لا أبرئ نفسي، آثام كبيرة سأتحمل مسؤوليتها، فقط أريد أن أعترف، أتخلص من الشرور العالقة بجسدي، أريد التخلص من الكوابيس التي تلاحقني في منامي.

هل أنتم لي غافرون...!!

* * *

عريضة رقم (١)

(السلام على من ينصر الفقراء)

وبعد..

أنا عسكري مطرود، أقول مطرود، عليكم أن تضعوا في الحسبان (معنى) أن يطرد الإنسان داخل بلده، أن يحرم من رزقه، أن يترك مثل كلب ضال، يقتات على المزابل، تتهمر عليه أينما يذهب حجر الصبيان، لقد خدمت شعبي، قاتلت في (فلسطين)، كل ذلك لم ينفعن في ذلك اليوم الأسود، يوم تم سحب هوية المواطنة مني..!!

* * *

عدت في ظهيرة مشؤومة، ظهيرة ما زلت أجد مثيلاتها تتكرر، رغم تبديل الموازين السياسية، التغيير الشامل للوجوه السيادية، في تلك الظهيرة إنكسر ظهري، وجدت بيتي الطيني خربة، بيتي الذي بنيته بعرق جبيني، نزفت فيه كامل عمري، وجدته مقلوع الأبواب، مقلوع النوافذ، وقفت وأنا أفقد رشدي بالتدرج غير المريح، شهد ذلك جوقة صبيان، لا أعتقد بوسعكم البحث عنهم

كي يشهدوا على ما أقول، أنتم تدرون أين هم، الكل صار يكبر سريعاً من أجل يغدو قريباً للحاكم، طعاماً للحروب التي لولاها لما أصبحتم الآن تملكون زمام أمورنا، تلك الحروب أنتم تشكرونها سرّاً، لأنها صنعتكم، لأنها جاءت بكم من (الشتات)، رغم أنها إلتهمت فطرة البلاد وبراءتها، ما العمل يا أصحاب الدم البارد، يا (.....) (لا حول ولا قوّة إلا بالله) سأقول مصائبنا أتت بفائدة لكم، نحن ضحينا وأنتم جنيتم ثمار خساراتنا، ليس بوسعي أن أجلب شهداء على ما أقول، هؤلاء الصبيان الذين شاهدوا مصيبتني، ماتوا أو أعدموا أو قتلوا في الحروب، في تلك الظهيرة وقفوا يراقبون رجل يرتفع عن الأرض ويهبط ليرتطم نائراً الغبار، رجل يعرفونه، وقفوا مستغربين، (الرجل فقد عقله) كلام ما زلت أحتفظ به لامرأة كانت واقفة أيضاً، متعافزاً أصرخ مثل دجاجة منحورة قبل همودها، فجأة تقدم الرجل الذي هو (أنا) من ماء المجاري وراح (يلبط) داخل (السيان) مثل سمكة سُحِبَ من حوضها الماء، تقدم رجل لا يعرفني، تقدم وسحبني، أخذني إلى بيته، غسلني وألبسني ما عنده من ثياب متواضعة، لم يقر لي قرار، مضيت حيث قوافل المركبات العسكرية تشق الشوارع، أركض وأسقط، مضت المركبات بعيداً، سقطت ولم أعد أمتلك قدرة على النهوض، تقدم منّي رجل جديد، رفعني وأخذني إلى بيته، لم أنم الليل، حاول أن يسعفني ويمدني بشيء من صبره، تهالكت ورحت مثل ممسوس أهذي، في الصباح خرجت، العيون تراقبني، عيون خائفة، عيون رأت كل شيء لكنها تهرب منّي،

فجأة وجدت رجلين يتقدمان مني، يحملان أسلحة، ركلني أحدهم وأوقعني على وجهي، أخرج الآخر (كلبجات) و (كلبج) معصمي، بعد دقائق وجدت نفسي في زنزانة أرضية، بين حشد ناس لا يعرفون سبب تواجدهم، في اليوم التالي تم سوقي إلى عالم المجهول..!!

* * *

قبل تلك الظهيرة بقليل خرجت من البيت لجلب بعض الأقمشة لزوجتي، رزقنا بطفل صغير، طفل لم أشبع منه نظراً، فقط ألقيت عليه نظرة سريعة، بعدما خرجت (القابلة المأذونة)، بشرتني بولد يشبهني، لم أتمالك فرحتي، جرفتنني سعادة مباغته نحو السوق، وجدت الناس حيارى، يتصامون، كأنهم في (مسغبة)، لم يشغلن ذلك، فسعادتني مضت بي منتفخ الأوداج، فاقد الكثير من فضوليتي التي أمتاز بها، اشتريت الأقمشة وعدت، لبت لم أعد، لبت مت في طريق عودتي ب (سكته فرح)، وجدت ما قلت لك، كل شيء تبخر، لا زوجتي ولا أبنني ولا البيت..!!

* * *

في اليوم اللاحق أخذوني إلى (الشماعية)، هناك عشت لا أعرف كم، قبل أن أسترد ذاكرتي، وجدت نفسي كائناً هراماً، ثلجي الشعر، لا يملك من حطام الدنيا شيئاً..!!

* * *

أين أجد زوجتي..!! أين أجد طفلي..!! على الرغم من يقيني أنهم
دفنوهم في رمال الجنوب، ناس لا تخاف من الله، تفعل بعباد الله
ما ترغب..!!

* * *

لا أريد مالاً..

لا أريد بيتاً..

أريد فقط التحري التام عن قصة ذلك اليوم المشئوم، يوم جاءت
مركبات (الأيفا) ونقلت العائلات الفقيرة إلى جهات مجهولة،
أفرغت بلدتنا العزيزة (جلبلاء) من كل (كردي) وصادرت بيته،
قبل أن تدور دائرة الزمن عليهم، وتعيد الحقوق لأصحابها
الشرعيين..!!

* * *

أين هي زوجتي يا حكومة..

أين هو طفلي..

ذلك هو مطلبي العام..!!

* * *

المواطن

سربست سامي عبد الكريم

العريضة رقم (٢)

السلام على من يعرف معنى السلام..

السلام أمانة.. ردوا أماناتنا.. لكي نعطيكم نفحات الكلمة
العطرة..!!

* * *

أنا مسؤول عما أقول..تعلمت هناك في المنفى أن ألملم جراحاتي،
أن أروّض آهاتي، أن أصنع نفسي، الناس تنظر إليّ كعمسوس
ضال، لهم التفويض الكامل على ما يقولون طالما أنتم السبب،
أيتها الفئة الغارقة في سديم الفوضى، أنتم وراء هذه السيول الغارقة
للعباد، جلستم تتشاحنون، لم تمنحوا ماضيها دقائق لإخراج
الحقائق، أليس من الحكمة أن تطرحوا أوراقنا على الرأي العام،
كي يتم تصحيح المسارات التي وضعت أنفسكم فيها من غير
بوصلة أو دليل راشد، لا نريد منكم إنصافاً، من ينصف مقيماً،
مطروداً، ما زال الوقت يستبقيه حتى إشعار آخر، لا بد أنه آت،
أنتم ما زلتكم تتصفون أنفسكم وأهاليكم وتابعيكم وتابعيهم على
حساب الناس..!!

* * *

الناس تسميني (المجنون)، الناس لا تعرف شيئاً من ماضيها،
تعرف فقط كيف تصل إلى المال، تصل إلى المناصب، تجيد
الألعاب الزمن وكيفية الفوز برضا أصحاب السيادة، ليس كل
الناس طبعاً، ناس تصنع أقنعتها وفق متطلبات المرحلة، ما تزال
ألسن تردد خلفي:

- (هذا ابن التي بالت على نفسها)..!!

يعرفون كيف يكملون حياتهم بأحاديث سعادة كلماتية،
تكفيهم الأقوال الهازلة، يضحكون، يذرفون دموع الفرح،
هكذا يفنون أعمارهم على بساط الزمن..!!

* * *

نعم أمي (بالت) على نفسها، كلام معروف، لكن لا أحد
يقول الحقيقة، أو يحكي الموقف الكامل، أمي اعتلت بعلّة
غريبة، فقدت نظرها، فقدت قوتها، ومضت تلاوي مرضاً لا شفاء
منه، هزلت وصارت مثل عصا بعدما فقدت كامل وزنها، جرّاء
فقدانها زوجها في حرب (تشرين)، لم تتفعها العقاقير ولا عصا
(سيد البلدة) التي أخرجت الشياطين من كل جسد مسكون
بالهلوسات، خرجت أبحث عن ممرض كي يحقنها بإبرة مهدئة،
لحظة عدت وجدت البيت ينقع فيه يوم الشؤم، أليس من حقي أن
أفقد صوابي، نعم سمعت أنها (بالت) على نفسها، العسكريون
ضحكوا عليها وهي تشخ والبول كما سمعت بلل ثوبها، أمي التي
هرمت قبل أوانها ضعيفة البصر، ثقيلة السمع، امرأة شهدت

القضية كاملة لحظة اقتحمت صفوف العسكر وراحت ترفع أمي
بيطانية وتقلها إلى حوض (الأيفا) ..قالت:
- العسكريون لم يسمحوا لها أن تزحف إلى (المراحيض)،
لكم توصلت كي يسمحوا لها أن تزحف إلى (بيت الخلاء) ..ظلّوا
يضحكون عليها ، فقدت إرادتها وحررت ماء مئانتها..!!

* * *

من أين آتي بتلك الشاهدة الوحيدة على ما جرى لي، ربما هي
ماتت، ربما هي هرمت، أربعة عقود مضت على تلك اللحظة، ها
أنا أتعكز بعد عودتي من الصحاري، ليس بوسعي النظر، أريد أن
تنظروا في أمري، أريد مأوى لبقية عمري، أريد رفاة أمي، أريد
منكم إنصافاً يا أصحاب السيادة..!!

المواطن

فتح الله شمس الدين

العريضة رقم (٣)

السلام عليكم..

موجز قضيتي..

عدت من عملي، مستخدم في بلدية (جليلاء)، ما أن تناقلت الألسن خبر قيام مركبات عسكرية بنقل العوائل (الكوردية) إلى الجنوب، أمشي وأسقط، فالألسنة أكدت أن الجهة التي تم تهجير ناسها هي جهة مسكني، وصلت البيت، لم أجد سوى الوحشة..
قالت جارة:

- أخذوا أطفالك.

- أين هي زوجتي.

- في المشفى.

زوجتي في تلك اللحظة داهما الطلق رغم أنها في شهرها السابع، رحلت أركض وأسقط، وصلت المشفى، لم أجد لها في ردهة الولادات القيصرية.. قال لي الطبيب:
- جاءت مركبة عسكرية ونقلتها..!!

* * *

عرفت فيما بعد أن تلك المركبة التي حملت أطفالي الأربعة مضت إلى المشفى وانتزعت زوجتي من سريرها، ومضوا بكل

روحي إلى المجهول..!!

* * *

قالت لي الجارة:

- قبل أن تقف المركبة ببابك، حصل لها (الوجع)، تم نقلها إلى
المشفى، لكم توسلت بهم، نهروني وأجبروني على السكوت،
يلعنهم الله، عسكر بلا رحمة..!!

* * *

تم طردي من الوظيفة بعدما هربت إلى الشمال، هناك بقيت
أنتظر نهاية المصير، ها أنا عدت لأجد بيتي (مصادر) من قبل
شخص لديه كتب رسمية تؤكد شراء البيت من الحكومة
الساقطة، الكثيرون انتزعت بيوتهم بقوة السلاح، أنا لم أحبذ تلك
الهمجية، أريد من القانون أن ينصفني..!!

* * *

تطلبون منّي شهود أثبات أو أوراق تأكيد لما أقول، من أين أطلب
شهود تلك الواقعة، ماتوا أو ضاعوا في متاهات البلاد، هل من
الممكن أن تسلّم تلك السلطة المنقرضة أوراق إدانة ضد نفسها لنا..!!

* * *

أطلب كامل التعويض عن خسارتي..

أطلب التحريّ التام عن عائلتي..

أطلب بيتي..!!

المواطن

نامدار عبد الرحمن

العريضة رقم (٤)

أصحاب رقابنا وأموالنا..!!

مختصر مفيد..من أين أتى بشاهد على ما أقول..!!

لن أفعل مثلما فعل الكثيرون، جاءوا بشهود زور، لا..لن أريد منكم سوى التحقيق مع السيد (.....) ومع السيد (.....) هما الآن صاحبا نفوذ ويمتلكان سلطة ضمن الحاشية القيادية، هما وراء ما جرى لي، تعرفون جيداً من هما، تعرفون تاريخيهما، اليوم تفرشون لهما البسط وتتحنون أمام قدميهما، السيد (.....) أشرف على (أنفلة) عائلتي، قام أمام شهود عيان بركل زوجتي بحدائه لحظة طلبت منه طلباً بسيطاً، طلبت أن تودع طفلتنا الصغيرة عند الجارة أم (.....)، لأنها خشت عليها من الموت، طفلتنا (شيرين) أصابها حمى (المالاريا)، بعدما منعونا من المياه الصالحة للشرب، البلدية جاءت وأوقفت جريان الماء عن (حي الأكراد) بقرار جاء من السلطة العليا، مضينا نجلب الماء من الوادي الكبير الذي يشرح بلدتنا المثالية (جلبلاء)، ماء الأمطار المتراكمة، ماء مالح، نقوم بغليه وشربه، أصيبت (شيرين) بحمى عسيّة، لكن (.....) المسؤول السيادي ركلها بحدائه وسقطت زوجتي (بروين) على الأرض،

وجدت أقدام تلبس (بساطيل) تركلها، قبل أن تكتشف نفسها
داخل (الأيفا)، لم يعد أحد يعرف شيئاً عنها بعدما تحركت
الحوضيات العسكرية وهي تنقل أكراد (جلبلاء) إلى المجاهيل
السياسية..!!

* * *

لحظة عدت، وجدت مفرزة واقفة، صاح أحدهم:
- ولك كلب تعال..!!
وجدت يد قويّة تهبط على رأسي، راحت الضربات تتواصل،
قبل أن أجد نفسي ضمن قوافل رجال وشباب داخل زنزانة إدارة
البلدة..!!

* * *

في اليوم التالي قسمونا إلى ثلاث فئات، لم يحتكموا لفارق
العمر ولا وظيفة كل معتقل، وجدت نفسي ضمن فئة أخذتنا
مركبة قفصية بعدما عصبوا عيوننا إلى مكان ما..!!

* * *

وجدت نفسي في سجن ليس هناك سوى سماء لا تمطر ونجوم لا
تشع ورياح لا ترعوي وماء مالح وطعام حجري وضرب يومي..!!

* * *

يوم تم تحريرنا من تلك المنايا، جهلت كم هو عمري، ضعيف

البصر، مشلول القدرة، غريباً أو اصل البحث عن تفاصيل تلك
الأيام المظلمة..!!
أريد عائلتي..
أريد (بروين) زوجتي..
أريد (شيرين) ..أريد أولادي الثلاثة (شيركو - كاوه - سرياز) ..

* * *

المواطن

أشتي رستم رؤوف

العريضة رقم (٥)

يا.حكووووووووووووووووووووووووووووووو.م.

أين أنتم..!!

أم أنكم نائمووووووووووووووووووووووون..!!

أنا امرأة ضعيفة الحال، ضعيفة البصر، لا أملك من دنياي سوى نفسي، الحكومة الملعونة، سلبت مني ولدي وزوجته، أخذوهم إلى الموت، كل الناس قالت لي يومها، أقرئي الفاتحة على روحيهما، ذهبت في مشوار إلى الشمال، لم أسمع بالخبر، ويوم عدت وجدت الوجوه تنظر إلي بريية، العيون ترتبك، أوضحت امرأة لي تسكن بيتي:

- أرجعي إلى الشمال، سيأخذونك أيضاً.

فقدت صوابي، جلست وأنا ألطم صدري، أحث التراب على رأسي، جاءت مفرزة وسافقتني إلى مكان بعيد جداً، ألقوني بين ناس لا أعرفهم، هرمت من البكاء والقهرة، ويوم أخرجونا، ها كما تروني، أمشي بعكاز..!!

* * *

أين هما..يا حكومة..!!

أنتم تعرفون كل شيء، إن هما (شهيدين) أريد رفاتيهما، أريد
أن أجعل لهما قبرين صغيرين، كي أقضي بقية أيامي بكاء
عليهما..!!

* * *

المواطنة

عائشة عبد الكريم مريوان

العريضة رقم (٦)

ماذا أقول:

أنا لست (كورياً)، أوراقي كلها تثبت ذلك، هويتي الشخصية وشهادتي الجنسية، كيف ساقوني مع العوائل (الكوردية)، نعم أنا أتلكم (الكوردية) بطلاقة، تعلمنا اللغة لأننا نسكن معاً، لنا رفقة عمر ابتدأت من الطفولة، تعلمنا من خلالها لغتهم، حتى أننا صرنا جزء منهم، لا فرق بيننا، فجأة وجدت نفسي أمام مركبة (إيفا)، هبط الجنود وأمروني بالصعود، أنا وزوجتي وطفلي (حازم وحاتم)، حاولت أن أسأل عن السبب، لم يمهلوني فرصة للتفاهم، حين ألقونا في صحراء بعيدة، وجدت نفسي مع عائلتي بين مئات من العائلات (الكوردية)، هناك فقط عرفت أن الحكومة أخطأت بحقنا، قالوا لي قدم طلباً حول الإلتباس الذي حصل، قدمت طلبي، مضت السنوات ولم أحصل على جواب، لا أكتمم السر إنني كرهت الحكومة وأحببت الناس اللذين حسبوني منهم..

ماذا تقولون بحقي..

أين بيتي..

ماذا تقدمون لنا من تعويضٍ لحياتنا التي احترقت..!!

* * *

المواطن

خلف جدعان مخلف

المؤلف في سطور

تولد : ١٩٥٩ - جلولاء - ديالى - العراق

قاص وروائي وكاتب مسرحي ومقال..

عضو اتحاد الأدباء والكتّاب/العراق منذ ١٩٩٥

كتب صدرت:

- (١) هواجس بلا مرافئ (مجموعة قصصية) دار الشؤون الثقافية العامة : ٢٠٠١
- (٢) ثغرها على منديل (مجموعة قصصية) ط ١ - دار ناجي نعمان - لبنان - ٢٠٠٨
- (٣) بينما نحن.. بينما هم (مجموعة قصصية) ط ١ - دار الينابيع - دمشق - ٢٠١٠
- (٤) الحزن الوسيم (رواية) دار الينابيع - دمشق - ٢٠١٠
- (٥) بعل الفجرية (رواية) دار - الكلمة - مصر - ٢٠١٠
- (٦) بقايا غبار (مجموعة قصصية) دار رند - دمشق - ٢٠١٠
- (٧) قفل قلبي (رواية) دار فضاءات - عمّان - ٢٠١١
- (٨) خوذة العريف غضبان (خمس مسرحيات) دار - رند - دمشق - ٢٠١١.
- (٩) من أجل صورة زفاف (مسرحيتان) دار - رند - دمشق - ٢٠١١
- (١٠) أولاد اليهودية (رواية) دار - رند - دمشق - ٢٠١١
- (١١) ليسوا رجالاً (مجموعة قصصية) دار - رند - ٢٠١١
- (١٢) البحث عن هم (مسرحية) دار - رند - دمشق - ٢٠١١
- (١٣) بينما نحن بينما هم و ثغرها على منديل (مجموعتان) طبعة ثانية، دار - رند - دمشق ٢٠١١.
- (١٤) (حكائتي مع رأس مقطوع) رواية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - عمّان - ٢٠١١

(١٥) امرأة الكاتب (مقالات ودراسات أدبية) دار - رند - دمشق - ٢٠١١

جوائز :

- ◆◆المرتبة الثالثة عام ١٩٩١ عن قصة (كرنفال للشهيد) .
- ◆◆المرتبة الأولى عام ٢٠٠٣ عن قصة (يوم اغتالوا الجسر) .
- ◆◆جائزة الإبداع عن المجموعة القصصية (ثغرها على منديل)
- ضمن مسابقة ناجي نعمان الثقافية الدورة الخامسة ٢٠٠٧ لبنان.
- ◆◆المرتبة الأولى عام ٢٠٠٨ عن قصة (مزرعة الرؤوس) في مسابقة (مركز النور- السويد) .
- ◆◆المرتبة الثانية عام ٢٠١١ عن رواية (أولاد اليهودية) في مسابقة مؤسسة - الكلمة - مصر .
- مسابقة نجيب محفوظ للقصة والرواية - الدورة الثانية - ٢٠١٠
- [..عضو فخري في مؤسسة ناجي نعمان/لبنان/]